العباسة أخت الرشيد

أو

نكبة البرامكة

رواية تاريخية غرامية

هي الحلقة العاشرة من سلسلة روايات تاريخ الاسلام

وتشتمل على نكبة البرامكة وأسبابها وما يتخلل ذلك من وصف
مجالس الخلفاء ومجالستهم وملابسهم ومواكبهم وبيان
ما بلغت اليه الدولة من الحضارة والابهة
في عصر الرشيد

تأليف

جرجي زيدان

منشيء الهلال

الطبعة السادسة

obeikandl.com

obeikandl.com

مقدمة الطبعة الاولى

روايات تاريخ الاسلام

تدرجنا في أثناء هذه الروايات في بسط تاريخ الاسلام ووصف أحوال العرب وسائر المسلمين في جزيرة العرب وبلاد الشام والعراق ومصر وغيرها من زمن الجاهلية فصدر الاسلام فأيام بني أمية في الشام والاندلس فأيام بني العباس الى عصر الرشيد وهو موضوع هذه الرواية . فضمناها أشهر حادثة من حوادث ذلك العصر وأغربها نعني نكبة البرامكة التي اختلف المؤرخون والرواة في اسبابها وتفاصيلها . وبذلنا الجهد في استطلاع تلك الاسباب من سياسية وأدبية وتاريخية . وبسطناها في سياق قصة غرامية تواتر ذكرها في كتب التاريخ والادب مختصرة واليها ينسبون تلك النكبة فجعلناها مدار هذه الرواية وتوسعنا فيها ووشحناها بما بلغ اليه عصر الرشيد من الثروة والرخاء والابهة والحضارة وما كان من رسوم الخلفاء في مجالسهم ومواكبهم والآداب المرعية في مجالستهم ومخاطبتهم وما انغمسوا فيه من الترف والبذخ في الملابس والاثاث والرياش وما تفشى بينهم من أسباب الجاسوسية مع تكاثر الجواري والسراري

فرسمنا ذلك العصر في صورة مكبرة جمعنا فيها أبهى مناظره وأهم مظاهره . فاذا لم تكن هي الحقيقة بعينها فانها كثيرة الشبه بها . واذا كان بعض حوادثها لم يقع فعلا فوقوعه ممكن . لان الروائي المؤرخ لا يكفيه تقرير الحقيقة التاريخية مجردة وانما هو ينمقها بما يوضحها ويزيدها رونقاً من آداب العصر وأخلاق أهله وعاداتهم حتى يخيل للقارىء أنه عاصر أبطال الرواية وعاشرهم وشهد مجالسهم ومواكبهم واحتفالاتهم — شأن المصور المتفنن في تصوير حادثة يشغل ذكرها في التاريخ سطراً أو سطرين فيشتغل هو في تصويرها عاماً أو عامين . فمقتل جعفر البرمكي مثلا عبر عنه المؤرخ ببضع كلمات . أما المصور فلا يستطيع تصويره الا اذا كان مطلعاً على عادات ذلك العصر وطبائع

أهله وأشكال ملابسهم وألوانها وضروب الفرش وأشكال الاسلحة ليمثل كلا من القاتل والمقتول بقيافته وشكله . وينبغي له أن يكون عالماً بانفعالات النفس وما يبدو من آثارها على الوجه أو في حركات الجسم ليمثل غضب القاتل وشراسته وخوف المقتول أوكآبته . غير ماتقتضيه الصناعة من تصوير مكان الواقعة ان كان غرفة أو شارعاً أو بادية أو حديقة والزمان الذي وقعت فيه ان كان صبحاً أو أصيلا أو عشاء . ولكل من هذه الاحوال أشكال وألوان لا يتم جمال الصورة إلا باتقانها

وذلك شأن الروائي بالنظر إلى التاريخ فهو يمثل تلك الاحوال ويصور أشكالها وألوانها بالالفاظ من عند نفسه فيوشح الحادثة التاريخية بخلاصة درسه الطويل في آداب القوم وعاداتهم واخلاقهم وآدابهم والتفطن لآثار العواطف في مظاهرهم مع بيان ما يحف بتلك الحادثة من الشؤون المعاصرة ويطبق وصفه على نظام الاجتماع وأحوال العائلة في ذلك العصر . واذا رجع المطالع الى تحقق الحوادث التاريخية على اجمالها وجدها حقيقة ثابتة ـ ذلك ما توخيناه في سائر رواياتنا والله المستعان في تتميم هذه السلسلة بمنه وكرمه

مقدمة الطبعة الثانية

صدرت الطبعة الأولى من هذه الرواية سنة ١٩٠٦ وصدر بعدها من سلسلة روايات تاريخ الاسلام خمس حلقات هي : الامين والمأمون . عروس فرغانة . احمد بن طولون . عبد الرحمن الناصر . الانقلاب العثماني . وقد أعيد طبع أكثر حلقاتها غير مرة وأكثرها ترجمت الى اللغات الاخرى وقد فصلنا ذلك في مقدمة رواية أبي مسلم الخراساني . ونتوسل اليه تعالى أن يأخذ بيدنا لاتمام هذا العمل وهو حسبنا

﴿ وهذه هي الطبعة السادسة ـ ١٩٣٢ ﴾

الفصل الاول

مدينة بغداد

كانت عاصمة الاسلام في أيام الراشدين يثرب (المدينة) تبركاً بقبر النبي فجعلها بنو أمية في دمشق مقر احزابهم من قبائل العرب . فلما أفضت الخلافة الى بني العباس وقد ساعدهم عليها مواليهم الفرس جعلوا عاصمة ملكهم على حدود بلاد الفرس . وكانوا أولا في الكوفة اذ بايعهم اهلها ثم انتقلوا الى الانبار على الفرات وفيها توفي السفاح أول الخلفاء العباسيين وخلفه المنصور . وأول شيء باشره قتل ابي مسلم خوفاً منه على منصبه فقتله غيلة كما تقدم في رواية « ابى مسلم الخراسانى » فأصبح المنصور بعد قتله يخاف على نفسه من أصحاب ابى مسلم واشياعه وخصوصاً بعد أن ثار عليه منهم جماعة الراوندية وكادوا يفتكون به لو لم يدافع عنه معن بن زائدة . وقد فتك رجال المنصور بالراوندية وقتلوهم لكنه ما زال خائفاً من مثل هذه الثورة . فعمد الى بناء حصن يأوى اليه بأهله ورجال حكومته فبنى بغداد بشكل مستدير سمى مدينة المنصور جعل قصره في منتصفه وسماه قصر الذهب وجعل قصور الامراء ورجال الدولة وابنية مصالح الدولة حوله وبينها الاسواق للبيع والشراء . وبنى حول المدينة سوراً في ثلاثة اسوار الواحد داخل الآخر . الاول أو الداخلي محيط بالابنية ووراءه فراغ فيه أبنيه كالقلاع ونحوها ووراء الابنية سور ثان متين وراءه فراغ للمرور حوله . ووراء هذا الفراغ سور ثالث ووراء هذا السور خندق فيه الماء . وجعل للمدينة أربعة ابواب سماها بأسماء المدن التي تتجه نحوها وهي ابواب البصرة والكوفة والشام وخراسان (راجع الخارطة في الصفحة التالية) وافتتح فيها اربعة شوارع كبرى تمتد من الابواب الى مركز المدينة

وكان المنصور يقيم أولا في قصر الذهب في منتصف مدينته ثم اطمأن باله وازدحمت المدينة فابتنى قصراً خارج المدينة على شاطيء دجلة سماه قصر

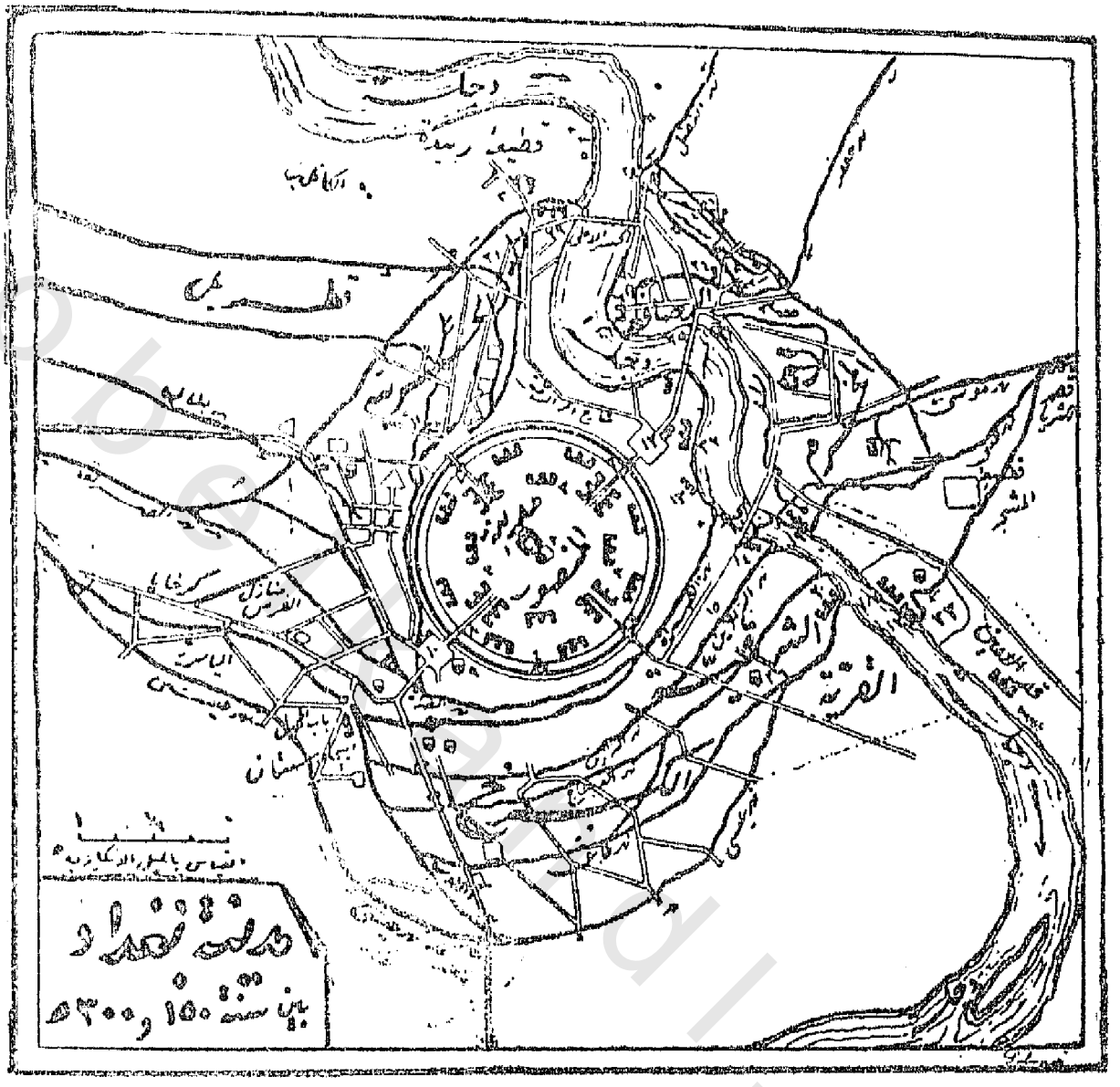

١ قصر الذهب أو القبة الخضراء
٢ جامع المنصور
٣ ابنية الحكومة لمصالح الدولة
٤ المطبق
٥ باب البصرة
٦ باب خراسان
٧ باب الشام
٨ باب الكوفة
٩ جامع المسيب
١٠ ديوان الصدقة
١١ سجن باب الشام
١٢ الميدان وبجانبه الاسطبل
١٣ دار القرار (قصر زبيدة)
١٤ دار حميد بن عبد الحميد وباب شمير
١٥ جامع معروف الكرخي
١٦ مشهد علي
١٧ قصر جعفر البرمكي ثم صار من قصور الخلافة
١٨ قصر التاج
١٩ قصر الفردوس
٢٠ دار عيسى
٢١ قصر الخصيب
٢٢ قصر المعتصم
٢٣ دار الروم (البطركخانة)
٢٤ قصور البرامكة
٢٥ باب الطاق
٢٦ قصر المهدي
٢٧ جامع الرصافة
٢٨ باب الشماسية وقصر موسى
٢٩ قصر الحريم الطاهري
٣٠ قصر زبيدة
٣١ دار الرقيق
٣٢ قصر الخلد
٣٣ حدائق القصور والبساتين

الخلد (رقم ٣٢ في الخارطة) وظل القصران مقر الخلفاء بعد المنصور الى أيام الرشيد وكان الرشيد يفضل الاقامة في قصر الخلد وأكثر إقامته فيه

على ان مدينة المنصور لم تكن وحدها كافية لاقامة الجند ومن يلحق بهم من الباعة والاهل وغيرهم ناهيك بمن تقاطر الى تلك العاصمة من المسلمين وغير المسلمين. فابتنوا المنازل خارج المدينة فرأى المنصور أن يقلل الازدحام فرغب الناس في السكنى على البر الشرقي في مكان سمي الرصافة وأنشأ فيه جامعاً وقصراً فابتنى الناس حولها المنازل . واتفق ان ابنه المهدي جاء بجيشه من خراسان فنزلوا في الرصافة لانها آخر طريقهم براً من خراسان فأمرهم المنصور أن يبقوا هناك وأقطعهم القطائع فابتنوا المنازل وأصبحت الرصافة بلداً كبيراً . وكانت في بادىء الرأي معسكراً يعرف بمعسكر المهدي ثم امتدت جنوباً وشمالا فتولدت أحياء المخرم والشماسية . وأقام الخلفاء الدور على ضفاف دجلة شرقاً وغرباً يهمنا منها في هذا المقام قصر الخلد (٣٢) وقصر زبيدة (١٣) وكلاهما على الضفة الغربية وقصر جعفر البرمكي (١٧) ووراءه قصر الامين على الضفة الشرقية

ونشأ حول مدينة المنصور أحياء أخرى على الجانب الغربي أهمها الكرخ وفيه كان يقيم التجار من الاجانب وخصوصاً الفرس . وحي الحربية في الشمال وأكثر سكانه من العرب . فكانت بغداد في أيام الرشيد قسمين قسما شرقياً وقسما غربياً يوصل بينهما ثلاثة جسور أهمها الاوسط ويعرف بالجسر أو جسر بغداد وهو يوصل بين مدينة المنصور والرصافة رأساً . وكان في بغداد على عهد الرشيد وما بعده أنهر مجرورة اليها من دجلة والفرات تخترق أحياء المدينة وقد بنى الناس قصورهم على ضفافها أو فيما بينها . أشهرها نهر عيسى ونهر طابق ونهر الدجاج ونهر البزازين ونهر الصراة ونهر جعفر وغيرها

وكانت بغداد في أيام الرشيد آهلة بالقصور والحدائق وأهلها في رغد ورخاء والاموال تنصب في خزائنها بالملايين والخليفة يهب ويجيز والناس يتقاطرون الى بغداد التماساً للتكسب بما يرضي الخليفة او رجاله من اسباب

الارتزاق وفيهم العربي والفارسي والرومي والتركي والكردي والارمني والكرجي والسندي والهندي والصيني والزنجي والحبشي على اختلاف الملل والنحل بين صانع وتاجر ونخاس وشاعر ومغن وأديب ونحوي وراو وفيهم المسلم والذمي والحر والمولى والعبد والغلام والجارية . وكلهم يحومون حول دار الخلافة او دور الامراء يبيعونهم السلع او يتملقونهم بالمديح او يدسون اليهم اسباب الزلفى استنزافاً للاموال . وهؤلاء يبذلون الاموال بسخاء يأنفون ان تعد عطاياهم بمئات الدراهم وانما يعدونها بالالوف وألوف الالوف. وكيف يعرفون للمال قيمة وهو ينصب في خزائنهم انصباب السيل اذ كانوا يشاطرون اهل الارض غلاتهم فضلا عن الجزية والغنيمة فاذا صار ذلك الى الخليفة وأمرائه استكثروه فانفقوه في من يحوم حولهم من المقربين

الفصل الثاني

ابو العتاهية

وكان في جملة المرتزقين بالشعر على أبواب الخلفاء ابو العتاهية وأصله من الموالى مثل اكثر شعراء ذلك العصر

وكان ابو العتاهية في اول امره يصطنع الجرار ويحملها في قفص على ظهره ويدور في الكوفة ليبيعها وكان ذا قريحة شعرية فقدم بغداد وما لبث أن ارتقى بشعره الى مجالسة الخلفاء . وأول من قربه منهم المهدي بن المنصور وقد فتن به وبشعره حتى كان المهدي يصحبه في الصيد او النزهة ويكرمه ويجيزه . وكان ذلك شأنه مع الهادي بن المهدي ولم تطل مدة حكم الهادي ولكنها على قصرها أثرت في قلب أبي العتاهية فلما مات الهادي عاهد ابو العتاهية نفسه ألا يقول شعراً بعده

فلما تولى هارون الرشيد طلب اليه ان يقول شعراً فأبى فغضب عليه وأمر بحبسه فى بيت مساحته خمسة اشبار في خمسة فاستعطفه وقال شعراً غنى به الموصلي المغني المشهور فأمر له الرشيد بخمسين الف درهم . وحظي

عند الرشيد حظوة كبيرة حتى كان لا يفارقه في حضر ولا سفر إلا في طريق الحج وعين له الرشيد راتباً سنوياً غير الجوائز وغير ما كان يناله من رجال الدولة وجوائزهم يومئذ بألوف الدراهم فجمع مالا كثيراً . لكنه كان مع ذلك طماعاً شديد البخل يجمع المال ولا ينفقه ولا يدخر وسعاً في حشده بأية طريقة كانت وخصوصاً بعد ان نذر الزهد وعاهد نفسه أن لا ينظم شعراً فقل تكسبه من الشعر فأخذ يغتنم الفرص للاكتساب من ابواب أخرى

وكان أبو العتاهية في خلافة الرشيد حوالي سنة ١٧٨ هـ يحضر مجلس محمد الامين بن الرشيد وهو يومئذ في السابعة عشرة من عمره . وكان الامين ميالا الى القصف واللهو منذ نعومة اظفاره لا يخلو مجلسه من المغنين وأهل الخلاعة والجواري والغلمان وهو أول من استكثر من الغلمان والخدم وتفنن في انتقائهم وتزيينهم - وكان يشهد مجلسه كثيرون من الشعراء ولا سيما أهل القصف والمجون منهم كالحسن بن هانيء الملقب بأبي نواس . وكان ابو العتاهية مقرباً من زبيدة أم الامين فكان يحضر مجلس الامين لعله يصيب كسباً أو جائزة بسبيل من السبل . وكان الامين كريماً مسرفاً لا يعرف للدراهم قيمة

وكان لا يشهد مجلس الامير من أهل الجد والدهاء الا من كان له غرض سياسي لا يرى الوصول اليه الا على يد الامين أو تقرباً به إلى أمه زبيدة وهي أحب نساء الرشيد اليه لانها ابنة عمه ولها كلمة نافذة عليه

وكان أكثر نساء الخليفة يومئذ من الجواري المعتقات ولذلك لم يكن بين العباسيين خليفة أمه وأبوه هاشميان الا الامين . فكان الذين يحبون التقرب من الرشيد بالدالة أو الوساطة أو الدسائس يتزلفون اليها بالثناء على ابنها مع اعتقادهم أنه ليس أهلا للخلافة ويطعنون بأخيه المأمون لان أمه جارية فارسية ويحطون من قدره عندها وهو بالحقيقة أرقى من أبنها عقلا وأدباً

وكان أكثر الناس سعياً في هذا السبيل الفضل بن الربيع لان أباه كان وزيراً للمنصور والمهدي وكان هو يرشح نفسه للوزارة . فلما تولى الرشيد الخلافة قرب يحيى بن خالد البرمكي وفوض الى ابنه جعفر بن يحيى

الوزارة بكل معانيها لان أباه يحيى كان سبباً في نيله الخلافة فشق ذلك على الفضل بن الربيع وثارت في نفسه عوامل الحسد ولم يدخر وسعاً في استنباط الاسباب للايقاع به ولم يجد سبيلا الى ذلك الا بالتزلف الى زبيدة وابنها لعلمه انها تكره الفرس على الاجمال والبرامكة على الخصوص ولا سيما جعفر بن يحيى لانه حمل الرشيد على مبايعة المأمون (ابن جاريتها) بولاية العهد بعد ابنها الامين . فكانت تقرب كل من ينصر ابنها ويطعن بالمأمون ولذلك كان الفضل يحضر مجلس الامين في لهوه ويسايره في قصفه ويتملقه للغرض الذي قدمنا

فاتفق في مجلس حضره أبو العتاهية تلك السنة ان الامين ذكر عزمه على ابتياع بعض الجواري البيض ممن يحسن الغناء يضمهن الى اللواتي في قصره وأكثر المغنيات يومئذ من الجواري الصفر

وكانوا يقتنون الجواري البيض للتسري فقط وأول من علم الجواري البيض الغناء ابراهيم الموصلي مغني الرشيد . فأحب الامين ان يتخذ مغنيات من البيض فأخبره الفضل بن الربيع ان كبير النخاسين أتى بجلبة من الجواري الحسان أنزلهن عند كبير من تجار الرقيق في بغداد وهو يهودي واسمه فنحاس وان الناس معجبون بجمالهن الفتان فيمكنه ابتياع بعضهن ويعهد الى الموصلي ان يعلمهن الغناء . وأخذ الفضل على نفسه أن يذهب في الغد الى ذلك التاجر فينتقي له أحسنهن طلعة وأطربهن صوتاً . فلما سمع ابو العتاهية ذلك تنسم منه ربحاً كبيراً بالتواطؤ مع فنحاس لعلمه ان الامين لا يهمه مقدار ما يدفعه من المال في هذا السبيل

وكانت الشمس قد مالت الى المغيب فرأى ان يذهب في تلك الليلة الى فنحاس يخبره بعزم الامين وانه هو الذي حمله على ابتياع الجواري من عنده ويغريه على زيادة كمية كبيرة على الثمن الذي يقدره هو على أن تكون تلك الزيادة مقابل سعيه في ذلك

الفصل الثالث

غريبان

فهرول ابو العتاهية من ساعته يتلمس دار ذلك التاجر والمسافة بينهما بعيدة لان قصر الامين في جنوب المخرم في الجانب الشرقي من بغداد ودار فنحاس في أعالى الجانب الغربي بقرب دار الرقيق التي انشأها المنصور لما كان يبتاعه من الجواري والغلمان المجلوبين . وكان ابو العتاهية ابيض اللون أسود الشعر نظيف الثياب له وفرة جعدة وهيأة حسنة ولباقة وحصافة . وكان تلك الليلة في لباس بسيط غير ما تعود لبسه في مجلس الخليفة أو ابنه أيام كان ينظم الشعر وكان منذ عاهد نفسه على الزهد يلبس ثياب الفقراء وربما ساعده على ذلك بخله . وكان يلبس فوق ثيابه عباءة بسيطة ويعتم بعمامة بسيطة كانه من عامة الناس . فالتف تلك الليلة بالعباءة وغير شكل عمامته اخفاء لحقيقة امره لانه ذاهب في شأن يحتاج الى التستر

فمشى على شاطىء دجلة وهو يتردد بين أن يصعد في احدى السفن التي تسير في دجلة حتى يصل الجسر وينزل من هناك ماشياً الى دار الرقيق أو يجعل طريقه كله براً . وكان يفضل الذهاب ماشياً فراراً من نفقة الانتقال بالسفينة أو على دابة من دواب الاجرة . فلما اطل على دجلة رأى بالقرب من الشاطىء شراعاً منشوراً وسفينة تخترق عباب الماء على عجل . فاستبشر وعزم على الركوب فيها . وكان الليل قد سدل نقابه وسكنت الطبيعة لبعد ذلك المكان عن الشوارع المزدحمة في الكرخ لان اكثر الابنية القائمة على ضفاف دجلة من القصور الشماء والحدائق الغناء للخليفة أو وزيره أو بعض أولاده او اهله . فصاح ابو العتاهية للسفينة أن تقف فلم يجد صياحه نفعاً فاعاد النداء فاجابه ربانها انه لا يستطيع الوقوف فأعاد الصياح قائلا « قف ناشدتك المروءة »

فسمع ابو العتاهية عند ذلك لغطاً ورأى النوتية في حركة عند الشراع

فأرخوه بحيث تبطيء السفينة في سيرها ورأى حركة المجاذيف فعلم أن أهلها في عجلة لامر ما وليس لمجرد النزهة في مياه النهر على جاري عادة أهل بغداد ولم تكن الليلة مقمرة تصلح للنزهة فاعجبته سرعة السفينة وبرز رجل حتى وقف حافة على السفينة ونادى « من انت ؟ »

فقال « اني غريب أمسى علي المساء وأحب الطلوع الى الحربية ولا اعرف الطريق »

فلما سمع الربان قوله تحول عن حافة السفينة حتى توارى والسفينة تتباطأ في سيرها ولبث ابو العتاهية في انتظاره وبعد هنيهة عاد الربان وهو يقول « مرحباً بك تفضل » وأدنى السفينة من الشاطيء ثم أمر بعض النوتية فألقى خشبة بينها وبين الشاطيء مشى عليها ابو العتاهية حتى دخل السفينة وحيا الربان فرد التحية وأشار اليه ان يجلس على دكة بجانب الشراع فجلس واجال نظره فلم يجد هناك غير النوتية وهم اربعة يستعينون على سرعة المسير بالتجذيف . وحانت منه التفاتة الى مؤخر السفينة فرأى على نور القبس رجلا وامرأة عليهما ثياب أهل البادية وقد جلسا الارباء واحنيا رأسيهما من النعاس وهما قاعدان وبجانب الرجل نعال غليظة من نعال أهل الحجاز ورأى بين ايديهما غلامين قد توسدا ظهر السفينة وجعلا رأسيهما على حجر المرأة كل واحد من ناحية وعليهما ثياب أهل البادية وقد غطتهما المرأة بمطرف من الخز الموشى فاستغرب ذلك وجره حب الاطلاع الى استطلاع خبرهما

وكانت السفينة تخترق النهر وكان الجو هادئاً لا يسمع فيه غير مسير السفينة تشق عباب الماء واصوات المجاذيف تنقر سطحه بانتظام . وما لبثوا بعد برهة أن اطلوا على ابنية بغداد وقد انيرت القصور على الضفتين ثم سمعوا اصوات المؤذنين يدعون الناس الى صلاة العشاء فوجد أبو العتاهية بذلك حيلة لمخاطبة الربان فقال « اليس عندك طنفسة أصلي عليها العشاء »

فنهض الربان وجاءه بطنفسة فرشها على ظهر السفينة بالقرب من أولئك الغرباء . فنهض ابو العتاهية واخذ في الصلاة وعيناه لا تحولان عن ذينك

الغريبين والغلامين وهو يتفرس بالوجوه . فعلم ان الرجل والمرأة من أهل الحجاز وهما كهلان وخشونة البادية ظاهرة في قيافتهما . وأما الغلامان فكان نور القبس قد وقع على وجهيهما فعرف ابو العتاهية من خلال خفقان نور القبس انهما أخوان احدهما في الخامسة من العمر والآخر في نحو الرابعة وفي وجهيهما جمال أهل المدن بلون ابيض مشرب حمرة ولهما عيون طويلة الاهداب كأنها مكحولة بالاثمد قد زادها دفء الغطاء اشراقاً وحمرة وهما مستغرقان في النوم . ورآهما أصغر سناً من ان يكونا ابني ذينك البدويين فازداد رغبة في معرفة خبرهما وما صدق ان فرغ من الصلاة حتى اقترب من الربان وسأله قائلا « لم اعرف رفاقنا الليلة فهل هم غرباء مثلي »

فقال « نعم »

قال « من أين أتوا ؟ »

فقال الربان « مالك ولهذا السؤال ؟ »

قال « لان الغرباء انسباء »

فضحك الربان ضحكة اغتصابية وقال « لا يهمك الاطلاع على اخبار الناس دع عنك الفضول فاني لم أسألك من اين اتيت او الى اين ذاهب ولا ما هو اسمك ونسبك » . قال ذلك وتركه وتحول الى حافة السفينة وكانت قد تجاوزت الجسر السفلي وكان مفتوحاً وفتحه سهل لانه مؤلف من السفن السابحة متصلة بعضها ببعض بالسلاسل وفوقها ألواح من الخشب لمرور الناس والدواب . وبعد ان تجاوزت السفينة الجسر أطلت على مدينة المنصور واقتربت من الجسر الاوسط ويندر ان يكون مفتوحاً فقال الربان « قد اقتربنا من الجسر وهذا آخر شوطنا فتفضل وانزل »

وكان ابو العتاهية قد استاء من خشونة الربان وهم ان يطلعه على حقيقة حاله لانه لو عرفه لاحترمه لما كان للشعراء من النفوذ في دور الخلفاء ولكنه فضل الكتمان . ولما سمعه يناديه وقف وأسرع الى حافة السفينة فاذا هو بقرب قصر الخلد حيث يقيم الرشيد وقد أضيء القصر بالشموع الملونة وانبعثت الانوار من النوافذ على اغراس الحديقة وتضوعت الروائح

الزكية فاختلطت رائحة البخور والطيب بشذا الازهار والرياحين وتذكر ابو العتاهية المهمة التي هو ذاهب بها وما يتوقعه من وراء نجاحها من الكسب المالي فأغضى عما كان يبعثه عليه حب الاستطلاع وقال للربان وهو يضحك « هل نزل في قصر امير المؤمنين ؟ »

قال « سننزلك وراءه بالقرب من الجسر »

قال « حسناً » وعاد الى التفكير في تدبير ما ينبغي ان يقوله افنحاس صاحب دار الرقيق اذا لقيه وأخذ يعد نفسه للمسير على قدميه المسافة الباقية وما هي قليلة وود لو ان هذا الجسر مفتوح مثل الجسر السفلي ليتم سفرته بالسفينة فاصلح عمامته وشد منطقته فوق القباء وتزمل بالعباءة حتى اذا دنت السفينة من الشاطىء الغربي ألقوا له خشبة تحول عليها وهو يثني على الربان لحسن وفادته وذهنه لا يزال عالقاً بما شاهده هناك ولكن سروره بما أمله من الكسب انساه كل شيء

الفصل الرابع

عتبة

فلما وطىء الشاطىء سار مهرولا نحو الشمال حتى قطع شارع باب خراسان ودخل في شارع دار الرقيق فرأى الحوانيت قد أقفل معظمها والاقدام لا تزال مزدحمة بعابري السبيل . فحدثته نفسه ان يكتري حماراً يركبه فغلب عليه البخل فظل ماشياً وهو يطيل خطواته حتى اقبل على دار افنحاس وهي قصر كبير لان الرجل كان من اهل اليسار والثروة بما كان يكتسبه من تجارة الرقيق وكان اكثر بيعه للخلفاء او لاولادهم فاذا وقف على جارية جميلة او غلام جميل انفذ بعض السماسرة الى دار الخليفة او الامير أو غيرهما يسعون في ترويج تلك السلع وكثيراً ما يكون الوسيط بالسمسرة بعض المقربين من بطانة الخليفة او ولى العهد ممن يحبون الكسب من هذا

السبيل وخصوصاً الشعراء والمغنين ولم تكن هـذه أول مرة اكتسب أبو العتاهية بها مالا بالسمسرة

فلما أطل أبو العتاهية على قصر فنحاس انتبه لنفسه وقد مضى هزيع من الليل فخاف ان يكون الرجل قد ذهب الى الفراش لانه قلما يطيل السهر إذ ليس هو مغرماً بالسماع أو مجالس الشراب وانما همه أن ينفق سلعته على أهل اللهو ويسره ان يبالغوا بالترف والقصف لتزداد ارباحه . فكانت عادته ان يتناول عشاءه عند الغروب فاذا اذن العشاء ذهب الى فراشه

وكان ابو العتاهية يعلم ذلك ولكنه امل ان يكون فنحاس ساهراً تلك الليلة ـ فلما أطل على القصر رأى فيه الانوار على غير المعتاد فانشرح صدره وعد ذلك من أسباب توفيقه فتحول من شارع دار الرقيق نحو اليسار في طريق يؤدي الى القصر . فلما دخل الزقاق المؤدي الى بابه رأى عند الباب اشباحاً وسمع عن بعد لغطاً فأصاخ وتفرس فرأى دابتين ترجل عنهما شخصان معهما غلامان فدهش لما علم أنهم الرفاق الذين شاهدهم في السفينة وتبادر الى ذهنه حينئذ ان الغلامين من الرقيق جيء بهما للبيع ولكنه لم يجد على الرجل هيئة النخاسين أو التجار وانما هو من أهل البداوة

فتباطأ ابو العتاهيـة وانزوى في مستتر بحيث يرى ويسمع ولا يعلم به أحـد فرأى الرجل الشيخ بعد أن ترجل عن البغلة وهو يحمل الغلام على كتفه أمسك بحلقة الباب ودقها دقاً عنيفاً ووقف ينتظر الجواب فابتدرته المرأة قائلة « هل تظنهم في انتظارنا ؟ »

فأجابهـا الرجل « لا بد من ذلك . ألا ترين الانوار في القصر ؟ . . لا بد ان تكون مولاتنا في انتظارنا هنا على أحر من الجمر لاننا أبطأنا عليها »

فلما سمع ابو العتاهية كلامهما لم يجد فيه لغة أهل مكة ولا المدينة بل هو أقرب الى لغة أهل بغداد المولدين فزادت رغبته في معرفة سر هذا الامر وما لبث أن رأى خوخة الباب فتحت وأطل منها رأس امرأة بيدها مصباح

قد وقع نوره على وجهها وظهرت ملامحها ظهوراً تاماً فشاهد وجهاً مشرقاً وعينين سوداوين وحاجبين مقوسين ومبسما لطيفاً وشعراً قد خفر خفراً بسيطاً . وتدل قيافتها على الاجمال انها من الجواري البيض وانها في نحو الاربعين من عمرها ولا يزال الجمال ظاهراً في عينيها . ولما وقع بصره عليها خفق قلبه لانه تذكر وجهاً يعرفه ويحبه وكان عالقاً بصاحبته منذ بضع عشرة سنة وقد منعت عنه وبقيت لذلك حرقة في قلبه فأخذ يتفرس في المرأة ليتحقق ظنه وإذا هي تقول بلهفة « جئتم ؟ الحمد لله ... لقد أبطأت علينا يا رياش »

قال « لقد أبطأنا رغم إرادتنا اسألي برة عما لاقيناه من العوائق في اثناء الطريق ألم نذهب اولا لعند سيدنا أعزه الله فأبقانا عنده الى المساء .. فجئنا من عنده تواً الى هنا ... هل مولاتنا هنا يا عتبة »

فلما سمع ابو العتاهية ذلك الاسم بعد ان سمع صوت الجارية بغت وتزايدت ضربات قلبه وتحقق انها الجارية التي كان يهواها في ايام المهدي وقد اكثر من تشبيبه بها وهولا يجسر ان يطلبها منه فاحتال في عيد النيروز فاهدى الى المهدي برنية فيها ثوب مطيب وكتب على حواشيه بيتين يعرض بطلبها منه وهما :

نفسي بشيء من الدنيا معلقة الله والقائم المهدي يكفيها
اني لأيأس منها ثم يطمعني فيها احتقارك للدنيا وما فيها

فادرك المهدي يومئذ غرضه فهم بدفع عتبة اليه . فجزعت الجارية وقالت « يا امير المؤمنين حرمتي وخدمتي اتدفعني الى رجل بائع جرار ومتكسب بالشعر » فأعفاها وقال له املئوا له البرنية مالا واوصاه ان يكف عن التشبيب بها فكف ابو العتاهية عن ذكرها ولكن حبها مازال في قلبه . ولما مات المهدي وتفرقت جواريه لم يعلم اين كان مصيرها فلما رآها في تلك الليلة هاجت في قلبه حرارة الشباب ولكن استغرابه مما يراه شغله عن تلك الذكرى

الفصل الخامس

دار فنحاس

اما عتبة فانها قد عادت من الخوخة وأمرت البواب ففتح الباب فدخل الرجل (رياش) يحمل احد الصبيين على كتفه راكباً عرضاً وقد ألقى الصبي رأسه على زنديه فوق رأس الرجل واستغرق فى النوم وذؤابتا شعره مرسلتان على كتفيه فوق الدراعة وكذلك كان الصبي الآخر على كتف المرأة . وعتبة تسير بين أيديهما بالمصباح في فناء الدار حتى تواروا عن بصر ابي العتاهية . ثم رأى البغلتين في الزقاق عائدتين يسوقهما المكاري فظل واقفاً وهو يفكر فيما رآه وقد نسي المهمة الاصلية التي جاء من اجلها وأصبح همه كشف ذلك السر وخصوصاً بعد ان سمعهم يتساءلون عن مولاتهم فقال في نفسه « من عسى ان تكون تلك المولاة ! لعل في الامر سراً اكتسب من وراء كشفه مالا » فرأى ان يؤخر دخوله هنيهة لئلا يلحظ اهل البيت انه عرف شيئاً من امر القادمين فاذا دخل بعد ذلك احتال في كشف السر فتربص حتى سمع صرير الباب ورآه يغلق ثم سمع صوت إيصاده فتقدم نحوه ودقه بالحلقة فسمع رجلا ينادى « من ؟ »

فأعاد القرع ففتحت الخوخة وأطل رجل من انباط السواد اسمه حيان كان فنحاس قد جعله بواباً وكان يعرف أبا العتاهية وشاهده هناك غير مرة . فلما رآه فى تلك الساعة وقد توسط الليل استغرب قدومه لكنه رحب به وفتح له فدخل ابو العتاهية وهو يتظاهر بالتعب وقال « هل مولاك في البيت يا حيان ؟ »

قال بلهجة الانباط وهم يلفظون الحاء هاء والعين همزة والقاف كافاً « نأم . . هل تريد الدخول أليه ؟ »

قال وهو يمشي في فناء الدار « لم يكن مرادي الدخول عليكم في هذه الساعة لو لم أر البيت مشعشعاً بالانوار على غير المعتاد لاني لم اعهد المعلم

فنحاس يظل ساهراً الى ما بعد العشاء فاستغربت ذلك وأحببت ان اعرف الباعث على هذه السهرة فأرجو ان يكون السبب احتفالكم بزواج او قدوم قادم » قال ذلك وهو يمازح البواب لعله يبوح بشيء

فأجابه « ليس ثم ما يكلك الراحة ولكني لا أأرف سبب السهرة . . » ثم بدل الحديث حالا فقال « أتريد ان ترى سيدي الآن ؟ »

قال نعم « اين هو ؟ »

فقال « اني ذاهب لادأوه لك » وأسرع في مشيته حتى دخل في دهليز اتصل منه الى سلم صعد عليه وأبو العتاهية يتبعه لئلا يبقى خارجاً ويحدث ما يمنعه عن الصعود . وكان الدهليز والسلالم كلها مضيئة بالشموع ولكنه لم ير احداً من الخدم او الجواري في طريقه ولم يكن يسمع ضوضاء ولا غوغاء فعلم ان القادم يريد التستر . ثم وصل حيان الى غرفة تعود ابو العتاهية ان يجالس فنحاس فيها وكانت مظلمة فادخل اليها حيان مشمعة فيها عدة شموع ودعاه للجلوس فجلس وذهب النبطي ليدعو مولاه فمكث ابو العتاهية في انتظاره وهو يدبر الحيلة للبقاء هناك تلك الليلة ويود ان يعرف مقر اولئك الاضياف في القصر فسمع صوت غلام يضحك فعرف انهم في غرفة قريبة من غرفته يعرف الطريق اليها

ثم عاد حيان وهو يقول «ان سيدي ذهب الى الفراش هل ايكظه ! »

فاستبشر ابو العتاهية بنومه وقال « دعه نائماً وسأقابله في الصباح . . » قال ذلك وتثاءب وتمطى يظهر التعب والنعاس فقال له البواب « هل تريد الرقاد أم آتيك بالطعام قبلا ؟ » (مع تحريف الاحرف بلفظه)

قال « لاحاجة بي الى الطعام ولكنني اشكو التعب فقد كنت في مكان بعيد وتعبت من كثرة الركوب ولما اقتربت من قصركم ورأيت الانوار فيه قلق خاطري وأتيت اقضي ساعة مع المعلم فنحاس فصرفت الدابة والمكاري ولا ادري اذا أحببت الذهاب هل أجد دابة بقرب هذا المكان »

فقال حيان « اذا كان لابد من ذهابك فان في الاصطبل دواب كثيرة

ولكني لا أرى حاجة الى السرعة فاسترح عندنا الليلة واذا شئت الرقاد اخذتك الى حجرة فيها فراش »

قال « ولكني لا استطيع النوم في النور على هذه الصورة »

قال « قد اخذنا في اطفاء الانوار ولا تلبث أن ترى القصر مظلماً »

قال « اذا كان الامر كذلك فافضل الرقاد هنا اولى من أن اذهب واعود بالغد لاني جئت الى المعلم فنحاس بأمر تجاري فيه كسب كثير بحول الله . . »

فازداد البواب رغبة في استبقائه لعله أن سيده يتوقع منه ذلك لكثرة جشعه للمكاسب مع ماعنده من الثروة الطائلة . وكان فنحاس انما يهمه كسب المال ولا يبالى بالطريقة المؤدية الى كسبه فكثيراً ما كان يغضي في سبيل ذلك عن امور لا يغضي عنها الحر - وعذره أن الناس على ضلال في أمر دنياهم فهم يتمسكون بامور اعتبارية لا طائل تحتها يسمونها الشرف أو عزة النفس ويبذلون في سبيلها حياتهم أو يضيعون بها اموالهم ويفوتهم كثير من المكاسب الطائلة وما كان الشرف يشبعهم اذا جاعوا أو يدفئهم اذا بردوا أو يرويهم اذا عطشوا ! أما المال فهو عنده السلطان أو هو الصولجان فمن قبض عليه كان سلطاناً تطأطيء له الرؤوس ويخدمه الزملاء . . تلك هي مباديء المعلم فنحاس وكان ابوالعتاهية يعرف ذلك فيه وكثيراً مايستعين به في اعمال يكسب بها الاثنان على نحو الكيفية التى جاء عليها تلك الليلة

فلما توسم البواب من أبي العتاهية ما يسر مولاه ألح عليه بالرقاد هناك ودعاه أن يتبعه فسار وأبو العتاهية يتنصت ويتلفت لعله يعرف الغرفة التى تتوق نفسه الى معرفة سر اهلها ثم وقف حيان أمام باب فتحه ودعاه الى الدخول والمشمعة بيده فدخل واذا هناك فراش على طنفسة لا بأس بها فقال ابو العتاهية « هذا فراش نظيف كثر الله خيرك » واظهر انه يريد الرقاد فتركه حيان ومضى وكان ابو العتاهية قد عرف الجهة التي فيها اولئك الناس فلما ذهب حيان واطفئت الانوار ونام اهل البيت نزع عمامته وعباءته وتخفف بطاقية كانت على الفراش وخرج يتلمس الحائط وركبتاه ترتجفان

وقد نام اهل القصر واستولى السكوت على المكان واصبحت معرفة تلك الغرفة اقرب من حبل الوريد فاذا لم يدل عليها الصوت دل عليها النور المنبعث من شقوق بابها

الفصل السادس

التلصص

فما عتم أن وصل الغرفة وهو يسمع اناساً يتكلمون همساً كأنهم يحاذرون أن يسمعهم أحد فوقف بالباب ونظر من ثقب فيه الى الداخل فرأى امرأة عليها ثياب الملوك وهيبة الملائكة جالسة على سرير في صدر المكان وفي حجرها ذانك الطفلان وقد ضمتهما الى صدرها واخذت تقبلهما وعيناها تتلألآن بالدمع وفي ملامح وجهها مزيج من علامات السرور والحزن فلا تدري اهي تبكي فرحاً أم حزناً . وتفرس ابو العتاهية بتلك المرأة فاذا هي بين الخامسة والعشرين والثلاثين من عمرها وفي وجهها جمال وهيبة لم يشاهد مثلهما مع كثرة ماراه في عمره من الجواري الحسان في دور الخلفاء او ولاة العهد ولا في دار جعفر البرمكي او غيره من البرامكة ورأى فرقاً كبيراً بين ما يعرف من جمال اولئك وما في جمال هذه من الهيبة والوقار . ولو تأملت في تلك الهيبة لرأيت مصدرها العينين ولم تكونا كبيرتين ولا واسعتين ولكنهما ترسلان اشعة براقة . ولم يكن فيهما ذبول مثل سائر عيون الغواني بل كانتا حادتين يشعر الرجل اذا نظرتا اليه أنهما اخترقتا صدره واصابتا قلبه واستطلعتا خفايا سره . ولم يكن لون الفتاة أبيض مع تفاخرهم يومئذ بجمال ذلك اللون بل كانت حنطية مشربة حمرة ولها مبسم ينطق بغير كلام ويدل على عواطفها كما تدل المرآة على ما يقابلها ورأى ابو العتاهية على جبينها عصابة مكللة بالجوهر فدهش لهذه العصابة على الخصوص لانه لم يكن رأى مثلها من قبل وأول من اتخذ العصابة المكللة بالجوهر علية بنت المهدي (اخت الرشيد) فعلت ذلك اذ كان في

جبينها فضل سعة شوه جمالها فأحدثت العصائب المذكورة لتستر ذلك العيب فكان من اجمل الاختراعات . ولم يكن ابو العتاهية رأى ذلك لانه لم يكن شائعاً

وكانت قد صففت شعرها تصفيفاً بشكل جمة تعرف بالجمة السكينية نسبة الى سكينة بنت الحسين لانها اول من صففها . ورأى ابو العتاهية في مقدم تلك الجمة طرة مرصعة بالماس على شكل طائر عيناه من الزمرد وفي أجنحته فصوص من الياقوت الاحمر مرتبة بين فصوص الماس ترتيباً عجيباً وقد اشترك تلألؤها بأشعة النور حتى توهم ابو العتاهية ان الغرفة مضيئة من نور تلك الطرة وليس من الشموع . وقد غطت رأسها بخمار من الحرير عنابي اللون مزركش بالقصب . وفي أذنيها قرطان كل منهما لؤلؤة واحدة بقدر بيضة الحمامة وفي عنقها عقد من الجوهر في غاية التناسب

وأما ثوبها فمن أثمن المنسوجات ولكنه كان في غاية البساطة لونه سماوي على حواشيه وشي دقيق . فذهل ابو العتاهية لمنظر تلك الفتاة وقال في نفسه « لا شك ان هذه الحورية من اهل بيت الرشيد ولا بد لها من شأن سري اذا اطلعت عليه ابتزت الاموال به »

ونظر في جوانب الغرفة فرأى الرجل والمرأة لا يزالان بثياب اهل الحجاز وقد قعدا على الارض باحترام وتهيب وخصوصاً الرجل وكان كهلا قد وخطه الشيب . وتفرس ابو العتاهية في وجهه فلم ير فيه ملامح اهل البادية فعلم انه تنكر بذلك اللباس لغرض ما . واما المرأة فلما رأى وجهها بالنور تبين له ان اصلها جارية من الجواري وقد كبرت سنها — واما صاحبته عتبة فلفتت انتباهه على الخصوص وكانت جالسة بين يدي السرير تخفف عن مولاتها وتلاطفها . وتأمل ابو العتاهية في عتبة فراى الجمال لا يزال في وجهها وقد تغيرت عما كانت عليه من قبل فازدادت سمنة وبضاضة . وكانت في تلك الليلة مكشوفة الرأس وقد ضفرت شعرها بضع عشرة ضفيرة علقت في طرف كل منها قطعة من النقود أو الحلي وفي عنقها عقد ثمين وفي يديها الاساور والدمالج وعليها ثوب لونه احمر مشجر بعروق خضراء

فدهش ابو العتاهية من تلك المناظر واصطكت ركبتاه من التأثر واتسبه الانحناء لانه لم يكن يستطيع النظر من ذلك الثقب الا اذا انحنى . على انه كان صابراً يتنصت لما دار من الحديث هناك واول كلمة طرقت اذنه ساعة وصوله الى الباب عبارة عرف من غنتها انها لصاحبته عتبة وهي قولها « لا بأس عليك يا مولاتي . لماذا تبكين ؟ »

فرفعت تلك الفتاة رأسها الى عتبة وضمت الطفلين الى صدرها وهي تقول وصوتها مختنق من البكاء « قلبي يحدثني يا عتبة انها آخر مرة اراهما فيها »

فصاحت « معاذ الله يا مولاتي بل ارجو ان تريهما مراراً في كل عام كما كنت تفعلين الى اليوم . وهذا رياش حفظه الله لا يدخر وسعاً في القدوم الينا كلما امرت . . وعسى ان يقضي الله باطلاق حريتك فيكونان معك في كل حين »

فتنهدت الفتاة وقالت « آه يا عتبة انك تتمنين محالا . . لان غريمنا ظالم مستبد له السلطة المطلقة وقد انغمس في ملذاته وتمتع بكل ما تشتهيه نفسه واصبح لا يبالي بسواه هلك عطشاً او مات جوعاً او ذاب لوعة . انه رجل لا شفقة عنده ولا رحمة وانما يهمه ملذات نفسه » قالت ذلك وهي تستخرج من كمها منديلا من الحرير مزركشاً بالقصب مسحت دموعها به

فقالت عتبة « تلك حال الرجال على الاطلاق يا مولاتي فانهم اصحاب السيادة وقد فضلوا انفسهم على المرأة فحللوا لانفسهم ما حرموها منه وتمتعوا بما حظروه عليها . يتزوج الرجل عدة نساء ويقتني الجواري والسراري ويمنع المراة من ان تتزوج برجل تحبه ويحبها . . ولكن . . »

فقطعت الفتاة كلام الجارية وقالت « ليس بين الرجال من عمل عمل اخي ولا بين النساء من اصيب بمصابي . . . وزوجني برجل هو جمعني به وحبيه الي وعقد له علي ثم حرم علينا ثمار ذلك العقد ما حلله الله لاحقر

خلقه . وهو مع ذلك يخطر في قصر وحوله مئات من الجواري الروميات والتركيات والفارسيات والسنديات وفيهن البيض والصفر والحمر والسمر والسود »
ولما بلغت الى هنا غصت بريقها وشرقت بدموعها وكان الغلامان في حجرها وكبيرهما ينظر في وجهها نظر الاستغراب وهي تتكلم . فلما رآها تبكي شاركها في البكاء ولما رآه اخوه يبكي بكى ايضاً وبكت عتبة وعلا ضجيج البكاء في تلك الغرفة

ثم رأت عتبة ان تتجلد وتخفف عن مولاتها فقالت لها « لا يخفى عليك يا مولاتي ان اخاك امير المؤمنين حرسه الله لم يمنعك من الزواج بذلك الوزير الا لعدم كفاءته فانك بنت خليفة واخت خليفة يتصل نسبك بعم النبي . والوزير مولى فارسي مثل سائر الموالي فكيف تتزوجينه ومثلك تتزوج احد ابناء عمها الهاشميين . فأمير المؤمنين مشهور بحبه لك وانما منعك من الزواج تنزيهاً لمقامك »

فصاحت « ويلك ياعتبة . . الا تزالين مخدوعة بهذه التمويهات ... اذا كان اخي يعد الزواج بالموالي او العبيد حطة لمقام الخلافة فما باله يتزوج هو بالجواري ويستولدهن ويولي اولادهن العهد بالخلافة . العل الجارية ارفع مقاماً من المولى . ناهيك بما في قصوره من الجواري للتسري بلا عقد .. فلماذا لا يقتصر بالزواج على ابنة عمه زبيدة مع ما يظهره من حبها واحترامها ولكنه اطاع شهواته ولم يجد من يصده فانغمس واترف ورآني ضعيفة فاستبد في . عرفني بشاب لا اعرف في ابناء عمي من بني هاشم احسن منه وزوجني به ثم منعني منه واصبحنا نعد التقرب خيانة ونخاف ان يطلع احد على سرنا كأننا من اهل الفجور نعوذ بالله.. ولكن من يستطيع ان يقول ذلك لاخي ولا تكون حياته في خطر »

الفصل السابع

العباسة عروس الرواية

وكان ابو العتاهية قد آلمه ظهره وهو منحن عند الباب ينظر من ذلك الثقب ورجلاه ترتعدان وهو يمسك أنفاسه مخافة ان يشعر به أحد . فلما سمع ما دار من الحديث علم ان الفتاة هي العباسة اخت الرشيد . وكان عالماً ان الرشيد عقد عليها لجعفر بن يحيى البرمكي وزيره ليحل له النظر اليها لان الرشيد كان يحب جعفر ويحب الاجتماع به ولا يصبر على بعده وكان الرشيد يحب اخته العباسة ايضاً ويحب ان يراها كثيراً فعقد لجعفر عليها حتى يحل له ان يراها فقط وخوفه مما وراء ذلك . وعلم ابو العتاهية مما رآه وسمعه ان جعفر تزوج العباسة سراً وان الغلامين اللذين معها هما ثمرة ذلك الزواج وانها تخاف ان يعرف اخوها الرشيد بذلك فيقتلها . فخفق قلب ابو العتاهية فرحاً بذلك الاكتشاف لما يرجوه من الكسب الكثير بواسطته لعلمه ان اعداء جعفر يتباعون مثل هذه الوشاية بألوف من الدنانير وخصوصاً الفضل بن الربيع لاسباب تقدم ذكرها . ودمعت عينا ابي العتاهية ليس تأثراً من حالة العباسة بل من طول حملقته وتطلعه من ذلك الثقب . وأحس وهو في تلك الحالة الحرجة ان العطاس يكاد يدهمه فخاف ان يعطس فيفتضح امره فجعل يفرك ارنبة انفه حتى اذهب العطاس فعاد إلى التلصص والتفرس وكان قد سمع عتبة تخفف عن العباسة وتقول لها « دعينا من النوح الآن فقد تكبدت المشقة والخطر لتشاهدي ولديك فانشقيهما وقبليهما ودعي التقادير تجري بما يشاء الله »

فاطاعتها وكان الغلامان في حجرها وهما شاخصان اليها وقد استغربا ما رأياه منها فلما رأتهما ينظران اليها والدمع لا يزال في عيونهما لم تتمالك عن الابتسام وعيناها تقطران دمعاً وتناولت الكبير وضمته وجعلت تقبله في خديه وفي عينيه وجبينه ورأسه وعنقه وصدره وتستنشق ريحه وهو

مغرق في الضحك يحسبها تلاعبه أو تداعبه ـ وانى له ان يشعر بما يجول في خاطرها أو بما يهيج من عواطفها وهو لا يعرف من ملاذ الدنيا الا الاكل والشرب ولم يكابد من حوادث الزمان الا اللعب بالرمل أو بالكعاب أو بغيرها من الالعاب وما مطامع الدنيا عنده الا ثدي أمه . فاذا فطم كان همه بطنه ومطمعه عجلة يديرها او كرة يلاعبها وتسليته حصى يبني بها بيتاً او طيناً يصطنع منه تمثالا . يرى المائت فيظنه نائماً ويلقى الثعبان فيحسبه حبلا . لا يخاف الهجر ولا يحاذر الفقر ولا يعرف نوائب الدهر . ربما احب هرة تلعب بين يديه اكثر مما يحب والديه لانه يحب كل ما تنتهي راحته اليه . ولو عقل لقاس تعلقه بطير عاشره بضعة ايام ثم ذهب عنه كم يكون اسفه عليه فكيف يكون تعلق الوالدة بابنها وهو حشاشة قلبها وبضعة من نفسها ومثال حبيب قلبها . لا لوم على الاطفال اذا لم يدركوا حب الوالدة لانه سر مغلق على غير الوالدين ومهما يكن من ارتقاء عواطف الشبيبة واختلاطهم بالعائلات ومشاهدتهم حنو الوالدات فهم لا يدركون حقيقة ذلك الحنو حتى يولد لهم الاولاد فيذوقوا مرارة التربية وحلاوتها بين مداعبة ولد يشرق وجهه صحة ويسيل كلامه لطفاً وتزيده اللكنة عذوبة وسهر على طفل يقاسي الالم ويعجزه التعبير عن موضعه لاحتباس كلامه أو يكتمه خوفاً من مرارة الدواء . والوالدان بين ذلك يراقبان حركاته ويحصيان انفاسه وقد غلت ايديهما وتفطر قلباهما وضاقت الدنيا عليهما . ولا سيما الوالدة فانها ألصق بولدها في طفولته إذا مشى مشى قلبها معه أو ضحك رقصت جوارحها له واذا تكلم كانت كلها آذاناً لعله يلتمس منها شيئاً يسره ويسرها أن يناله ولو كان في نيله شقاؤها وهي تزداد حباً له كلما تهذبت في تربيته ويزداد حنوها اليه بزيادة شقائها به . فمن أين لغير الوالدين أن يفقهوا ذلك أو يدركوا حنو الوالدة ـ حتى المتزوجين الذين لم يرزقوا أولاداً فانهم لا يستطيعون ادراك حب الوالدة لولدها الا تخيلا وأين الحقيقة من الخيال

الفصل الثامن

البغتة

فكانت العباسة تستنشق ريح ابنها وهي تجهش بالبكاء وقلبها يتردد بين اليأس والرجاء والغلام يضحك والسذاجة الفطرية ظاهرة في وجهه وسلامة النية وطهارة القلب باديتان في كل حركة من حركاته . وقد أصاب المصورون إذ شبهوا الملائكة بالاطفال فانهم مثال الطهارة والقداسة وصدق اللهجة فهم لا يخفون عواطفهم ولا يكظمون ما في نفوسهم ولذلك كانت الشعائر الطبيعية ظاهرة فيهم وأقواها حب الذات . فالطفل يحب ذاته ويحب كل ما يرى فيه نفعاً لنفسه . وهو يحسد ولكنه لا يكظم بل يظهر ذلك فيه ولا يستحي من اظهاره — ولذلك لما رأى أحد الاخوين أمه تلاعب أخاه وتقبله ألقى نفسه على صدرها كأنه يزاحمه على ما يكنه ذلك الصدر فقبلته العباسة ثم التفتت الى عتبة وعيناها تتكلمان عنها وما تملكت ان قالت لها « ما ألطف هذين الولدين وما ألطف اسميهما (الحسن والحسين) هل يسمح لي الله ان اعيش معهما ولو في كوخ حقير أو في خيمة بالبادية »

فابتدرتها عتبة قائلة « ان الله على كل شيء قدير . . . ألا تظنين ان رجوعك الى قصرك قد آن فان الفجر اصبح قريباً ونخاف ان يشعر احد برجوعك فنقع في ما نتخوفه »

قالت « يعز علي الذهاب يا عتبة ولكن لا بد منه . . . أين الدراهم التي أتيت بها معك ؟ . ادفعيها الى رياش . . »

فتناولت بدرة من الدراهم ودفعتها اليه فتناولها وانثنى على العباسة ونهض فقبل يدها وكذلك فعلت برة . فقالت لهما العباسة « لا حاجة بي ان اوصيكما بالحسن والحسين فانهما فلذة كبدي »

وكان الحسن اكبرهما سناً فلما تحقق عزم والدته على الفراق ورآها

وقفت ترامى عليها وامسك بيدها واسند خده على راحتها وقال وصوته يختنق « تعالي معنا يا ماما .. وقولي لابي يجيء معنا أيضاً . . »

فنظرت العباسة الى الغلام فرأته يرنو اليها وفي عينيه دمعتان تترددان بين المآقي وشفتاه ترتجفان ولا تطاوعانه على الكلام . وكان يحاول التلفظ ويحاذر ان يسبقه البكاء وقد غص بريقه . فلا تسل عن قلب العباسة عند سماعها تلك العبارة ومشاهدتها ذلك المنظر المؤثر وقد كانت من أول اجتماعها بابنها تتخوف من ساعة فراقها وتغالب نفسها وتتجلد وقد ضاق صدرها لاحتباس عواطفها . فلما رأت ما رأته وسمعت الحسن يذكر والده ويطالبها به على تلك الصورة غلبتها عواطفها وأحست بما تكابده من ألم الفراق وثقل المحاذرة والتخوف فلم تتمالك ان قمدت بغتة وهي تضم الغلام الى صدرها وتصيح « صدقت يا ولداه » واغرقت في البكاء حتى اغمي عليها

وكانت عتبة واقفة تراعي حركات مولاتها وتشاركها في كل عاطفة من عواطفها وقد همت ان تخفف عنها فلما رأتها قمدت بغتة خافت عليها من الاغماء لانها شاهدت اغماءها على تلك الصورة غير مرة فلما سمعتها تصيح وتبكي تحققت غيبوبتها فتناولت إحدى الشموع من المشمعة وهرعت الى الباب وفتحته لتستدعي خادماً يأتيها بالماء لترش سيدتها . وكان ابو العتاهية لا يزال واقفاً ينظر من ثقب الباب . فلما اسرعت عتبة اليه وفتحته على غير انتظار والشمعة بيدها بغت وارتبك في امره وكاد الدم يجمد في عروقه فوقف كأنه صنم من الاصنام وبصره شاخص كأنه لا يرى شيئاً . أما عتبة فظنته لاول وهلة بعض خدم المنزل فصاحت به « هات الماء » ثم علمت من لباسه انه ليس من الخدم فاستغربت وقوفه هناك على هذه الصورة . اما هو فلم يطل جموده إلا لحظة ثم انتبه لنفسه وحول وجهه وطلب الفرار . فلما تحرك تذكرت انها تعرفه ثم فطنت الى انه ابو العتاهية فاشكل عليها امره وهي في تلك الحال من القلق على سيدتها خوفاً عليها من الاغماء فغلب عليها ذلك القلق فاسرعت الى غرفة الخدم وصاحت بهم فنهض بعضهم وجاءها بالماء وعادت الى سيدتها ورشتها به فأفاقت . وأخذت تخفف عنها

وخاطرها مشتغل بأبي العتاهية وادركت من ارتباكه عند رؤيتها انه كان يتلصص لرؤيتهم ولا بد انه سمع شيئاً من احاديثهم وهي تعلم انه لا يؤمن على مثل هذا السر وان اطلاعه على امر هذين الغلامين خطر على العباسة فكانت تخاطب مولاتها وتخفف عنها والقلق والارتباك باديان في وجهها وهي تتردد بين ان تطلع العباسة على هذا الامر أو تكتمه عنها ولكنها فضلت كتمانه لئلا تزيد احزانها ومخاوفها . على انها عزمت على تدبير وسيلة تمنع ابا العتاهية من افشاء هذا السر . فلما عزمت على ذلك ذهب قلقها وعادت الى التهوين على العباسة والتخفيف عنها وأشارت الى رياش ان يذهب هو وبرة بالغلامين اولا فاطاعها ونهض فحمل الغلامين على كتفيه وهو يلاعبهما ويضاحكهما وكانا قد تعوداه وتعلم هو بما يلهيهما به من المواعيد او نحوها . فسكتا وظلت عتبة بجانب العباسة تشاغلها وتسايرها وهي تتنهد ولا يزال أثر الاغماء بادياً فيها . فلما خرج رياش وبرة امرت الخادم الذي كان قد جاءها بالماء أن يستقدم حيان فذهب ثم عاد وحيان معه وآثار النعاس ظاهرة في عينيه لانهم نادوه وهو مستغرق في النوم فجاء وعلى رأسه طاقية لم تستر الا بعض شعره فوقف بين يدي عتبة فقالت له « ان مولاتي تتقدم اليك ان ترسل مع هذين من يدبر لهما مركباً يركبان عليه الى دجلة »

الفصل التاسع

الهاجس

فاشار بيده على راسه اشارة الطاعة وخرج وظلت العباسة وعتبة في انتظاره . ثم اظهرت عتبة انها تحتاج الى شيء من حيان فخرجت لملاقاته وهو عائد فدعته الى خلوة فخاطبته وفي يدها منديل فيه نقود وضعته في كفه وهي تقول « امرتني مولاتي ان اشكرك على الخصوص لعنايتك بنا وهذا المنديل هو لك هدية منها » ثم مدت يدها واستخرجت صرة اخرى دفعتها اليه وقالت « وهذه للمعلم فنحاس »

فاثنى حيان عليها جهد طاقته فقطعت كلامه قائلة « هل ابو العتاهية هنا من زمن طويل » وقد ذكرت اسمه تمويهاً على حيان انها واثقة بوجوده هناك

فقال « بل جاءنا الليلة »

قالت « اصدقني .. »

قال « صدقتك . فانه جاء لمقابلة المعلم فنحاس في هذه الليلة وكان المعلم قد ذهب الى فراشه فدعوته للمبيت عندنا فبات » قال ذلك بغير حذر ولا تردد فتحققت انه يقول الصدق فقالت « اطلب اليك خدمة لا تكلفك تعباً فهل تقضيها لي ؟ »

قال « على الرأس والعين »

قالت « اريد ان تستبقي هذا الشاعر عندكم ولا تدعه يخرج قبل ان اعود في صباح الغد »

فاستغرب طلبها وقال «اخاف ان يطلقه مولاي ولا يطيعني في استبقائه

قالت « قل لمولاك ان امير المؤمنين يريد استبقاءه لامر يهمه »

فلما سمع ذكر امير المؤمنين خفق قلبه لانه لم يكن يعلم من امر العباسة سوى انها امرأة من سراري بغداد استأجرت تلك الغرفة في تلك الليلة لامر خاص فقال « سأقول ذلك لمولاي »

قالت « احذر ان تستخف بقولي »

قال « سمعاً وطاعة »

فقالت « فاعدد لنا البغال ريثما نرجع » وأسرعت الى سيدتها فرأتها في انتظارها وقد استبطأتها فسألتها عن سبب تغيبها فقالت انها ذهبت لايصاء حيان باعداد البغال فصدقتها ثم خرجتا حتى ركبتا ومضتا

أما حيان فأخذ يفكر فيما سمعه من تحريض عتبة على الاحتفاظ بابي العتاهية فلم يفهم لذلك سبباً معقولا وقد خوفه ذكرها امير المؤمنين ولكنه عزم على ابلاغ سيده ما سمعه منها في الصباح ليلقي تبعة ذلك عن عاتقه . وكان قد مضى معظم الليل فمضى الى فراشه

اما ابو العتاهية فانه فر من وجه عتبة على تلك الصورة وقد ذعر وكاد

الدم يجمد في عروقه من البغتة لكنه ظنها لم تعرفه فوصل الى فراشه وركبتاه تصطكان فاستلقى بعد ان اغلق الباب ولبث صامتاً يتوقع أن يسمع صوتاً أو يشعر بخفق نعال أو حركة تدله على ما كان من تأثير تلك المقابلة فمضت برهة وهو يحبس انفاسه مبالغة في الاصغاء ويصيخ بسمعه والعتمة قد تكاثفت وشبح عتبة نصب عينيه . واخذ يفكر في ماذا عسى ان تكون العاقبة على أنه تخوف وغلب عليه الحذر . وكانت الحجرة التي بات فيها تشرف على الزقاق المؤدي الى باب تلك الدار من نافذة كانت مقفلة فما لبث ان سمع قرقعة اللجم وجلبة السياس فنهض وتطلع من شق في النافذة فرأى رياشاً وبرة قد ركبا ومعهما الغلامان فتربص ليرى ما يكون من امر العباسة وجاريتها فسمع حركة السياس في إعداد الركائب ورآهما قد خرجتا على بغلين وفي ركاب العباسة سائس يده على كفل البغلة وقد التفت بعباءة وغطت رأسها بما يشبه العمامة اخفاء لحقيقة حالها . فتحقق ذهابهما فاطمأن خاطره وعاد الى فراشه وأخذ يفكر في ما جاء من اجله الى فنحاس فعزم على أن يبكر في الصباح الى غرفته ويفاتحه بهذا الشأن ثم ينصرف الى بيت الامين أو الى الفضل بن الربيع ويجيء مع من ينتدبانه لانتقاء الجواري

الفصل العاشر

طارق

نام ابو العتاهية وهو يهجس ونسي بغتته ولم ينم كثيراً حتى سمع جلبة في ذلك الزقاق يتخللها قرقعة اللجم وصهيل الخيل فذعر ووثب من فراشه الى النافذة ففتحها بلباقة فرأى الصباح قد لاح . وأطل فرأى عدة رجال على افراس جياد عرف من سروجها وما عليها من اكسية الديباج انها من اصطبل الامين فخفق قلبه وتفرس في الراكبين فرأى بينهم الفضل بن الربيع وحوله جماعة من حاشية الامين عرف أكثرهم ورأى في ركابهم جماعة من الخدم وسمع الفضل يقول « أظن القوم لا يزالون نياماً »

فاجابه احد الفرسان « لا بأس من ايقاظهم فان المعلم فنحاس لا يهمه الا كسب المال ولا يبالي بالنوم »

فقهقه الفضل ثم قال « الا اذا ظننا قادمين لمصادرته أو الى أمر يذهب بحياته »

فقال « الفارس لا خوف من المصادرة في ظل امير المؤمنين والذهب يتدفق من بيت ماله . ولا خوف من نكبته وأهل الدولة في حاجة الى جواريه وغلمانه حتى امير المؤمنين ... »

وفي اثناء ذلك تقدم احد الخدم وقرع الباب واخذ الفرسان في التحول عن الخيول وأول من نزل الفضل وكان طويل القامة رقيق العضل خفيف شعر اللحية أسمر اللون يخالطه صفرة ولا يزال في عنفوان الشباب وقد غلب عليه المزاج الصفراوي على اصطلاحهم فساعده على كتمان عواطفه والظهور بما يريده من التلبس بالصداقة لاعدائه والسعي في الوشاية عليهم وأهل هذا المزاج من اقدر الناس على الكظم والتظاهر بما يشاؤون من الاحوال وكتمان ما تكنه ضمائرهم فهم لذلك يصبرون على الضيم ريثما ينتهزون الفرص لنيل ما ربهم فلا يخرجهم الغضب عن طور التعقل كما يفعل باهل المزاج العصبي أو الدموي الذين اذا غضبوا ظهرت امارات الغضب في عيونهم وجباههم ولذلك ندرت فيهم رباطة الجأش والصبر على المكاره

فلما تحقق ابو العتاهية قدوم الفضل قال في نفسه « لا بد من أمر بعث على تعجله في المجيء ولا بد ان يكون الامين قد حمله على ذلك تشوقاً لما وعد به نفسه من امر اولئك الجواري لاهتمامه باسباب القصف والترف ورغبته في الغناء . وخاف ابو العتاهية أن يحول قدوم الفضل في تلك الساعة دون ما يتوقعه من الكسب وهو لم يقابل فنحاس بعد فتحول عن النافذة وهو يطلب غرفة فنحاس فرأى اهل الدار في هرج يتقدمهم حيان وقد اسرع الى الدهليز لاستقبال القادمين . وكان البواب قد أنبأه بقدومهم فلم ينتبه لابي العتاهية . أما هذا فظل سائراً الى غرفة المعلم فنحاس وكان بابها مقفلا فدقه وهو يناديه قائلا « ألعل المعلم فنحاس لا يزال نائماً ؟ »

فلم تمض لحظة حتى سمع وقع خطواته داخل الغرفة ثم فتح الباب واطل منه المعلم فنحاس وهو لا يزال بلباس النوم ليس عليه السراويل والدراعة فوق القميص وفي عينيه رمص من ضعفهما وطول الرقاد وقد نبش شعر رأسه وانتفش واختل نظام سالفيه ولحيته . وكانت لحيته شمطاء يخالطها شيب قليل مع ميل الى الطول والاسترسال وهي مقسومة الى شطرين وأنفه كبير مستدق قد ذهب طوله باحديدابه . وكان لبغتته في تلك الساعة قد نهض وقميصه مفتوح من اعلاه فبان اسفل عنقه وأعلى صدره وفيهما تجعد يتخلله شعر اجعد لو رأيته في تلك الحالة لحسبته من المتشردين

اقبل المعلم فنحاس وهو يفرك عينيه ويمسح الرمص عنهما ببطن كفه وحالما وقع نظره على ابي العتاهية عرفه فصاح فيه «ما وراءك ياأبا العتاهية »

فدخل ابو العتاهية واغلق الباب وراءه وهو يقول قد « جئتك مساء امس بمهمة وكنت نائماً فانتظرتك الى هذه الساعة ولما استبطأتك جئت لايقاظك فارجو ان لا أكون قد أزعجتك »

ففال وهو يصلح لحيته وشاربيه ويقفل طول قميصه « ليس ثم ازعاج . قل ما الخبر »

قال « لا تخف فان المسألة رابحة . . قد حرضت مولانا ولي العهد على اقتناء بعض الجواري وان لا يبتاعهن إلا من عندك وأنت تعلم نفوذ الشعراء عند الخلفاء واهل الدولة فأطاعني فجئت لاخبرك بذلك على ان لا تضيع تعبي »

فقطع فنحاس كلامه قائلا « فهمت المطلوب .. كن مرتاحا .. فمتى أتى رسوله بهذا الشأن اضفت نصيبك الى هذا الثمن بارك الله فيك . . . أليس هذا الذي تريده . انك رجل غيور على مصلحتي . . . واذا شئت جعلت نصيبك من البيعة جارية جميلة »

قال « لا حاجة بي الى الجواري كما تعلم »

فضحك وهو يفتش عن قبائه وجبته وقال « طيب . فاني افهم بالاشارة فافهم أنت ولا يتم الشرط الا بعد وقوع البيع »

قال « البيع يتم في هذه الساعة لان الامين ارسل الفضل بن الربيع وقد وصل الى دارك وأظنهم ادخلوه الى دار الرقيق الآن واحذر ان تطلع احداً على ما دار بيننا . . »

فوضع فنحاس يده على فم ابي العتاهية وقال «لله ما أبسطك .. كنت اظنك أنبه من ذلك .. » ثم عاد الى تسريح شعره واصلاح شأنه فمشط لحيته وفتل شاربيه وشد على خصره منطقة فوق القباء ولبس الجبة وخرج وابو العتاهية في اثره واذا بحيان يسرع نحوهما فلما وقع نظره على ابي العتاهية اجفل وتذكر وصية عتبة فاراد ان يوقف مولاه ليخبره بالقادمين ويبلغه تلك الوصية فابتدره فنحاس قائلا « فهمت مرادك ها اني ذاهب اليهم أين هم ؟ .. » وهو يحسبه قادماً ليخبره عن الفضل فقط . فبهت حيان ولم يجسر ان يخبره بغرضه وخصوصاً بين يدي ابي العتاهية فسايره وقال « قد جاء مولانا الفضل بن الربيع فادخلناه دار الرقيق وهو في انتظارك هناك » وأجل الخبر الآخر الى فرصة اخرى

اما ابو العتاهية فانه نظر الى حيان وتبسم على جاري العادة وهو لا يعلم ما في ضميره فحياه حيان متأدباً ومشى في أثره

الفصل الحادي عشر

دار الرقيق

مشى المعلم فنحاس وهو يتعثر باذيال جبته حتى خرج من دهليز داره الى باب بجانب الباب الكبير هو مدخل دار الرقيق . فاشرف منه على فناء واسع تحيط به غرف عديدة ربما زاد عددها على ثلاثين غرفة . وكان الفناء مزدحماً بالخدم من رجال الفضل وانظارهم متجهة نحو تلك الغرف كأنهم يشاهدون فيها شيئاً غريباً . وبجانب الباب من الداخل غرفة مفروشة بالطنافس وفيها الوسائد مصفوفة بين الجدران وقد زخرفت تلك الجدران بالنقوش الملونة وكان الفضل قد دخل هذه الغرفة مع بعض خاصته

ولبث في انتظار المعلم فنحاس . أما هذا فحالما اقبل على الغرفة رأى الفضل في صدرها جالساً الاربعاء وقد اسند كوعيه على ركبتيه فهرع اليه مسرعاً واكب على يده ليقبلها وهو يبتسم ويتأدب فضحك له الفضل واجتذب يده منه وهو يقول « اظننا ازعجناك بهذه الزيارة »

قال « كلا يا مولاي فان زيارتكم حظ وشرف لنا »

فاشار اليه بالجلوس وهو يقول « ان مولانا ولي العهد رغب الينا ان نأتيه ببعض الجواري الحسان ممن يحسن الغناء وقد كان في الامكان ان نبعث اليك بعض خاصتنا في هذه المهمة ولكننا احببنا زيارتك لمشاهدة دار الرقيق والتفرج بما حوته من اصناف الجواري والغلمان فقد قيل لنا انها تحوي من كل معنى طرب »

فقال وهو يتكمش ويتململ تأدباً « لقد تحملتم المشقة بهذه الزيارة فأوليتموني شرفاً لا استحقه وكنتم في غنى عن ذلك باشارة منكم فتنقل دار الرقيق بجملتها الى ما بين يدي مولانا حفظه الله ولكن اقبال سعدنا حملكم على تكبد هذه المشقة . اما اذا شئتم ان تشاهدوا اصناف الرقيق التي في هذه الدار فترون فيها مالا يجتمع في سواها لاني لم اذخر وسعاً في استقدام احسن الرقيق الابيض والاصفر والاحمر والاسود من الجواري والغلمان على اختلاف القدود واللغات والاسنان من المولد في العراق أو الحجاز والمجلوب من اقاصي بلاد الترك والروم وطبرستان وخراسان والسند والمغرب وفيهم الصقلبي والصقلبية والرومي والرومية والتركي والتركية والفارسي والفارسية والارمني والارمنية والسندي والسندية والبربري والبربرية . . . »

فقطع الفضل كلامه قائلا « هل عندك من الجواري المغنيات ؟ »

قال « كيف لا . . وقد تعلمن الغناء عند مغني مولانا امير المؤمنين نفسه وحفظن الاشعار المطربة وأتقن الضرب على آلات الطرب وفيهن العوادة والطنبورية حتى صاحبة الدف والمزهر »

فضحك الفضل وقال « كأني بك تصف جواري امير المؤمنين . . .

ولكن اظن المغنيات اللواتي اشرت اليهن من الجواري الصفر والسود ومولانا انما يريد مغنيات من الجواري البيض »

فقال « كل ما يطلبه مولانا هو عندي »

قال « ولكن اهل بغداد لم يتعودوا تعليم الجواري البيض الغناء فانهم انما يقتنونهن للتسري كما لا يخفى عليك ولم اعرف أحداً علم الغناء للبيض إلا ابراهيم الموصلي مغني امير المؤمنين . . »

قال « ألم أقل لمولاي انه يجد عندي كل ما يطلبه ؟ »

الفصل الثاني عشر

أصناف الرقيق

فتحفز الفضل للقيام فنهض المعلم فنحاس ونهض سائر الحاشية ومشى هو بين ايديهم حتى خرجوا من الغرفة الى فناء الدار فتسارع الخدم الى الانزواء وفتحوا الطريق للفضل فمشى والمعلم فنحاس يمشي بين يديه متأدباً وفي اثر الفضل رجال حاشيته حتى اذا قطعوا الفناء وصلوا الى الغرفة الاولى من جهة اليمين وكان بابها مفتوحاً قليلا ففتحه فنحاس بيده فرأى الفضل جماعة من الفتيات البيض صغيرات لا تتجاوز اكبرهن العاشرة من العمر وكلهن عاريات لا يكسو ابدانهن إلا ما يستر العورة من الاطمار البالية . وخشونة البادية ظاهرة عليهن بارسال شعورهن ساذجة لم يمسها المشط منذ خلقن . ولكنه رأى الجمال الطبيعي يتجلى في اشراق وجوههن بالبياض المشرب حمرة الدال على صحة البدن . ناهيك بجمال العيون وفيهن شقراء الشعر زرقاء العينين وسوداء الشعر والعينين وما بين ذلك . اما هن فالما فتح الباب ورأين الفضل ورجاله نفرن نفور الظباء من الصيادين وظهر الخوف في وجوههن ولكن الحجرة أضيق من ان تتسع لفرارهن فجعلن يتسترن بعضهن وراء بعض وعيونهن شاخصات وبعضهن أخذن بالبكاء واستغثن بلغة لم يفهمها احد من الوقوف فدهش الفضل لذلك المشهد الغريب

ونظر الى فنحاس فابتدره هذا قائلا « لا تعجب يا مولاي لما تراه في هؤلاء من الوحشة فان معظم اللواتي في قصور الخليفة وسائر الامراء من الجواري الحسان والقيان والمطربات كن في بادىء الرأي مثل هؤلاء وقد أتيت بكم الى هذه الحجرة أولا لاريكم حال الجواري عند اول قدومهن لتعلموا كم تقاسي في تربيتهن حتى تنبغ منهن الجارية التي تباع بألف دينار أو عشرة آلاف أو عشرين الفاً »

فقال الفضل « بالحقيقة انه عمل شاق . . هل كانت فريدة ومنة ودينار وأم الخال وغيرهن من الجواري الفائقات في مثل هذه الخشونة ؟ »

قال « نعم ان اكثرهن مجلوب على هذه الصورة »

قال « من أين تأتي بهن »

قال « ان النخاسين يخترقون بلاد الترك والصقالبة والروم ويتحملون المشاق والاخطار حتى يأتون بهن »

قال « وكيف يجدونهن هناك ؟ »

قال « يأخذون البعض بالغزو والبعض الآخر بالشراء من والديهن او بعض اقاربهن بثمن بخس ويبيعونهن لنا بأغلى الأثمان »

فقال الفضل « أليس حراماً ان يفصل هؤلاء عن آبائهن ويحملن الى ديار الغربة وهن صغيرات في هذه الصورة ؟ »

فضحك فنحاس وهو يحتشم بضحكه وقال « كلا يا مولاي فان استرقاقهن من اكبر اسباب سعادتهن لانهن ينتقلن به من خشونة البداوة وشظف العيش الى المدنية والترف وقد يبلغن من رخاء العيش ما لا يبلغه بنات الامراء وخصوصاً من كانت منهن جميلة الوجه رخيمة الصوت وليس كل واحدة منهن تبلغ الى ذلك النعيم الا اللواتي ينجبن ويبرعن فهؤلاء نبيعهن بثمن غال . . فربما نبغت واحدة من كل خمسين او ثمانين . فمن أنجبت وكان فيها ذكاء ولها صوت رخيم علمناها الغناء وحفظناها الاشعار . وعلم الباقيات بعض الصنائع البيتية وغيرها على قدر الطاقة . . وسترى في ما تمر به من الغرف اصنافاً من الجواري على اختلاف الطبقات . . »

فاستغرب الفضل ما سمعه وأظهر الاكتفاء من رؤية تلك الحجرة وحول وجهه فسبقه فنحاس الى الغرفة التالية وفتحها فرأى فيها بنيات سود البشرة جعد الشعور فطس الانوف فعرف الفضل انهن من بنات الزنج وهن أقرب الى القذارة والوحشية من أهل الحجرة الاولى والسواد أقبح الالوان يندر اجتماعه مع الجمال . ولحظ فنحاس ان الفضل ميال الى سرعة الانتقال من هناك فمشى امامه وهو يقول « هؤلاء صغار الزنوج يحملهن الينا النخاسون من اقاصي السودان والغالب في اخذهن على سبيل السبي بلا ثمن ونحن نبتاعهن بثمن بخس واكثرهن يتعلمن الخدمة الخشنة ويغلب ان نجعلهن في خدمة الجواري البيض »

وقبل ان يصلوا الى الحجرة الثالثة قال فنحاس « وفي هذه الحجرة بنات من البربر يحملهن النخاسون من بادية افريقية . واكثر هذا الصنف من الجواري ينقلن الى بغداد بدلا من الجزية كما لا يخفى على مولاي . وفي الغرفة التي تليها جوار صفر من بلاد السند وفي التي بعدها جوار حمر من بلاد الروم وفي الغرف الاخرى طبقات من اولئك الجواري بين سرار ومواشط وحواضن وطباخات وخبازات ونحو ذلك من ضروب الخدمة . وفي بعض هذه الغرف طبقات من اصناف المماليك البيض والسود قد تدربوا على الصنائع المنزلية بين طاه وخباز وفراش وسائس . وفيهم من اتقن الادب وحفظ الشعر والعربية ومنهم المغنون والندماء والمضحكون وغيرهم بين بيض وسود على اختلاف الاسنان »

الفصل الثالث عشر

الجواري المولدات

فرأى الفضل ان الفرجة على هذه الصورة يطول امرها فقال « ارنا أمثلة من اغرب ما عندك ودعنا من هذا التفصيل فان الوقت لا يساعدنا على رؤية كل من في هذه الغرف »

فقال « هل تريد أن اريك الغلمان الصغار من البيض والسود فانهم في مثل ما رأيته »

قال « أجل أرنا الجواري الصبيات »

فتجاوز فنحاس عدة غرف حتى وصل الى حجرة فتح بابها فاذا فيها فتيات بيض بين الخامسة عشرة والعشرين من العمر وهن مع ذلك في حال السذاجة عليهن اكسية من الاثواب البسيطة وشعورهن مرسلة أو مجدولة وفي آذانهن الافراط وفي اعناقهن عقود من الخرز الملون وفيهن جمال النساء وحياؤهن . ولما رأين الفضل ورجاله غلب عليهن الحياء وتولاهن الخوف فوقع نظر الفضل على واحدة منهن رأى في عينيها سحراً وفي قامتها رشاقة وقد زادتها السذاجة جمالا وهيبة فوقعت من نفسه موقعاً حسناً فناداها بالعربية فلم تفهم مراده ولكن أدركت انه يناديها ففرت واختبأت وراء جارتها وحولت وجهها وغطته بذراعها فاعجبه ذلك النفور فقال « أين أبو العتاهية أو ابو نواس يصف لنا هذا المنظر ببيت من الشعر »

فتذكر فنحاس أبا العتاهية والتفت وهو يتوقع أن يراه الى جانبه فلم يجده وأوشك أن ينطق باسمه لو لم يتذكر تكتمه فتجاهل وقال « صدق مولاي باعجابه فان هذه الجارية من طبرستان اشتريتها في جملة جوار من نوعها وليس فيهن اجمل منها . ولكنك سترى ما هو اعجب من ذلك فكيف لو رأيت الجواري المولدات من البصريات والكوفيات ذوات الالسن العذبة والقدود المهفهفة والاوساط المخصرة والاصداغ المزرفنة والعيون المكحلة وحسن زيهن وزينتهن وفيهن الطويلة البيضاء والسمراء اللعساء والصفراء العجزاء وبينهن من اذا صببت عليها جرة ماء وهي قائمة فلا يصيب ظاهر فخذيها شيء لعظم عجيزتها مثل ما يتحدثون عن عائشة بنت طلحة التي كانت اذا همت بالنهوض يساعدها عليه اثنان »

فضحك الفضل لمهارة فنحاس في وصف جمال النساء مع ما يظهر من شيخوخته وقال له « أراك ماهراً في وصف الحسان يا معلم فنحاس »

فاجابه على الفور ويده على لحيته « وأين قضيت هذه الشيبة يامولاي »

فقال الفضل « اذهب بنا الى الجواري المولدات »

فاشار اشارة الطاعة وتحول الى الجانب الآخر من الفناء فتبعه الفضل ورجاله وفنحاس يقول « يظهر انكم تعبتم من الوقوف فها اني ذاهب بكم الى الجواري المغنيات اللواتي قد حفظن الاشعار واتقن الضرب على العود وغيره من آلات الطرب » حتى وصل بهم الى غرفة فتح بابها ووسع للفضل مدخلها فنظر الفضل فرأى الغرفة مفروشة بالبسط وفيها الوسائد وفي بعض جوانبها ثلاث من الجواري البيض جالسات وقد فاحت رائحة المسك منهن . على احداهن ملحفة معصفرة فوق غلالة حمراء وعلى رأسها عصابة مزركشة وقد ارخت تحت العصابة سالفتين علقت في طرف كل سالفة ياقوتة حمراء وارخت شعرها كأنه الليل وتبخرت بالعود وتعطرت بالمسك وكانت مقدمة على صاحبتيها لانها أجملهن خلقة على ان صاحبتيها كانتا في مثل هيأتها من حيث اللباس ولكنها تفضلهما بجمالها ورشاقة قدها وكانت عيناها سوداوين كانهما مكحولتان ولونها ابيض صافي صفاء البلور وفي عنقها عقد من العقيق . وكانت جالسة بين رفيقتيها على وسادة . فلما فتح الباب ابتدرها فنحاس قائلا « قومي يا قرنفلة وقبلي يد مولانا الفضل بن الربيع » وكانت تعرف هذا الاسم وعلاقته ببلاط الخليفة فتحفزت للوقوف وطال تحفزها لثقل أوراكها على حد قول الشاعر :

فقيامها مثنى اذا نهضت من ثقله وقعودها فرد

ثم نهضت ومشت وهي تتمايل وسراويلها تتثنى فوق قدميها . حتى اذا دنت من الفضل بن الربيع هشت له وابتسمت ابتسام التحية بلطف ورقة وانحنت لتقبيل يده فمنعها . والتفت الى فنحاس لفتة الاستحسان فقال فنحاس « خاطبها يا مولاي فانها فصيحة اللسان »

فحياها الفضل فاجابت بافصح عبارة فادرك من لهجتها انها بصرية ولكنها تختلف عن اهل البصرة بلون الوجه وسائر الملامح فنظر الى فنحاس وقال له « ألعل هذه الجارية من أهل البصرة ؟ »

قال « كلا ولكنها ربيت في البصرة منذ طفولتها واصلها من بلاد

الكرج وقد ابتعتها صغيرة مثل الفتيات اللواتي شاهدتهن في الحجرة الاولى فآنست فيها ذكاء وجمالا فارسلتها الى عميل لي في البصرة علمها العربية والقرآن وحفظها الاشعار . ولما عادت الي اعجبني منطقها ورخيم صوتها ورأيت ما علمته من رغبة رجال الدولة في الاقتداء بامير المؤمنين بتعليم الجواري البيض الغناء فرغبت الى الموصلي مغني الخليفة في تعليمها فلم يقبل الا بعد ان بذلت له المال الكثير وصرت ابعثها اليه كل صباح تأخذ عنه صوتاً بعد صوت حتى اتقنت هذه الصناعة وأصبحت نادرة بين جواري بغداد لا يوجد نظيرها ولا في بلاط الخليفة »

وكان فنحاس يتكلم والفضل يتأمل جمال تلك الجارية وكانت قد تشاغلت عن سماع اطناب فنحاس بانزال عود كان معلقاً على الحائط فانحسر كمها عن يدها فبانت غضاضة زندها وعليه الاساور والدماج وبان الخضاب في كفها ورأى قرطيها يلمعان في اذنيها . فلما فرغ فنحاس من اطنابه قال له الفضل « قلت أنها تحفظ الشعر والعربية »

قال « اسألها ما شئت واسمع حديثها أو انظر الى عصابها واقرأ مازركشته عليها »

فتقدم الفضل ونظر الى العصابة فرأى عليها بيتاً من الشعر بحروف من الذهب هو :

ليس حسن الخضاب زيناً لكفي حسن كفي زين لكل خضاب

فأعجبه ذلك والتفت الى فنحاس وهو يقول « ما اجمل هذه العصائب لله در مخترعتها . . »

قال « اظنك تعني مولاتنا علية اخت الرشيد . . . فانها بالحقيقة قد أوجدت للعصائب سبباً كبيراً من اسباب الجمال »

قال الفضل « هل تعلم السبب الذي من اجله اتخذت هذه العصائب ؟ »

قال « كلا يا مولاي »

قال « أنا اخبرك عن السبب . ان في جبين علية فضل سعة حتى تسمح به فارادت اخفاء ذلك العيب فاتخذت العصائب المكللة بالجواهر لتستر بها

جبينها فاحدثت والله شيئاً ما رأيت في ما ابتدعته النساء اجمل منه » (١)

فتحقق فنحاس ان الفضل سيشتري هذه الجارية لا محالة فاراد أن يرغبه في الاخريين فاشار الى احداهما اشارة فهمتها فانزوت في بعض جوانب الغرفة والتفتت الى مرآة معلقة بالحائط بحيث لا يظهر وجهها لاحد وكان الفضل مشتغلا عن ذلك بمراقبة الجارية الاولى وهي تتلاهى باصلاح العود فلما علم فنحاس ان الجارية الثانية أعت وصيته التفت الى الفضل وقال «وانظر الى ما على وجه هذه . تقدمي يا سوسنة » وأشار اليها فأتت تتهادى بمشيتها وثوبها الارجواني يتموج بامعانه

فتفرس الفضل فى وجهها فرآها قد كتبت على خدها بالمسك « الفضل ابن الربيع » فافتتن الفضل بذلك ورغب فى هذه الجارية أيضاً

فادركت الثالثة رأيه وخافت ان تبقى وحدها وهي تعد ذهابها مع الفضل نجاحاً كبيراً لا تطمع بأحسن منه فانزوت جانباً وبيدها تفاحة عالجتها سراً ثم عادت حتى أقبلت على الفضل وقدمت التفاحة له فتناولها واذا عليها بيت شعر مكتوب بالغالية وهو :

أقول والركب قد مالت عمائمهم وقد سقى القوم كأس النعسة السهر

فادرك الفضل انها تشير الى ما يقوله ناظم هذا البيت (ابو دهبل الجمحي) بعده :

يا ليت اني بأثوابي وراحلتي عبد لاهلك هذا الشهر مؤتجر

ان كان ذا قدراً يعطيك نافلة منا ويحرمنا ما أنصف القدر

فكأنها تعرض برغبتها في الذهاب مع رفيقتيها فاستحسن الفضل فطانتها وعزم على ابتياع الجميع وكان في عزمه سماع غنائهن قبل البيع ولكنه خاف التأخير ولم يكن ميالا للهو والقصف وانما طاوع الامين لغرض له في سياسة الدولة ـ فعزم على المسير لوقته

(١) الاغاني ج ٩ صفحة ٧٩

الفصل الرابع عشر

المساومة

فتحول عن الغرفة وتبعه رجاله وفنحاس بين أيديهم وهو يقول « اذا شاء مولاي أريته اصنافاً اخرى من الجواري البيض والسمر والحمر والسود ولكنه رأى احسن ما عندي » قال ذلك ترغيباً له بما وقع اختياره عليه . وسار بين ايديهم حتى ادخلهم غرفة الاستقبال فجلسوا فأمر فنحاس بمائدة الشراب فاعتذر الفضل انه لا يرى في الوقت سعة لذلك والتفت الى فنحاس وقال « بكم تبيع هذه الجواري الثلاث ؟ »

فوقف فنحاس وقفة الاحترام وقال « وهل على ولي العهد شرط أو مساومة فان الجواري جواريه ونحن كلنا عبيده سواء دفع لنا مالا أو لم يدفع . . »

فلم يجهل الفضل احتيال فنحاس في ذلك فقال « نحن كلنا صنيعة ولي العهد ولكن البيع والشراء حق واجب »

قال «لا بأس من البيع ولكنني أستحي أن أعين ثمناً فافرض ما تراه»

قال « ذلك اليك فاطلب ما تريده »

قال « ولكن مثلك يعرف قيم الاشياء ومولانا ولى العهد كريم اذا أعجبه امر فلا يبالى بما يدفعه . . ونحن نقبل منه ان يدفع كما يدفع مولانا امير المؤمنين . . »

قال ذلك وابتسم كأنه يظهر المزاح او يخلط بين الجد والهزل

فقال الفضل « وكم يدفع امير المؤمنين ؟ »

قال « ألم يدفع ثمن الجارية ١٠٠ ٠٠٠ دينار [1] وهل تلك الجارية احسن من قرنفلة او سوسنة ؟ » وضحك

فضحك الفضل حتى استلقى وقال « ألا تدري ما ترتب على ذلك

(١) الطبري ١٣٣٢ ج ٣

السخاء . . . ألا تعلم أنه فعل ذلك في أول حكمه ولما أمر وزيره يحيى بن خالد ان يدفع هذا المال اعتذر عن دفعه فغضب امير المؤمنين فأراد يحيى أن يبين ما يحتمله بيت المال في هـذا السبيل فجعل المال دراهم فبلغت ١ ٥٠٠ ٠٠٠ درهم فعرضها في الرواق الذي يمر بهالخليفة اذا اراد الوضوء فلما رأى ذلك المال استكثره وعلم انه اسرف . .»

فقال فنحاس « فاذا لم يشأ مولانا ولى العهد ان يدفع كما دفع ابوه فليدفع كما دفع وزير ابيه . . »

فعلم الفضـل انه يشير الى جعفر البرمكى عدوه فتذكر ما بينهما من المنافسة ولـكنه تجاهل ولم يبد في وجهه تأثر وقال « ما الذي دفعه ؟ »

قال « ألم يدفع ثمن الجارية ٤٠ ٠٠٠ دينار[1] وهل يليق بولى العهد ان يدفع اقل من ذلك ؟ . وفي كل حال اني مرسل الجواري الى قصر ولى العهد والذي يدفعه مقبول »

فاستاء الفضل من هذه المساومة وشق عليه ان يجعل الامين أقل سخاء من عدوه والناس يومئذ يكتسبون الاحزاب السياسية بالسخاء وكان فنحاس عالماً بتلك المنافسة مطلعاً على دخائل الجميع ولم يقل ما قاله الا وهو يعلم ان الفضل لا يراجعه حفظاً لـكرامة مولاه الامين لعلمه انه يرى من حسن السياسة ان يحفظ منزلتـه بين رجال دولته حتى لا يجدوا عليـه ما يحقره في اعينهم وخصوصاً في تلك الحال . فنجح فنحاس في رأيه لان الفضل اراد ان يظهر فضل الامين فقال« لو كان جواريك هؤلاء من طبقة الجارية التي ابتاعها الوزير لحق لك هذا الطلب ومع ذلك فانني سأجعل ثمن الجواري الثلاث معاً ١٠٠ ٠٠٠ دينار »

فقال فنحاس وهو يظهر الزهد في الـكسب « كل ما يدفعه مولانا كرم منه فانتا وما نملك من بعض صنائعه »

ولم يجهل الفضل تملق ذلك اليهودى ولـكنه جاراه وقال « بارك الله فيك . فارسل الجوارى الى قصر مولانا مع من تعتمده لقبض المال »

(١) ابن خلـكان ١٠٦ ج ١

قال « سأرسلهن حالا وليس قبض المال مما يستعجل فيه . . . » فلما قال ذلك تحفز الفضل للوقوف فسبقه رفاقه الى النهوض وأسرع احدهم الى الخدم في فناء الدار فاشار اليهم ان يسرعوا في إعداد الركائب واشتغل الفضل فى مجاوبة فنحاس على عبارات المجاملة والاطراء وهو في أثناء ذلك يتلثم بطرف عمامته إخفاء لما جاء من أجله

الفصل الخامس عشر

القبض على أبي العتاهية

ولم يكد الفضل يفرغ من ذلك ويخرج الى باب البيت حتى سمع جلبة ثم رأى جماعة من الرجال يتعاركون وعليهم أردية تغطي اثوابهم كأنهم متنكرون ولكنه عرف من قلانسهم الطويلة المدعمة بالعيدان من داخلها انهم من جند الدولة ـ وأول من ألبس الجند هذا الزي ابو جعفر المنصور[1] ولكن الفضل استغرب تنكرهم بالاردية فوق اثوابهم على انه ما لبث أن سمع صوتاً ينادي « اني من رجال الفضل بن الربيع اتركوني وشأني »

فلما سمع الفضل اسمه تقدم فوسع له اصحاب القلانس وكانوا متكأكئين على رجل يوثقونه وهو يحاول التملص من بين ايديهم وحالما وقع بصره عليه عرف انه ابو العتاهية فاستغرب وقوعه في تلك الورطة ونظر يميناً وشمالا فرأى في بعض جوانب الزقاق امرأة ملثمة تشير اليهم ان يوثقوا الرجل ولما رأته بالغت فى التنكر والتستر والرجال يعالجون ابا العتاهية بالوثاق وهو يهددهم بانه من رجال الفضل وهم يقولون « ما لنا وللفضل فما علينا الا ان نجيب الخليفة » ووقعت عين الفضل على عين أبي العتاهية فرآه يشير اليه ويستنجده وفى استنجاده معنى توقع منه خيراً

فصاح الفضل بهم « اتركوا الرجل . من الذى امركم بالقبض عليه ؟ »

(١) العقد الفريد ج ١

فأجابوه وهم مشتغلون بشد الوثاق « انه طلبة امير المؤمنين » ولم يلتفتوا اليه

فقال لهم « ومن ينبئنا ان امير المؤمنين يطلبه وما شأنكم في ذلك ؟ »

فتقدم احدهم اليه وهو عريفهم ونظر الى الفضل فتوسم من بزته انه من كبار اهل بغداد ولكنه انكر تلثمه وقال « انتا من جند امير المؤمنين وقد أمرنا بالقبض على هذا الرجل »

قال « لا اراكم من الجند وليس عليكم شارة الدولة »

فابتسم الرجل مظهراً الاستخفاف بذلك الانكار وخلع الرداء عنه وأدار ظهره ليقرئه ماهو مطرز بين كتفيه فقرأ « فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم » ثم أشار العريف الى خصره فرأى سيفه معلقاً بمنطقته

فضحك الفضل وقال « هذه ثياب قديمة من ايام المنصور لانه هو الذي أمر رجاله بكتابة هذه العبارة[1] على اثوابهم وبتعليق السيوف بمناطقهم فلا يبعد انكم ابتعتم هذه الاثواب من بعض الوارثين لتنتحلوا الجندية وإلا فأين اسم امير المؤمنين الرشيد ؟ »

فمد الرجل ذراعه فقرأ الفضل على أعلى الكتف اسم الرشيد مطرزاً بالقصب « هرون بن المهدي امير المؤمنين » ثم تحول العريف عن الفضل وهو يهز رأسه وتوجه نحو رجاله وهم لا يزالون يعالجون أبا العتاهية وأخذ يستحثهم على الاسراع في شد الوثاق وكان رجال الفضل واقفين ينتظرون امره لانقاذ ابي العتاهية ولم يشاءوا الاقدام على ذلك إلا باشارة مخافة أن يكون قاصداً التنكر لغرض في نفسه

اما هو فلما رأى استخفاف العريف به ناداه بصوت هادىء يمازجه التهديد قائلا « ولكنه يقول لكم انه من رجال الفضل بن الربيع »

قال « ومن ينبئنا بصدق قوله ؟ وهب انه صادق فنحن مأمورون بالقبض عليه » قال ذلك وهو لا يلتفت وراءه فصاح به الفضل « أنا اقول لك ايضاً انه من رجال الفضل فاتركوه »

(١) الاغاني ج ٩

فلما سمعه يخاطبه بهذه اللهجة تحول نحوه وتفرس في وجهه من وراء اللثام ثم التفت نحو المرأة التي كانت واقفة هناك فرآها تتسلل من بين الجماهير فعلم انها تطلب الفرار واستدل من فرارها ان الرجل الذي يخاطبه ممن يخشى بأسهم على انه لم يكترث لقوله وعاد الى رجاله وصاح فيهم « اوثقوه حالا »

وكان فنحاس في اول الامر واقفاً بجانب الفضل فساءه ما وقع في بيته من القبض على أبي العتاهية ولم يفهم السبب وحدثته نفسه ان يتقدم لانقاذه وهو قادر على ذلك لكثرة من في داره من الرجال ثم تذكر ما وعده من الاجتزاء من ثمن الجواري فتوسم بالقبض عليه باباً للتخلص من ذلك الاجتزاء على ان حيان ما لبث ان جاءه وأسر اليه ما كان في الامس وما أوصته به الجارية من الاحتفاظ به ريثما تأتي وان سيدتها من اهل امير المؤمنين . فاطمأن فنحاس وصمم على السكوت ودخل الى داره يتشاغل بما لا طائل تحته

اما الفضل فلما سمع تهديد العريف تقدم خطوتين بقدم ثابتة وهو يقول للرجل « لا . لا ينبغي ان توثقوه حتى نعرف ما هو ذنبه . والا فانتم تتحملون تبعة هذا العمل عند امير المؤمنين »

فالتفت العريف نحو الفضل وهو يقول « ومن انت حتى تهددني بأمير المؤمنين ؟ امض لشأنك »

فلما سمع رجال الفضل ما في تلك العبارة من الاستخفاف كادوا يهمون بالرجل او يصرحون له بالحقيقة ولكنهم تركوا ذلك للفضل ولبثوا يتوقعون أمره . اما هو فما زال رابط الجأش وما زاد على انه اشار الى رجاله ان يخلصوا أبا العتاهية فهجموا وكانوا اشداء وأكثرهم من القواد فعلت الضوضاء وهم الجند بتجريد السيوف فصاح الفضل فيهم « لا حاجة بكم الى السيوف اتركوا الرجل فاذا سئلتم عنه فقولوا ان الفضل بن الربيع أخذه منكم فاذا كان لامير المؤمنين او سواه حاجة به فليطلبه مني »

فلما سمعوا ذلك التصريح بغتوا وتوقفوا عن الحركة وجاء العريف الى

الفضل وقال له بغير لحن الاستخفاف « ان الرجل طلبة اميرالمؤمنين فكيف نتركه بعد ان قبضنا عليه وماذا نجيب اذا سئلنا عنه ؟ »

قال « قل لطالبه انه عندي . قل انه عند الفضل بن الربيع أو عند ولي العهد كما تشاءون » قال ذلك وهو يهم بازاحة اللثام

فلم يبق عند العريف شك انه بين يدي الفضل ولكنه نظر الى ما حوله من الرجال فسمع أحدهم يقول له همساً « انك تخاطب وزيراً كبيراً هذا هو الفضل بعينه »

فتقدم العريف نحوه وهو يتأدب في مشيته وقال « لماذا لم يقل مولانا ذلك في بادىء الرأي فنحن صادعون بأمره » ثم أشار الى رجاله فحلوا أبا العتاهية وتحولوا فانحاز أبو العتاهية الى رجال الفضل وقد وقعت عمامته عن رأسه وانتفش شعره فظهر قبح منظره وجاءوا به الى الفضل فتواقع على قدميه وحاول تقبيل طرف ثوبه فانهضه الفضل وهو يقول « ما الذي أوقعك هذه الوقعة وأنت الشاعر الزاهد ؟ . . . » وضحك وهو يحسب سبب القبض عليه مما يخالف أسباب الزهد

فقال « ان السبب يا مولاي سأقصه عليك وهو يهمك »

فاشار اليه أن يسير معهم وأمر رجاله بالركوب بعد ان قدموا له فرسه فركب وركبوا في أثره قاصدين قصر الامين

الفصل السادس عشر

الصولجان والكرة

أما العريف ورجاله فانهم عادوا الى قصر العباسة وكانت قد ارسلتهم للقبض على أبي العتاهية بمشورة عتبة ـ وذلك انهما لما رجعتا الى القصر في اواخر الليل كما تقدم ظل خاطر عتبة مشتغلا بما علمته من أمر أبي العتاهية وقد ترجح في ذهنها اطلاعه على سر مولاتها . فلما وصلتا الى القصر دخلت العباسة الى غرفتها تلتمس الرقاد واستولى القلق على عتبة فلم

تمالك عن الدخول عليها باكراً والتصريح لها بما لاحظته وأشارت بالقبض على أبي العتاهية سريعاً لئلا يبوح بالسر . فاعظمت العباسة الخبر وخافت ولم تر حيلة للنجاة الا بالقبض عليه واخفاء خبره ريثما تتدبر في أمرها . فتقدمت الى عتبة أن تنفذ شرذمة من الجند ممن كانوا في خدمة قصرها ليقبضوا عليه بامر الخليفة . فذهبت عتبة معهم حتى اذا وصلوا الى دار فنحاس كان الفضل قد سبقهم اليها ودخل دار الرقيق كما تقدم . وكان ابو العتاهية عازماً على الخروج خلسة بحيث لا يشعر به الفضل ولا يعرف بوجوده هناك مخافة أن يلحظ تواطؤه مع فنحاس ولم يخطر له أنه مطلوب وشعر حيان بذلك وأخذ يشاغله بالحديث ونحوه ريثما يعود سيده من دار الرقيق ليطلعه على وصية عتبة. فلما أحس ابو العتاهية بقرب خروج الفضل أسرع في الذهاب وكان العريف قد جاء بجنده فاشار حيان اليهم أن يقبضوا عليه فهموا به ورأى ابو العتاهية عتبة فادرك غرضهم فاخذ يطاولهم حتى جاء الفضل فوجدهم على تلك الحال فانقذه منهم

فعاد العريف الى العباسة وكانت عتبة قد سبقته الى هناك وأخبرت مولاتها بتعرض الفضل لهم . فلما عاد العريف وأنبأها بما كان من نجاة ابي العتاهية على تلك الصورة عظم الامر عليها وتحققت ان سرها لا يلبث أن يتصل بالفضل فاخذت تندب نفسها . وخلت بعتبة وشاورتها في الامر فقالت لها « لم يبق لنا حيلة يا مولاتي الا باستنجاد مولاي الوزير »

قالت « وكيف نبلغه الخبر وهو اليوم مع أخي في الميدان يلعبان بالكرة والصولجان » وكان ذلك اليوم موعد تلك الالعاب على جاري العادة في الميدان بقرب قصر الخلد

قالت « لا بد من ذلك . واذا شئت فاني أتولى نقل الخبر اليه »

فاذنت عليها وقالت « تدبري بالامر كما تشائين فاني لا أعي شيئاً »

قالت « هل ادعوه اليك الى هنا ؟ »

قالت « افعلي ما ترين لاني أخاف انكشاف أمرنا قبل تدبير الحيلة للنجاة »

قالت « لك علىّ ذلك باذن الله » وهمت بالخروج فنادتها العباسة وقالت « خذي اليه هذه البطاقة » وكتبت اليه بطاقة قالت فيها « أدركني في أول لحظة تتفرغ فيها لانقاذنا من مخالب الاعداء » ودفعت البطاقة اليها فخبأتها بين أثوابها وخرجت للحال الى غرفتها وتزيت بزي رسول قادم من خراسان وتلثمت لثام السفر وركبت فرساً وأسرعت نحو الميدان وكان قصر العباسة على مقربة منه

فوصلت الميدان والشمس قد مالت عن خط الهاجرة فرأت تلك الساحة غاصة برجال الدولة على خيولهم في ساحة كبيرة قد أحاطوها بسور من حبال مزدوجة منصوبة على أعمدة وقام الجند حول السور بالاسلحة يمنعون الناس من الدخول . فوقفت بجوادها بحيث تشرف على اللاعبين حتى تتحقق موقف جعفر ثم تسعى في الوصول اليه . فرأت في بعض جوانب الساحة فسطاطاً كبيراً خرج منه الرشيد على فرسه وقد اعتم بعمامة خفيفة خاصة باللعب وبيده صولجان هو عبارة عن عصا طويلة طرفها أعقف ورجال الدولة على أفراسهم متأهبين للعب وفي أيديهم الصوالجة وقد اصطفوا صفين أحدهما مع الرشيد . ورأت الرشيد يجول على فرسه والعصا مشهرة بيده ثم التقف بها الكرة من الارض وأرسلها في الهواء فتسابق اللاعبون لملاقاتها بصوالجتهم وأخذوا يستحثون أفراسهم وراءها وفي جملتهم جعفر الوزير على فرس ادهم وعليه دراعة تمنطق فوقها بمنطقة عريضة من الخز وعلى رأسه طاقية فوقها عمامة خفيفة . ولاحظت انه لم يكن احد غيره يجسر على الدنو من الخليفة . واما سائر اللاعبين من رجال الدولة فكانوا يجولون في الميدان مسايرة للخليفة ولا يجسرون على مسابقته مخافة ان يغلبه احد منهم والمجاملة تقضي بان يكون هو الغالب . الا جعفر فقد كان يسابق الرشيد في الكرة ويلاعبه بها والرشيد يجامله فاذا اخطأ ضحك وصاح بجعفر ومازحه وجعفر يتعاجز عن غلبه

وكان صولجان الخليفة من الخيزران المطوق بالذهب ورأسه من الذهب الخالص وصولجان جعفر من خيزران بلا تطويق وكراتهم كتل من مشاقة

الحرير معبأة في أكياس من الحرير المتين وقد شدت بأطواق من الاوتار المرنة . فلا يلبث الفارس أن يلتقف الكرة من الارض بطرف صولجانه الاعقف حتى تطير في الهواء فيستحث الآخرون افراسهم في أثرها وعيونهم شائعة نحوها وصوالجتهم مشرعة في أيديهم يبغون ملاقاتها وأفراسهم قد هاجها الاستكداد حتى تصبب العرق عنها واختلط الزبد المتحلب من أفواهها بما أزبد من العرق المتقطر من أعناقها وصدورها وهي لا تشكو تعباً لانهم أعدوها لمثل ذلك اليوم وكان الرشيد شديد الولع بهذه اللعبة (١) ورجال الدولة يتقربون اليه باتقانها واللعب بين يديه بها

وكان جعفر قد قضى ليلته الماضية في قلق على أثر مشاهدته ولديه إذ جاء بهما اليه رياش قبل ذهابه الى دار فنحاس فقبلهما جعفر واستنشق ريحهما ولاعبهما مدة فثارت عواطفه وأصابه ما أصاب أمهما تلك الليلة من استيقاظ الحنو الابوي على ولدين كأنهما الفرقدان مع ماذكرناه من جمالهما ولطفهما وقد قضت ارادة الخليفة بابعادهما عن حجر والديهما خوفا من الموت

فبات جعفر تلك الليلة وهو يتصور العباسة معانقة ولديها مع ما قد يجيش بين جنبيها من عوامل الحنو يخالطها خوف الفراق ناهيك بما يعترض ذلك من الهواجس والمخاوف فعظم عليه الامر وهجره النوم وقد كان على موعد الذهاب الى الميدان لملاعبة الرشيد بالكرة والصولجان في صباح الغد . فجاء بموكبه وحاشيته وهو يظهر الارتياح لعلمه بما يحدق به من الحساد والوشاة . على انه كان مطمئن الخاطر من قبيل الرشيد واثقاً بحسن ظنه به لا يخاف حسد الحاسدين ولا وشاية الواشين . وقد فاته ما يجول في خاطر الرشيد من أمره وما يدسه الوشاة اليه يهيجون نقمته عليه بما يعرضون به من اتساع حال البرامكة واقتنائهم الضياع والقصور واختزانهم الاموال مما لم يكن عند الرشيد مثله . فضلا عن استبداد جعفر بشؤون الدولة . على انهم لم يكونوا يؤانسون من الرشيد اصغاء ولم يسمعوا منه غير اطرائه والثناء عليه وقد أطلق يده في أمور العامة والخاصة حتى أباح له الدخول

(١) ابن الاثير ج ٥

على دوره بلا استئذان وسلم اليه خزائن بيت المال وأطلق يد أبيه يحيى في دوره وقصوره وجعل النظر فيها وفي حريمه اليه حتى كان يغلق ابواب القصر وينصرف بالمفاتيح [1]. ولم يكن الرشيد يصبر على فراق جعفر حتى آل ذلك الى ما تقدم من عقده له على اخته العباسة بحيث يحل له النظر اليها فلا يخلو مجلسه منهما فافضى ذلك الى ما علمته من زواجهما سراً

على ان جعفر لم يكن يعد زواجه بالعباسة الا شرعياً وانما عمد الى التستر خوفاً من غضب الرشيد ولم يخطر له انكشاف ذلك السر لاحد وكأن اقبال الزمان غره فاعمى بصيرته عمن يحدق به من الحاسدين. ولعل له عذراً على غروره بما كان يعانيه من تزلفهم اليه وتظاهرهم باحترامه ورعاية جانبه. ولا نظنه كان غافلا الى هذا الحد ولكنه سكر بما ظهر له من حب الرشيد له واجلال مقامه وما كان يبديه من اكرامه والرجوع بالامور اليه

الفصل السابع عشر

قصر العباسة

أما عتبة فجعلت تتفرس باللاعبين حتى عرفت مكان جعفر وهو بعيد عنها ودون الوصول اليه رجال وحبال فوقفت وهي تعمل فكرتها في طريقة لايصال البطاقة اليه بغير أن يشعر بها أحد. فوقع بصرها وهي في تلك الحيرة على رجل من غلمان جعفر كان يأتي قصر العباسة ببعض المهام الخصوصية ولها به ثقة فاستغفلت رفاقه وأشارت اليه فجاء نحوها على انفراد فناداته « حمدان » وكان حمدان هذا من أقدم غلمان جعفر نشأ في منزل أبيه يحيى منذ طفولته وقد ربي جعفر على ذراعيه وكان يحبه حباً يقرب من العبادة وقد بلغ الخمسين من عمره ولا يزال نشيطاً وهو فارسي الاصل خراساني الموطن وكان مقدماً عند جعفر يدخل عليه متى شاء ويعامله معاملة

(١) الاتليدي

الاقرباء ـ فلما سمع حمدان عتبة تناديه باسمه عرفها وأدرك انها متنكرة لغرض هام فقال لها « ما وراءك ؟ »

قالت « جئت برسالة الى الوزير فكيف أوصلها اليه ؟ »

قال « انهم لا يلبثون ان يفرغوا من اللعب ويعود الوزير الى فسطاطه للراحة فيهون ادراكه . . اعطني الرسالة فأوصلها اليه »

فسرت عتبة لذلك ودفعت اليه البطاقة فخبأها في ثيابه وقال لها « اذهبي واطمئني فاني موصلها اليه حالا »

فعادت عتبة الى سيدتها فرأتها في انتظارها وقد فرغ صبرها فقصت عليها ما كان وجلستا على مثل الجمر تنتظران مجيء جعفر

وكان قصر العباسة على ضفاف دجلة بالقرب من قصر زبيدة (دار القرار) بينه وبين قصر الخلد (دار الرشيد) وكان لقصر العباسة شرفة مطلة على دجلة وأخرى تطل على طريق يؤدي الى الميدان وهو الطريق الذي عادت منه عتبة فجلست العباسة في هذه الشرفة وأطلت من وراء حجاب فلم تر في الطريق أحداً . وطال انتظارها وعيناها شاخصتان نحو الافق اذا رأت شبحاً ظنته وزير أخيها أو حبيبها وزوجها ومحط آمالها . حتى اذا مالت الشمس الى المغيب واستطالت أظلال المآذن على أسطحة قصور بغداد وعلت أصوات المؤذنين انزعجت العباسة لصوت الآذان على غير المعتاد لانها كانت تستأنس به وتطرب لسماعه أما الآن فقد أزعجها لانه أنبأها بانقضاء النهار وحيلولة الظلام بينها وبين الافق وكانت عتبة واقفة الى جانبها لا تقل عنها قلقاً فلما سمعت أصوات المؤذنين لحظت تذمر مولاتها فابتدرتها قائلة « أظنه تأخر الى الليل عنوة »

قالت « ولماذا ؟ »

قالت « حتى يأتيك خلسة فلا يشعر به امير المؤمنين أو غيره »

قالت « وأي متى كان أخي يراقب ذهابه ومجيئه وهو غير متهم عنده ومفاتيح القصور في يد أبيه . . ولكنني أخاف ان يكون لتأخره سبب مزعج وقد أصبحت بعد اطلاع ذلك الشاعر بائح الجرار على سرنا أعد

حياتي في خطر . . » قالت ذلك وغصت بريقها

فقالت عتبة لا يزعجك هذا الوهم يا مولاتي فانني لست على يقين من اطلاع أبي العتاهية على سرنا وانما اتهمته فاحببت القبض عليه من باب الاحتياط وهي انه اطلع عليه فهل يجسر ان يذكره لامير المؤمنين ؟ »

فلما تصورت العباسة ذلك اقشعر بدنها خوفاً من غضب أخيها لعلمها انه اذا غضب فتك واستبد ولا مرد لغضبه وهي تعلم ايضاً انه ما من أحد يجسر على ذكر شيء من ذلك بين يديه ولكنها قالت « اذا كنت لا اخاف ان ينطق ابو العتاهية بشيء من ذلك بين يدي أخي ألا اخاف ان يبوح به لحساد جعفر وهم يتخذونه وسيلة للايقاع به . على اني لا اخاف أحداً خوفي من تلك المرأة »

فادركت عتبة انها تشير الى زبيدة امرأة اخيها لعلمها بما بينهما من المنافسة مما يكون بين المرأة وبنت حماتها لا سيما ان الرشيد كان يظهر حبه للعباسة ولا يصبر على بعدها وزبيدة تفاخر سائر نساء الخليفة بشرف نسبها الهاشمي لانها حفيدة المنصور وابنة عم الرشيد . وكان الرشيد يحبها ايضاً ويحترمها ولا يرد لها طلباً فلم يرضها ذلك حتى غارت من حبه أخته . ولعل علو منزلتها عند الرشيد زاد اسباب غيرتها وخصوصاً بعد ان علمت بما بين العباسة وجعفر من تبادل العلائق . فلم يكن ذلك كله يخفى عن عتبة بل كانت هي أعلم به من مولاتها « لان الخبر يصل الى أذن صاحبه ويقف » ولا سيما في ذلك العصر والناس يتقربون الى اهل المراتب بالاطراء والارضاء ويجتنبون إبلاغهم ما يسوءهم ذكره . وربما ارتكب المرء جناية ظن نفسه مبالغاً في كتمانها والناس يتحدثون في مجالسهم وأنديتهم وهو يحسبهم غافلين ولا يجسر أحد منهم أن يطلعه على ذلك . فلما سمعت عتبة تصريح العباسة بخوفها من زبيدة قالت « لا أرى مسوغاً لما تتخوفين منه الآن »

قالت « وكيف لا ترين مسوغاً وأنت تعلمين ما في نفس زبيدة مني فكيف اذا اطلعت على هذا السر »

فابتسمت عتبة وقالت « هل تظنين زبيدة لم تعلم ذلك الى الآن »

فأجفلت العباسة وقالت « وهل علمت . ومن أطلعها عليه ؟ »

قالت « انك عاقلة حكيمة ومثلك لا تأخذه ظواهر الامور . كيف يخطر لك ان يبقى هذا الامر مكتوماً عن الناس ومولاي الوزير يدخل هذا القصر متى شاء بلا حجاب ولا حساب . . »

فقطعت العباسة كلامها وقالت « وهل اهل القصر يعلمون ذلك ايضاً ؟ »

فخافت عتبة على مولاتها فقالت « كلا ولكنني اظن زبيدة علمت به لما تعلمينه من تجسسها بواسطة الجواري والاعوان لما يهمها من امرك . على ان اطلاعها على ذلك لا يقتضي ان تبوح به لزوجها فان امير المؤمنين لا يجسر أحد ان يذكر له شيئاً مثل هذا ان لم يكن خوفاً منه فخوفاً من سيدي الوزير وهو صاحب العقد والحل في الدوله . فمن يجسر ان يتعرض لغضبه ؟ »

وكان الظلام قد تكاثف وهما جالستان في تلك الشرفة على العتمة وسائر القصر مشعشع بالانوار والشموع وأهله لاهون عن حال مولاتهم لا يعلمون بما يكنه ضميرها ولم يكن احد ممن في قصرها من الجواري والخصيان وغيرهم يجالسها او يعلم ما في قلبها إلا عتبة لانها صحبتها من طفولتها وهي في قصر ابيها المهدي ووثقت بها . وكانت العباسة تباحث عتبة في ذلك المساء وعيناها لا تنتقلان عن الافق وان كان مظلماً . على ان بصرها كان يتحول رغم ارادتها الى الانوار المتألقة في قصر الخلد الى يمينها ودار القرار الى يسارها وفي كل منهما رقيب تخافه . فلما استبطأت جعفر اشتغل خاطرها وتحفزت للنهوض وهي تقول « هلم بنا الى الشرفة المطلة على دجلة لعله يجيء من هناك . . » واذا هما بخفق نعال في الدهليز المؤدى الى ذلك المكان . فلما سمعت العباسة ذلك الصوت خفق قلبها لانه يشبه وقع خطوات جعفر فاسرعت وهي تقول « أظنه جاء » فمشت عتبة بين يديها وقالت لها « اذهبي يا مولاتي الى غرفتك البعيدة حتى آتي به اليك فلا يكون عليكما رقيب . . ولا أنا »

فأطاعتها العباسة وتحولت الى تلك الغرفة . أما عتبة فاقبلت على الدهليز وفي جدرانه الشموع فرأت جعفر داخلا وعليه السواد (الجبة السوداء) والقلنسوة الطويلة وهما لباس العباسيين الرسمي فتقدمت اليه وقبلت يده فابتدرها قائلا « أين مولاتك »

قالت « هي في غرفتها تنتظر مجيئك منذ عدة ساعات »

فمشى وحده ومشت عتبة في اثره ريثما يصل الى باب الغرفة فتساعده على خلع نعاله ثم تعود الى مكان بعيد على جاري العادة . وكان جعفر يومئذ في السابعة والثلاثين من عمره وهو طلق المحيا ظاهر البشر جميل الطلعة ربع القامة كستنائي لون الشعر خفيف اللحية والشاربين لم يخالط شعره الشيب الا قليلا . وفي عينيه ذكاء وكان قد ارسل القلنسوة الى الوراء فبان بياض جبينه وظهرت على محياها أمارات الاهتمام ومن كان دقيق الشعور قوي العاطفة ظهرت عواطفه في وجهه فلا يقوى على الكظم ولا يصبر على الضيم وهذا الفرق راجع الى طبيعة الامزجة ففي الناس حاد المزاج سريع الغضب وطويل الاناة واسع الصدر وما بين ذلك درجات كثيرة . أما جعفر فلم تكن تخفى انفعالاته على المتأمل خلافاً للفضل ابن الربيع

الفصل الثامن عشر

المقابلة

وكانت العباسة واقفة في غرفتها وركبتاها ترتعدان من شدة التأثر تتنازعها عوامل الحب والخوف والعتاب والرجاء وكانت تلك الغرفة على سعتها وبما فيها من اسباب الزينة من المنائر المنصوبة والصور المعلقة والطنافس المفروشة أضيق في عينيها من صندوق صغير ورأت الانتظار تلك اللحظة أطول من انتظارها معظم ذلك النهار . ثم ما لبثت ان سمعت خفق نعاله بالباب وسمعت حركة خلع النعال وكانت عتبة تساعده على

ذلك فلما خلعها وضعتها على رف معد لمثلها هناك وعادت

اما العباسة فتقدمت نحوه وهي في ثوب بسيط تعودت أن تلبسه عند مقابلتـه وكان شعرها محلولا وقد ضفرته ضفيرة واحدة جمعتها في أعلى رأسها بدبوس مرصع والتفت فوق الرداء بمطرف من الحرير المزركش باشعار طرزت على حواشيه بالقصب . وقد رسم القلق في أسرتها عبوساً زادها هيبة وجمالا . ولم تتمالك عند وقوع نظرها على جعفر عن الابتسام وقد نسيت ما أعدته من عبارات الشكوى وذهب من مخيلتها ما تزاحم فيها من اسباب المخاوف وأحست بارتياح تعودته في ساعة اللقاء ـ شأن الحب الصادق فانه غالب على اسباب الشقاء في كل حال فالحب مهما انتابه من المشاق او اعترضه من العقبات اذا رأى حبيبه نسي كل شيء واشتغل به عن كل شيء . والحب سعادة حقيقية لا يزيدها الشقاء إلا تمكناً كالذهب لا تزيده النار الا صفاء ورونقاً

وكان جعفر مع ما يراه من استهلاك العباسة فى حبه وتفانيها فى راحته لا ينسى انها من دم أجمع اهل ذلك الزمان على انه أشرف من دمه لانها عربية هاشمية بنت خليفة وأخت خليفة وهو فارسى أعجمي لا يسوءه مع ما بلغ اليه من السيادة ونفوذ الكلمة ان يعد في جملة الموالي على جارى اصطلاحهم في ذلك العهد . ولم يجسر على الطمع بمثل ما ناله جعفر أحد من الاعاجم مهما بلغ من سطوتهم وعلو مرتبتهم حتى الملوك والسلاطين من ظهور الاسلام الى أواسط القرن الخامس للهجرة . وأول من أقدم على ذلك السلطان طغرلبيك السلجوقى فأراد ان يتزوج ابنـة الخليفة القائم بامر الله العباسي فانزعج الخليفة لطلبه ولم يعقد له عليهـا الا مضطراً سنة ٤٥٤ هـ والخلفاء العباسيون يومئذ في دور الانحطاط فكيف في أيام الرشيد وهو عصرهم الذهبي ـ فاذا اعتبرت ذلك هان عليك تخوف جعفر من انكشاف امره واطلاع الرشيد على تزوجه بالعباسة زيجة حقيقية وهو انما عقد له عليها لتحل له رؤيتها وقد حسب ذلك منـة كبرى على وزيره وصديقه والقائم بدولته . فجعفر لم يقدم على ذلك الخطر ولا

أقدمت العباسة عليه الا لتغلب سلطان الحب عليهما

فلما التقى الحبيبان نسي كل منهما الغرض من ذلك الاجتماع لحظة على حد قول الشاعر المجنون :

فيا ليلى كم من حاجة لي مهمة اذا جئتكم في الليل لا أدري ما هيا

ثم انتبهت العباسة لما يهددها من الخطر فافتتحت الحديث وغلب عليها الدلال فبدأت بالعتاب وهو فاتحة حديث المحبين أو هو حجة يتطرقون بها الى التشاكي وما التشاكي إلا جلاء القلوب بالاحتكاك فيزداد تجاذبها وتذكو نيران الغرام فيها . فقالت « لم يرق لجعفر أن يجيب طلب العباسة الا الآن ! »

فأجابها وهو ينظر اليها نظرة المحب الولهان « ان طلب العباسة أمر لا مرد له ولكن الاحوال قضت بابطائي خوفاً من أعين الرقباء وقد جئتك بقارب على دجلة وبعثت غلامي بالجواد لاعود عليه »

فادركت السبب في عدم رؤيتها إياه من الشرفة ساعة مجيئه . فقعدت على وسادة من الحرير المطرز وهي ممسكة يده تدعوه الى الجلوس بجانبها فاحس ببرد تلك اليد وارتعاشها وقعد على وسادة اخرى بجانبها وهو يحاذر أن ينتقل نظره عن نظرها ولبث ينتظر ما يبدو منها . فاذا هي تقول وصوتها يرتجف « الى متى هذه المحاذرة يا جعفر ؟ قد آن لنا أن نعيش أو نموت »

فظنها تعرض بما يتخوفانه من أمر الرشيد فتنهد وقال « ان الاقدار حكمت علينا بهذه المخاوف لانها جعلت بيني وبينك حجاباً من شرف النسب فجعلتك من سادات بني هاشم وجعلتني من الموالي »

فقالت وهي تنظر اليه عاتبة « انه حجاب من الوهم الباطل فأنت أسمى نفساً من السادة وأرفع في عيني من كل بني هاشم ولكن . . . » وسكتت

فقال « لقد دعوتني على عجل فجئت فهل حدث شيء جديد ؟ »

قالت وقد ذهبت دهشة اللقاء وعادت اليها مخاوفها وأسرعت الدموع

الى ما آقيها « نعم . . . فينبغي أن نموت أو نعيش إذ لا طاقة لي بما نقاسيه من المخاوف »

فأجفل وقال « ما الذي حدث مما نخافه الى هذا الحد . . ؟ أما الموت فاني استسهله في سبيل راحتك »

قالت وصوتها يرتجف « لقد انكشف امرنا ولا يلبث أن يطلع أخي على سرنا » واختنق صوتها

قال وقد بغت « وأي سر ومن اطلع عليه ؟ وكيف ؟ ومتى ؟ »

قالت « قد انكشف سرنا بالامس وأنا في دار فتحاس مع ولدينا اقبلهما وأتودع من رؤيتهما . . »

قال « ومن اطلع عليه ... من تجرأ على ذلك ؟ . . »

قالت « أبو العتاهية اللعين »

فأجفل وصاح « أبو العتاهية ؟ يجب أن يقتل حالا »

قالت « وقد أردت قتله فبعثت شرذمة من الجند للقبض عليه في صباح هذا اليوم وهو لا يزال في تلك الدار فتمكن من الفرار »

قال « وكيف يفر من أيدي الجند ؟ تباً لهم »

قالت « انما نجاه عدوك الخبيث »

قال « وأي أعدائي تعنين فانهم غير واحد »

قالت « صدقت انهم كثيرون ولكني أعني أشدهم حسداً منك واكثرهم سعياً في اذيتك ووشاية فيك . . ألم تعلم من هو ! »

قال « أظنك تعنين الفضل بن الربيع »

قالت « اياه اعني » وأجهشت بالبكاء

فحمي غضب جعفر لبكائها وكاد يمزق ثوبه غضباً وكيداً وقال « الفضل ابن الربيع قبحه الله من وغد زنيم . . . ألم يخف سطوتي ؟ ألم يرهب حد سيفي ؟ ما الذي جرأه على هذه الوقاحة ؟ »

قالت « جرأه انه مقرب من محمد بن زبيدة وأنت تعلم نفوذ كلمتها عند أخي ... واتفق وجوده في دار الرقيق لابتياع بعض الجواري المغنيات

لذلك الغلام الخليع وبينما هو خارج رأى جندنا يشتغلون بالقبض على أبي العتاهية فاستنجده وقد رأته جاريتي عتبة يشير اليه بعينيه كأنه يعده بكشف سر يهمه فانقذه واستعان على ذلك برجاله وهدد رجالنا فتركوا أبا العتاهية وعادوا فقصوا علي الخبر فكدت أتقد بثيابي ولم أعد أدري ماذا أعمل فأشارت علي تلك الجارية الامينة أن أطامك على الواقع وذهبت هي اليك بتلك البطاقة وأنت تلعب بالكرة والصولجان فعهدت بها الى غلامك حمدان الذى تعودت انفاذه الي وهو أوصلها اليك . وقد قضيت في انتظارك ساعات هي أطول علي من الدهر حتى جئت الآن وهذا هو خبري فما رأيك ؟ . . . قد اصبحت لا آمن البقاء هنا ساعة ويخيل لي ان أحجار بغداد ومياه دجلة عالمة بسري وكأن خدمي وجواري جند يهمون بالقبض علي . . . ولو كان الخطر علي وحدى لهان مصابي لكنني أخاف عليك من غضب أخي وشدة بطشه » قالت ذلك واستخرجت منديلها تمسح به عينيها وقد اغرقت في البكاء

وكان جعفر يسمع حديثها وعيناه شاخصتان اليها وقلبه يخفق بغتة ولحيته ترقص غضباً . فلما فرغت من كلامها هاجت عواطفه وحمي غضبه فلم يتمالك ان وقف بغتة وقال « لا تخافي يا حبيبتي انهم لا ينالون منك شعرة قبل أن تزهق ارواحهم جميعاً »

فأمسكت بطرف سواده وأجلسته وهي تقول « لا تجعل للغضب سلطة عليك فان الامر يحتاج الى الروية والتبصر لان غريمك الخليفة امير المؤمنين وبنو هاشم وسائر العرب وأحزابهم وأجنادهم ولك حساد يتوقعون منك كبوة يجعلونها حجة فأخاف اذا أخذت الامر مصادرة ان تعرض نفسك للخطر »

الفصل التاسع عشر

الرأى الصواب

فابتسم جعفر والغضب ظاهر في شفتيه وعينيه وقال « لا تظني بحبك يرسل الكلام جزافاً فاني قد أعددت لكل نازلة دواء . . . ان من أشرت اليهم من سادات بني هاشم وسائر رجال الدولة ليس منهم مع الرشيد أحد لانى غمرتهم بعطاياي وملكتهم باحساني . وأنا لم أكثر الجوائز عبثاً ولا بالغت بالكرم والسخاء اعتباطاً ولكنني جعلت ذلك ثمناً لما ارجوه في مثل هذا المشكل وأعظم منه . وأما الجند فالقواد الفرس كلهم ناقمون على أخيك لمبالغته في مطاردة العلويين وعندي في خراسان ألوف من صناديد الرجال يأتمرون بأمري وكلهم ناقمون على بني العباس منذ فتك جدك ابو جعفر المنصور بقائده ومؤسس دولته أبي مسلم الخراساني . . . اعذريني اذا صرحت لك بذلك وان كنت لم أصرح به لاحد سواك بعد ولا يغضبك أن تسمعي ما سمعته عن جدك وأخيك وانما أحوجتني الى التصريح بما رأيته من تخوفك . . »

فلما سمعت مشروعه اعظمت الاقدام عليه وأطرقت ولم تجب فابتدرها قائلا « كأني بك تتخوفين مما سمعته فاذا كنت تنكرين علي مناهضة الخليفة وهو أخوك أخبريني »

فرفعت العباسة بصرها اليه وقد بدا الاهتمام واعمال الفكرة في عينيها وقالت « اني لا استحي أن اصرح لك بما في خاطري بعد ما سمعته من تصريحك فاعلم انه لا يهمني في هذه الدنيا احد سواك وكل عدو لك فهو عدو لي . . . لا أستثني أحداً . . . ولكنني أخاف إقدامك على أمر يمكننا الجنوح عنه الى أمر آخر أقل خطراً منه . . . اعلم يا حبيبي اني لا مطمع لي في هذه الدنيا إلا بان أكون بجانبك هنا ومعنا ولدانا وثمرة قلبينا (وبلعت ريقها تجنباً للبكاء) ولا يهمني أن يكون ذلك الاجتماع

في قصر أو كوخ فقد عافت نفسي القصور وما يحف بها من اسباب المخاوف . . . فانظر في سبيل ننجو به من هـذه المدينة الى مكان لا نخاف فيه بأساً ودعنا من الوزارة والخلافة والسلطة فانهـا محفوفة بالمكاره والمرء مهما طال عمره أو اتسع سلطانه لا يبقى له مما لا يملكه إلا قيد باع يوارونه فيه . . » وأخذت في البكاء ويداها بالمنديل على عينيها

فلما سمع كلامها ورآها تبكي على هذه الصورة كاد يبكي معها لو لم يتجلد ولـكنه تأثر مما ذكرته عن ولديهما فاطرق وهو يزيح القلنسوة عن جبينه ثم تشاغل بالقبض على لحيته واعمل فكرته في ما قد يجره اليـه تسرعه باظهار العدوان ورجع الى صوابه ورأى قولهـا أقرب الى السلامة فقال لها وهو يرد يديهـا عن عينيها « لا تبكي يا فؤادي اني فاعل ما تريدين . . . صدقت ان التؤدة أولى بأهل الحزم . . وها أني عارض عليك رأياً أظنك توافقيني عليه . . »

فابتسمت والدمع لا يزال في مآقيها وقد ذبلت عيناها من البكاء وتكسرت اهدابهـا ونظرت اليه ولسان حالها يستفهم عن مراده . فابتسم هو وقال « ان خوفك من بلوغ الخبر الى اخيك بعيد إذ ليس بين رجال الدولة لا الفضل ولا غيره من يجسر على ذكرك بين يديه أو التعريض بما تخافينه وأنا أعلم النـاس بذلك . فلا خوف علينا من هـذا القبيل إلا بعد زمن بعيد ندبر في اثنائه وسيلة نبتعد بها عن بغداد ونكون في مأمن . . »

فتطاولت نحوه بعنقها وقالت « وكيف ذلك ؟ »

قال « قلت لك ان خراسان معى وأهلها طوع ارادتي فاذا كنت فيها لا يستطيع أخوك ولا غيره أن يناوئني ... ناهيك بأحزاب الشيعة العلوية فانهم يحاربون بين يدي الى آخر نسمة من حياتهم . . أليس كذلك ؟ »

قالت « بلى »

قال « وأنا ساع من زمن بعيد في التخلص من الوزارة وابدالها بولاية خراسان وقد وعدني اخوك بها ولو أردت الحصول عليها في الغد لاجابني

قالت العباسة « أحق ما تقول ؟ أخاف أن يكون وعده على دخل فانه لا يؤمن على وعد مثل هذا »

قال جعفر « قد وعدني وأكد الوعد والوشاة من حسادي يساعدونني على ذلك ليبعدوني عن بلاط الخليفة ويتمتعوا بالنفوذ دوني ولا أحتاج في تحقيق هذه الامنية الى أكثر من كلمة واحدة »

فابرقت اسرتها وبان البشر في وجهها وقالت « بالله الا أسرعت في تحقيقها فاني لا أرى لنا خيراً منها .. فاذا كنت أنت في خراسان سرت أنا اليك على عجل واستقدمنا ولدينا وعشنا معاً في رغد وهناء وأنا واثقة ان الرشيد لا يطمع بنا هناك لانه يخاف على ملكه »

قال « فاذاً كوني مطمئنة فان الامر لا يحتاج الى صبر طويل »

فقالت « قد شعرت منذ الآن بذهاب القلق لأني أعتقد كما قلت انهم لا يجسرون على ذكر خبر الطفلين بين يدي أخي لما يعلمونه من غيرته على العرض وأنا على يقين انه قاتل كل من عرف اطلاعه على هذا السر . . »

قال « اذاً أنت مطمئنة لهذا الرأي »

قالت « نعم . . ونعم الرأي هو . . . آه هل تتحقق هذه الامنية وابنانا معنا وتكون أنت بعلي على رؤوس الاشهاد كما اني أعتقد انك كذلك ولو كره الحاسدون أو أنكره أخي علينا ؟ » قالت ذلك وحرقت اسنانها

فقال وهو يتحفز للقيام « كم أحب أن أبقى هنا ولا أفارقك يا حبيبتي ولكن لا بد من ذهابي على عجل لاني جئت خلسة .. وإذ قد صممنا على التستر فينبغي لي أن أمضي سريعاً لئلا نجعل سبيلا الى الوشاية »

فأمسكت بيده وأقعدته وهي تقول « لا . . . لا تذهب فاني . . . » وغصت بريقها

فقال « أراك قد عدت الى المخاوف . . . لا تخافي فاننا سنجتمع قريباً باذن الله »

فقالت « لا بد من ذلك لاننا لم نرتكب اثماً وزواجنا شرعي وانما

أراد أخي أن يستبد برأيه فمنعنا مما حلله الله . ألم يكن هو الذي عقد لك علي ؟ »

قال وهو يهز رأسه استخفافاً « بلى ... ولكنه لا يرى لغيره حقاً أن يتمتع بذلك »

ونهض فنهضت هي معه فأمسك يدها للوداع ونفسه لا تطاوعه عليه فوقف هنيهة وهو ينظر اليها وهي تنظر اليه والعيون تتفاهم بما تقصر الالسنة عن مثله ثم أصلح قلنسوته بيده الاخرى ومشى وهي تطاوعه حتى وصل الى الباب فلبس نعاله وودعها وهو يضغط على يدها ويقول « امكثي مطمئنة حتى يأتيك مني رسول الخير »

فأجابته ونفسها لا تطاوعها على اطلاق يده « سر يا سيدي بحراسة المولى وفقك الله الى ما تريد »

فتراجع ونظر اليها نظر العاتب وقال « لا تقولي يا سيدي فانما أنا مولاك وأنت سيدي بمقتضى شرعهم وعرفهم . . أين أنا من أخت امير المؤمنين ؟ »

فلما قال ذلك جذبت يدها من يده ونظرت اليه شزراً وقالت بلحن الدلال والعتاب « دعنا من شرعهم وعرفهم فانك سيدي بشرع الله وعرف المنصفين »

فضحك واسرع الى يدها فامسكها وهو يقول « استودعك الله حتى نلتقي وأرجو ان يكون لقاؤنا نهائياً لا فراق بعده . . . والافضل على ما أرى أن اقتصر عن زيارتك في هذه الايام ريثما أدبر الحيلة للاجتماع في مأمن »

فقالت « يشق علي انقطاعك ولكنني أتحمله طمعاً بما ذكرت »

ثم صفقت صفقة تعودت أن تعني بها عتبة فجاءت مسرعة فقالت لها « امشي بين يدي مولاك حتى يخرج من القصر ولا يشعر به أحد »

فأشارت اشارة الطاعة ومشت بين يديه في الدهليز وقد اطفئت شموعه

وسار هو في أثرها حتى خرج من القصر وبلغ الى مكان ترك فيها جواده مع غلامه حمدان فركب وسار الى منزله

أما العباسة فلما خلت بنفسها مكثت حيناً وهي واقفة تسمع وقع خطوات جعفر حتى توارى وانقطع صوت وقعها فعادت الى هواجسها وأحست باحتياجها الى عتبة . حتى اذا عادت اليها قصت عليها بعض مادار بينها وبين جعفر واسرت اليها غرضه فوافقتها على ذلك الرأي ثم ذهبت العباسة الى فراشها

الفصل العشرون

قصر الامين

أما الفضل بن الربيع فقد تركناه عائداً بحاشيته من دار الرقيق ومعه ابو العتاهية وكان ابو العتاهية امتلأ غيظاً من عتبة وسيدتها . ولو لم تتعمد أذيته على هذه الصورة ربما قام من نفسه ما يوبخه على افشاء ذلك السر مع ما يطمع به من الكسب المالي بافشائه . إذ قد تأخذه الشفقة على الغلامين أو الحياء من العباسة أو الخوف من جعفر أو الرشيد أو ربما توقف عن الافشاء حيناً من الزمن ريثما يجد سبيلا يتقدم به الى الفضل أو غيره بالقاء ذلك السر اليه . فجاءت تلك الاساءة مسوغاً له على الافشاء وقد مهد السبيل اليه وجود ابن الربيع واطلاعه على تلك المعاملة . فلما ركب الفضل ورجاله أمر لأبي العتاهية بدابة يركبها وقد تاقت نفسه لاستطلاع سر الامر فركب ابو العتاهية وهو اكثر ميلا منه الى اطلاعه عليه

سار الركب على خيولهم رأساً الى قصر الامين فلم يكن لهم بد من المرور على جسر بغداد فبعد أن تجاوزوا شارع دار الرقيق مروا بالميدان من شماله ورأوا أهل الدولة يتوافدون لحضور لعب الكرة والصولجان فتحولوا من وراء الاصطبل في الشارع المؤدي الى الجسر وكانت الشمس

قد تكبدت السماء وتزاحمت الاقدام على ذلك الجسر وهو مصنوع من السفن متحاذية متلازة وقد شدت من جوانبها بعضاً الى بعض بامراس أو سلاسل من حديد والقيت فوقها الواح الخشب يمر فوقهـا الناس والدواب وعلم الفضل ان الجسر لا يخلو من حرس سري يراقب حركات المارين من أهل الدولة والناس يومئذ يتجسس بعضهم على بعض من كل سبيل . فقبل مغادرته دار الرقيق تلثم وتلثم بعض الخاصة من اتباعه فمروا على الجسر شمالا الى الرصافة وعرجوا من هناك نحو الجنوب الشرقي الى المخرم وجعلوا أكثر طريقهم قرب الشاطىء حتى أتوا القصر

وكان الغرض من تبكير الفضل الى دار الرقيق في ذلك الصباح التعجيل في تلك المهمة والرجوع الى الامين حوالي الضحى حتى لا يفوته الصبوح وكان الامين قد وعد نفسه بسماع غناء الجواري البيض في ذلك اليوم . والفضل وعده بذلك حرصاً على رضاه وتقرباً اليه بكل ما يسره لعلمه انه ولي العهد وهو لا يرجو لنفسه سبباً في قهر البرامكة الا به لان الامين يكره الفرس لانهم من غير العرب ويكره البرامكة على الخصوص وجعفر الوزير على الاخص لانه ساعد أخاه المأمون على ولاية العهد مع كون امه جارية وأم الامين هاشمية هي زبيدة الشهيرة

فالفضل لم يكن يرى في نفسه القدرة على سبق البرامكة في ادارة شؤون الدولة أو سياسة الاعمال وتسهيل استيفاء الخراج وارضاء الرشيد فسلم الرشيد مقاليد الدولة الى جعفر واطلق يده فيها فعمد الفضل الى الحيلة وهو ذو دهاء وصبر فرأى الامين يكره الفرس للاسباب التي قدمناها فانحاز اليه وجعل يتقرب منه بكل وسيلة يرضاها وان كانت ليس من شأنه قضاؤها حتى مسألة الجواري فقد كان الفضل في غنى عن الذهاب بنفسه الى دار الرقيق لكنه أراد ان يبرهن للامين أنه يحبه ويتفانى في خدمته على ان اشتغاله بمشاهدة أصناف الرقيق ثم ما أعاقه من أمر أبي العتاهية والقبض عليه أخراه عن الوقت المعين فوصل القصر وقد مالت الشمس عن خط الهاجرة ومع ذلك فقد رأى ان يطلع على سر أبي العتاهية قبل الدخول

على الامين - وان كان مزاجه لا يبعثه على التسرع في الاستطلاع لانه كما قدمنا من أهل المزاج الصفراوي الذي يصبرون على الامور ولا يقلقون من موعد أو يتعجلون في استطلاع سر بخلاف أهل المزاج العصبي فانك اذا وعدت أحدهم بسر تطلعه عليه أو خبر سلتقيه اليه لا يبرح في قلق واضطراب حتى يبلغ ذلك الوعد . ولذلك فاهل هذا المزاج لا يصلحون للدهاء السياسي أو الاقدام على المشروعات الشاقة المشوشة التي تفتقر الى سعي وكظم ومطاولة

فالفضل بن الربيع لم يكن يتعجل في استطلاع السر رغبة في سرعة الاطلاع ولكنه توسم من وراء ذلك سبباً يساعده على مرامه . فلما أطل على قصر الامير أمر رجاله ان يتحولوا بافراسهم الى اماكنهم حتى خلا بأبي العتاهية فترجلا في شارع عريض تظلله الاشجار الملتفة من الجانبين ينتهي بساحة كبيرة في صدرها باب القصر - وما هو باب القصر على الحقيقة وانما هو باب الحديقة والقصر في بعض جوانبها من جهة دجلة له سور خاص به . وكانت عادتهم في بناء هذه القصور أن يجعلوا اسوارها الخارجية متينة عالية اشبه باسوار الحصون وربما جعلوا في اعلى السور مرامي للنبال أو نوافذ لحجارة المجانيق لما كانوا يتوقعونه من تقلب الاحوال وانتقال السلطة من حزب الى حزب . وباب الحديقة كبير متين يقفل ويوصد حتى لا يستطاع فتحه الا بقوة الرجال . وكان الحرس لا يبرحون المكان وقوفاً والباب مقفل فاذا قدم احد فتحوه له . فاذا كان فارساً ترجل خارجاً وترك دابته وسائسها أو خادمه يراعيها أو يذهب بها الى الاسطبل بجانب ذلك السور وفيه المرابط تشد اليها الدواب وهي كثيرة وخصوصاً بباب ولي العهد والناس يومئذ يتزلفون اليه ويكثرون من التردد عليه تمهيداً لما يرجونه من نفوذ الكلمة عنده بعد ان تفضي امور الدولة اليه

فلما ترجل الفضل وأبو العتاهية تنحيا الى جانب الطريق وأخذ الفضل يستطلع الخبر وأبو العتاهية يقصه عليه والفضل مستغرب حتى شك في صدقه ولكنه ما لبث ان جاء على آخر الحديث حتى ترجحت صحته عنده ولكنه

اعظمه ولبث مطرقاً لايحير جواباً ثم نظر الى أبي العتاهية وأراد أن يغالطه فقال « احذر أن تكون قد اختلقت هذا الخبر فاني لا أصدقه وربما كنت مخدوعاً فيه لان مولاتنا العباسة من أبعد الناس عن مثل هذه الشبهة فاحذر ان تذكر ذلك لاحد لئلا تقع في شر اعمالك »

فأدرك أبو العتاهية غرض الفضل من هذه المغالطة فطاوعه وقال « اني أجل مولاتنا عن هذا ولكنني قصصت ما رأيته ولم اكن لابوح به لك لو لم يتفق ما اتفق من نجاتي على يدك ولا أدري مع ذلك اذا كانت عيناي قد خدعتاني فانهما كثيراً ماتخدعان البصير فيقع في حفرة لايقع فيها الاعمى . . . » وهز كتفيه وهو مطرق كأنه يقول « وماذا يعنيني من ذلك كله . . . »

الفصل الحادي والعشرون

جعفر بن الهادي

ولم يكن الفضل يجهل استهلاك أبي العتاهية في سبيل المال ولم يشك مطلقاً انه لم ينقل ذلك الخبر إلا وهو يتوقع جائزة كبيرة فأحب استرضاءه لعله يحتاج اليه في مثل هذه المهمة مرة أخرى فمد يده الى جيبه واستخرج صرة دفعها اليه وهو يقول « انك شاعر وقد تعود الشعراء ان لايقولوا قولا الا أجيزوا عليه وان لم يكن شعراً . . فخذ هذه الجائزة الصغيرة وستنال أضعافها من مولانا الامين فانه سيأخذه الطرب لنجاحنا في ابتياع الجواري البيض فلا يبالي من أجاز وسأخبره انك كنت لناعوناً في الحصول عليهن . . » قال ذلك وضحك ضحكة لها صوت وليس لها شكل كأنه يتضاحك وجعل يده على كتف أبي العتاهية وهو يقول « بارك الله فيك » ومشى فأحس ابو العتاهية انه يريد الذهاب وحده فودعه وقبل يده وتحول فقال له الفضل « احذر ان تمضي الى مكان يعرفه ذلك الوزير فانهم يقبضون عليك ويؤذونك والافضل ان تمكث في هذا القصر مع بعض رجالي أو اذهب

الى منزلي أقم هناك وأنت في مأمن وفي كل حال لاتبعد عني كثيراً » فطأطأ رأسه وتحول

أما الفضل فانه مشى وقد أزاح اللثام عن وجهه لانه أصبح في أمان حتى أقبل على الساحة بين يدي الحديقة فرأى الباب مفتوحاً فتحاً كاملا والحرس متشاغلون يحادثون جماعة من الغرباء عرف الفضل من تجمل حالهم انهم من أهل البصرة وأكثرهم من الخدم او السياس بعضهم يتحادثون والبعض الآخر يشتغلون بسياسة الخيول يربطونها أو يعلفونها أو يصلحون شؤونها . فما لبث أن أرسل نظره الى داخل الحديقة حتى علم انهم رجال جعفر بن موسى الهادي لانه شاهده يتمشى مع الامين في بعض جوانب البستان . أما الفضل فلم يكد يقترب من الباب حتى عرفه الحراس فتسابقوا الى خدمته والتوسع له

وجعفر بن موسى هو ابن الخليفة موسى الهادي أخي الرشيد وكان الهادي قد تولى الخلافة قبل أخيه الرشيد ولم يطل تربعه في دستها لاسباب سيأتي بيانها . وكان أبوهما المهدي قد أوصى بولاية العهد لولديه موسي الهادي وهارون الرشيد على أن يتولى الهادي أولا وبعده الرشيد . فلما توفي المهدي سنة ١٦٩ هـ خلفه الهادي فحدثته نفسه أن يخلع أخاه الرشيد ويبايع لابنه جعفر هذا ليبقى الحكم في أعقابه فأعلن فكره لخاصته فوافقوه وخلعوا الرشيد وبايعوا لجعفر . ولم يسع الرشيد الا القبول لقصر يده عن المقاومة ورجال الدولة كلهم مع الخليفة وقد سايروه الا يحيى بن خالد البرمكي فانه جاء الى الرشيد وشدد قلبه وضمن له الخلافة واحتمل الخطر على حياته رغبة في استبقاء ولاية العهد للرشيد وخلع جعفر بن الهادي منها . فغضب عليه الهادي وحبسه وهدده بالقتل ثم استطاع بتعقله ودهائه وقوة حجته من اقناعه أن يقر أخاه الرشيد في الولاية ريثما يكبر جعفر فيخلع الرشيد ويبايع لجعفر ولم تمض مدة على هذا القرار حتى مرض الهادي ومات بغتة ولم يحكم الا سنة وثلاثة أشهر . وشاع يومئذ أن أمه الخيزران عجلت موته غيظاً منه لانه احب أن يغل يديها عن التصرف في

شؤون الدولة وغيرة على اخيه الرشيد . وذهب يحيى البرمكي في الليل الى الرشيد وبشره بالخلافة واقره على سريرها . ولذلك فالرشيد حفظ له هذا الجميل واطلق يديه فى امور الدولة ولم يكن يقدم على امر عظيم الا بمشورته وجعل ولده جعفر وزيراً اباح له التصرف في كل شيء كما قد علمت

وكان جعفر بن الهادي عند وفاة ابيه غلاماً فلم يقدم على عمل ولم يسعه الا السكوت وفي نفسه من يحيى واولاده حزازات وهو يعتقد ان الرشيد اغتصب الخلافة اغتصاباً وانه تواطأ هو ويحيى والخيزران على قتل ابيه وكتم ذلك في نفسه اعواماً وكان يقيم في البصرة وقد اقطعه الرشيد ارضاً واسعة وخصص له الرواتب الكبيرة مثل سائر بني هاشم . فقد كانت السياسة تقضي في ذلك العصر بالاعتماد على الكرم في توقي الشرور فالخليفة اذا تسنم ذروة الخلافة علم ان العيون مفتحة عليه وان اكثر الناس حسداً له وغيرة منه اهله فاذا كان حكيما وسع لهم اسباب الرزق واكثر من اكرامهم وسهل عليهم وسائل الترف والقصف لعلمه انها تشغلهم عن الاهتمام بالخلافة وتضعف عزائمهم عن النهوض اذا دعوا اليها . ولذلك رأيت بني هاشم من عهد الرشيد وما يليه من اكثر الناس انغماساً في الترف والقصف لاشاغل لهم الا انتقاء المغنين والتمتع بالمأكل والمشرب في الحدائق والبساتين واقتناء الجواري على اختلاف الطبقات للغناء والتسري والخدمة . واكثر ما يكون مقامهم في قصورهم بالبصرة ولا يأتون بغداد الا لقبض مرتباتهم أو لابتياع الجواري أو بعض الآنية ونحوها لكن الغالب أن يرسل الرشيد رواتبهم اليهم وهم قعود في قصورهم

وكان جعفر بن الهادي من جملة الهاشميين أهل الرواتب . وكان مقيما في البصرة ولكنه لم يكن يشغله الترف والقصف عما في قلبه من النقمة على عمه الرشيد او على يحيى البرمكي واولاده وقد زاده تقدم جعفر البرمكي في مصالح الدولة حسداً ونقمة . وكان مع ذلك يعلل نفسه برجوع الخلافة اليه بعد وفاة الرشيد فلما رآه بايع لابنيه الامين والمأمون بعده تحقق فشله وعزم على الانتقام ولاسبيل له اليه وليس من يناصره عليه . حتى اذا

ظفر بالفضل بن الربيع تكاشفا وهما متفقان في كره جعفر البرمكي وعدم الرضا بالهيأة الحاكمة على الاجمال . فجعلا يتساندان في قلب تلك الحكومة ويتواعدان على التعاون . وكان هم ابن الهادي في الدرجة الاولى أن يسقط جعفر البرمكي من الوزارة فاذا سقط سقطت ولاية العهد عن المأمون لانه هو الذي دبرها له فلا يبقى بينه وبين الخلافة الا الامين وهو يعلم ضعفه وتهتكه فتقرب منه وعول في نيل بغيته على نفس السياسة التي اتخذها الرشيد في استبقاء الخلافة له باطلاق أسباب البذخ والترف لبني هاشم واشغالهم بالجواري والغناء عن طلبها . فلما رأى ابن الهادي ميل محمد الامين الى الترف والقصف فبدلا من أن ينصحه في العدول عنهما جعل يسهل له أسبابهما وينشطه في طلبهما ولو بعثه ذلك الى اظهار الخلاعة او التهتك في بعض الاحيان والامين غافل عن ذلك لاه عمن يحدق به من أهل الدسائس وأرباب المطامع . وكان ابن الهادي قد جاء بغداد منذ بضعة أيام ويظهر انه جاء لقبض راتبه ونزل على الامين فأخلى له قصراً خاصاً بجانب قصره يقيم فيه بحاشيته وأعوانه ويقضيان معظم النهار معاً في اللهو والقصف من الصباح الى المساء . وكان هو الذي نبه الامين الى اقتناء الجواري البيض المغنيات وحرض الفضل بن الربيع على المبادرة الى ابتياعهن منذ الفجر على أن يعود بهن قبل انقضاء وقت الصبوح فيتمتعون بالراح على رخيم أصواتهن

الفصل الثاني والعشرون

محمد الامين

فلما أبطأ الفضل قلق الامين فانصرف الى شرفة في قصره تطل على دجلة وجلس وعيناه شائعتان لعله يجد الفضل عائداً في القارب . فلما انقضى وقت الظهيرة ولم يعد مل الامين الانتظار فخرج الى الحديقة ومعه ابن عمه جعفر بن الهادي يتفرجان على ما فيها من الاقفاص الكبيرة كأنها

البيوت وفيها أصناف الطير الملون المجلوب من بلاد الهند وأواسط افريقيا والاقفاص المتينة المصنوعة من شبك الحديد الغليظ في بعضها أسود وفي الآخر فيلة أو نمور . ولما فرغا من التفرج والفضل لم يأت أمر الامين صاحب كباش المناطحة أن يأتي بها للمناطحة بين يديه ومضى الى مجلس في وسط الحديقة يظلله عريش عال وهو يهم بالدخول اليه مع ابن عمه اذ جاءه بعض الخدم ان الفضل قادم فأمر باستقدامه الى العريش وهو يظن الجواري معه

أما الفضل فدخل البستان ماشياً وقد شاهد الامين وابن عمه يتحولان الى العريش وهما بلباس المنادمة . والبستان مقسوم الى مغارس بينها طرقات مفروشة بالحصباء الملونة يتخللها أغراس من الاشجار المتنوعة ذات المناظر الجميلة ومنها المولد في بغداد والمجلوب من بلاد الهند وخراسان وتركستان وما بين ذلك من أصناف الرياحين وأزهارها البديعة الالوان وكلها في مغارسها على أحسن هندام يتعهدها البستاني بالمقراض يقلد بها أشكال الحيوانات فيجعل بعضها بشكل الطاووس أو غيره من الطيور الجميلة والبعض الآخر بشكل الحيتان أو بعض الوحوش الكاسرة كالاسد والنمر . فيمر الرجل وحواليه الاشجار والانجم والاعشاب من كل صنف ولون ورائحة وهو يحسب بعضها أسوداً رابضة أو طيوراً دارجة مما يسحر الالباب . وبين تلك المغارس أحواض يرسل اليها الماء بمجار مستترة وفيها من الاسماك أجملها لوناً وألطفها شكلا يتعهدها البستاني بفتات الخبز او بقايا الاطعمة مما يكثر في مطابخ الامراء في أيام الرغد والرخاء . ناهيك بما رسموه في طرق الحديقة من أشكال الكائنات الحية وغير الحية بترصيف الحصى على اختلاف الوانها فيصورون بذلك زهوراً بألوانها وأسوداً أو فيلة بأشكالها على نحو ما يفعلون بالفسيفساء . وكانوا يقيمون لكل من هذه الفنون صناعاً من الفرس أو الروم أو الهند ممن أتقنوا طرق الزراعة وتفننوا في أساليب الهندام

على أن روائح الازهار العطرية في ذلك البستان لم تكن شيئاً يذكر

بالنظر الى ما تضوع من أثواب ولي العهد من رائحة الاطياب ولا سيما المسك وكانت عادتهم اذا عزموا على مجلس شراب أو غناء أن يخلعوا ثوبهم الرسمي ويلبسوا ثوباً ملوناً بالحمرة أو الصفرة او الخضرة يسمونه ثوب المنادمة وهو في الغالب غلالة رقيقة وملاءة مصقولة وكان الامين يومئذ لابساً غلالة حمراء فوقها ملاءة صفراء مصقولة صقلا شديداً حتى تكاد تقوم قياماً من شدة الصقل . وجعل على رأسه بدل العمامة أو القلنسوة اكليلا من ريحان وأزهار ضفره له البستاني ضفراً جميلا حتى يشبه القلنسوة . ولبس برجليه خفين سنديين وكان رفيقه ابن الهادي في مثل ذلك ولكن ملاءته كانت خضراء وعلى رأسه طاقية حولها عمامة صغيرة من الوشي الثمين . وقد سوّى شعره على عادة شبان بغداد في ذلك العصر أي انه حدّقه على جبينه وقصره دون جبهته وسوّاه مع حاجبيه ودوّره الى أذنيه وأسدله الى صدغيه (١)

وكان الامين ورفيقه قد جلسا في العريش ينتظران قدوم صاحب الكباش والامين اكثر رغبة في مقابلة الفضل اذا كانت الجواري معه . واذا هو يسمع وقع خطواته على الحصى بقرب العريش فصاح فيه «ماوراءك يا فضل ؟ »

فأجاب وهو داخل « ماورائي الا كل خير يامولاي »

قال « وأين الجارية أو الجواري المغنيات »

قال « هن آتيات عن قريب . . . » ولما أطل الفضل على الامين ورأى لباسه وحاله ابتسم رغم ارادته فابتدره الامين قائلاً « كيف تراني بهذا الاكليل وهذه الثياب ؟ »

قال « أرى انك ملاك بصورة انسان » وكان الامين يومئذ في السابعة عشرة من عمره وقد نبت عارضاه وظهر عذاره وتجلى ماء الشبيبة في محياه وهو جميل الصورة طويل القامة ابيض اللون صغير العينين أقنى الانف سبط الشعر وقد انحسر شعره عن جانبي جبهته (٢) وكان قوي العضل حتى يلقى

(١) نفح الطيب ج ٢ (٢) ابو الفداء ج ٢

الاسد فلا يبالي به [١] وفيه بطش وشجاعةوفصاحة وأدب وبلاغة . فاذا لقيه الرجل تهيب من منظره وأحبه . ولكنه كانسيء الراي كثير التبذير أرعن [٢] جعل همه اللهو والقصف باقتناء الجواري والغلمان ولعله سيق الى الافراط في ذلك بما أراده أهل الاغراض من تضييع الملك على يده أو رغبة منهم في استرضائه التماساً لسخائه . أما ابن الهادي فكان رقيق البدن جميل الصورة قصير القامة خفيف العارضين حاد العينين وكان أكبر من الامين سناً وأحسن منه رأياً وانما سايره فى قصفه ولهوه لغرض في نفسه

ولما دخل الفضل صاح فيه الامين « عليك بثياب المنادمة واخلع هذا الثوب فان ابطاءك الى هذه الساعة لا ينبغي ان يفسد علينا ما دبرناه من أسباب السرور وان كان الصبوح قد انقضى فنقضي بقية النهار في الطرب والانس » ثم صفق فأتاه غلام تركي جميل الصورة لم يبد عذاره بعد وعليه دراعة حمراء اللون تمنطق فوقها بمنطقة عريضة من حرير موشاة بالقصب وأرسل شعره ضفيرة طويلة وراء ظهره وعلى رأسه شبه طاقية هرمية الشكل مزركشة بالقصب منحرفة الى جانب واحد في قمتها هلال من فضة أثقل رأسها فتدلى فاصبح الغلام أشبه بالبنات منه بالفتيان لفرط جماله . ولو سمعته يتكلم لثبت عندك انه فتاة لبعده عن خشونة أصوات الرجال لانه خصي . وكان في قصر الامين كثير من امثاله عني في استجلابهم من أقصى بلاد الترك والجركس وجعلهم طوائف لخدمته ولمجالس أنسه

فلما جاء الغلام وقف متأدباً فقال له الامين « من ترى في بابنا من الشعراء ؟ »

قال « الحسن بن هانىء (أبو نواس) وأبو العتاهية و ... »

فقطع الامين خطابه قائلا « ما لنا ولابي العتاهية وهو من أهل الزهد فلا ينفعنا زهده في مجلسنا هذا . وأما الحسن بن هانىء فانه ابن بجدتهاوهو شاعر ظريف » قال ذلك وضحك ثم التفت الى الغلام وقال « اصرف الشعراء الا ابن هانىء . وقل لصاحب الشراب ان يمد لنا مجلساً كاملا .. »

(١) المسعودي ج ٢ (٢) فوات الوفيات ج ٢

فقال الفضل « وأبو العتاهية لا بأس به يا مولاي فانه شاعر ظريف ولايهمك ما يقولون عن زهده »

فصاح بالغلام « وأبو العتاهية ايضاً » . فمضى الخصي لاعداد ما يلزم

الفصل الثالث والعشرون

مناطحة الكباش

اما الامين فاستبطأ صاحب الكباش فصفق فجاءه غلام آخر فصاح به « وأين صاحب الكباش فاني أحب ان يرى ابن عمي كبشين يتناطحان ليس في بغداد كلها ولا في البصرة ولا في سائر العراق مثلهما »

فقال « انهما معدان للنطاح منذ ساعة ولم يأت بهما الى هنا ضناً بما في أرض هذا العريش من الفسيفساء فان الكباش تقتلعها باظلافها في اثناء النطاح وهي لا تملك قوتها فوق الحصى فاذا شاء مولاي ان ينتقل الى موقفها وراء هذا العريش رآهما »

قال « حسناً ونهض فمشى ومشى ابن الهادي والفضل في اثره وهما يتغامزان على ما يتشاغل به ولي عهد المسلمين من الالعاب الصبيانية وقد قال كل منهما في نفسه « كيف يثبت ملك هذا ولي عهده ؟ أيستطيع من كان في حاله ان يحكم مملكة أولها في بحر الهند وآخرها على شواطيء بحر الظلمات وفيها من أصناف البشر الكثيرة وضروب الطبائع المتباينة والعادات المختلفة والعناصر المتضادة ما لم يجتمع في مملكة واحدة ؟ ناهيك بالاحزاب السياسية ومطامع أهل النفوذ » على انهما سارا وهو يتقدمهما بلباسه الملون المصقول وقلنسوته المصنوعة من الازهار والرياحين حتى وصلوا الى بقعة من البستان مستديرة وجدوا في وسطها رجلا كبير اللحية عريضها عليه قلنسوة التجار ويظهر من ملامحه انه هندي الجنس وبين يديه كبشان كبيران أبيضان وقد نقش عليهما بالالوان صوراً واشكالا وعلق في عنق كل منهما عقداً من العقيق وصبغ قرني احدهما بالخضرة وقرني الآخر بالحمرة . فلما

اقبل الامين عليه وقف الرجل وتقدم لتقبيل يده فمنعه وقال «أيهما كبشي ؟»

فأشار الرجل الى صاحب القرنين الاحمرين وقال «هذا هو يامولاي»

فقال وهو ينظر إلى الفضل « فالآخر اذاً كبشك . . فليتناطحا ومن غلب صاحبه علقنا في عنقه عقداً آخر يشتريه له صاحب الكبش المغلوب »

فلم يسع الفضل الا اظهار الامتنان من هذا الانعام وقال « ارجو ان يغلب كبش مولاي واذا غلب كبشي فانه يخجلني »

فضحك الأمين حتى كاد يستلقي وقال « وانا اطلب الى الله ان لا يغلب كبشك ليس لانه لك ولكن . . » وضحك

فلم يفهم الفضل قصده والتفت إلى ابن الهادي فرآه يبتسم فاستفهمه بعينيه فقال وهو يخفض صوته « لان اسمه برمك »

فادرك الفضل ان الأمين يتفاءل بذلك فاذا غلب الكبش « برمك » فكأنه غلب جعفر البرمكي . ولم يسم كبشه « جعفر » توقيراً لابن عمه جعفر بن الهادي . واخذ الكبشان في المناطحة وراعيهما يعلم رغبة الامين في ان يغلب كبشه فكان يبذل جهده في هذا السبيل حتى تم ما أراده الأمين وكان كبشه الغالب فضحك وسر وامر لصاحب الكباش بجائزة ثم جاءه الغلام وهو يقول « ان صاحب الأدياك قادم يامولاي فهل تأذن ان تشاهد مهارشتها ؟ »

قال « ارجعه فقد كفانا الآن ما شهدناه من مناطحة الكباش وآن لنا الدخول للعنادمة » قال ذلك ومشى نحو القصر على الحصباء في طرق الحديقة . وكان قصر الامين قائماً على شاطىء دجلة الايسر وله نوافذ ورواشن وشرفات يطل بعضها على النهر . وفي جملتها بهو كبير أشبه بمصطبة واسعة مرصفة بالرخام الملون يظللها سقف عليه نقوش ملونة مذهبة من صنع مصوري الفرس او هي صناعة ممزوجة من فنون الفرس والروم . والسقف قائم على اساطين من الرخام محلاة بالذهب ولولا سور القصر الخارجي الكبير لكان الجالس على المصطبة يرى السفن في دجلة ذاهبة جائية . على انهم جعلوا في السور باباً يمكن النزول منه الى الشاطىء على

مسناة ترسو عندها الحراقات والزلالات . وكان للامين ولع في اقتناء السفن والتفنن في اشكالها وصورها . فاصطنعوا له حراقات على صور الاسد والفيل والعقاب والحية والفرس أرسلها في مياه دجلة وقد انفق في اصطناعها مالا عظيما (١)

واما من جهة البستان فللقصر باب كبير هو بابه الاصلي يدخل منه الزوار قائم في جدار على شكل قوس مقعرة نحو نصف دائرة والباب في منتصف القوس يصعد اليه ببضع درجات . والى جانبي الباب من الخارج مقاعد من الرخام موازية للحائط في استدارته وقد نقش على أعلى الباب بالحرف الكوفي الجميل « محمد الامين بن هرون الرشيد » والقصر بجملته محاط بسور كبير عال على عاداتهم في تعلية الاسوار

وكان الامين وهو ماش في الحديقة يتناثر الخدم والخصيان بين يديه يتسارعون في نقل خبر مجيئه . فلما اقبل على القصر وقف الحجاب احتراماً له وهو لا يبالي . فصعد الدرجات ودخل الباب والفضل وجعفر في أثره فمروا في دهليز ينتهي الى باحة مستديرة في صدرها باب يستطرق الى دهليز آخر ينتهى الى دار النساء وهي قصر قائم بنفسه يستطرق من بعض قاعاته الى المصطبة التي تقدم وصفها . وفي يمين الباحة المستديرة التي ذكرناها باب يستطرق الى دهليز ينتهى ببيوت كثيرة يقيم فيها الخدم والاعوان والعبيد ونحوهم . والى يسار الباحة باب آخر يتصل منه الى دار الاضياف وهي غرف كثيرة ومطابخ وموائد كأنها بلد صغير

(١) ابن الاثير ج ٦

الفصل الرابع والعشرون

دار النساء

فلما وصل الامين الى تلك الباحة تقدم كبير الخصيان السود بين يديه فوسع له ستارة من الديباج الموشى معلقة على الباب المؤدي الى دار النساء فدخل ومشى في الدهليز ودعا الفضل وجعفر فتبعاه وخطواتهم لايسمع لها وقع لانهم سائرون على طنافس كثيفة الوبر من صنع طبرستان . فلما انتهوا من الدهليز الثاني اشرفوا على حديقة فيها الازهار والرياحين ووراءها دار النساء (الحريم) يصعد اليها بست درجات من الرخام الاحمر وعلى بابها ستارة ثمينة من الديباج سماوية اللون عليها كتابة بطراز القصب هذا نصها — وهي من شعر حاتم الطائي :

وما أنا بالساعي بفضل زمامها لتشرب ماء الحوض قبل الركائب
وما أنا بالطاوي حقيبة رحلها لابعثها خفاً وأترك صاحبي
اذا كنت رباً للقلوص فلا تدع رفيقك يمشي خلفها غير راكب
أنخها فأردفه فان حملتكما فذاك وان كان العقاب فعاقب

وهي تشير الى رغبة صاحب هـذا المنزل بالسخاء وكان الامين كثير السخاء . وكان رئيس الخصيان ماشياً بين ايديهم فلما اقبلوا على ذلك الباب تقدم ووسع الستارة بيده فدخل الامين ورفيقاه الى قاعة كبيرة أشبه شيء بقاعة الاستقبال الى كل من جانبيها باب يستطرق احدهما الى مساكن النساء والباب الآخر يؤدي الى مجالس خصوصية هي قاعات لكل قاعة منها فرش خاص بلون خاص . ولم يكن غرض الامين الذهاب اليها وانما أراد الخروج الى المصطبة وراء تلك الدار . وكان الفضل وابن الهادي حالما دخلا تلك القاعة سمعا ضرب العيدان على غير نظام كأن اصحابها يسوّونها وهم وراء الجدران ولكنهما لبثا ينتظران مايفعله الامين . والقاعة المشار اليها مفروشة بالارمني من الحرير المزركش وفي جدرانها صور بعض ملوك الفرس

والروم على افراسهم وبينها صور بعض حيوانات البر والبحر وقد صنع كثير من هذه الصور تنزيلاً بالذهب أو بالعاج على ألواح من خشب الابنوس وعلق بعضها على الجدران بمسامير من الذهب وعلى ابواب القاعة من الداخل ستائر معلقة بمسامير من الفضة ضخمة وفي ارضها بساط واحد ربما بلغت مساحته عشرين ذراعاً في عشرين وحولها مما يلي الجدران وسائد مستديرة من ريش النعام مغشاة بالابريسم الموشى . وفي زواياها مناور من الفضة توضع فيها الشموع للاضاءة في الليل

فلما وصل الأمين الى هذه القاعة وسمع طنطنة العيدان وراءها جلس على سرير من الابنوس المنزل فيه العاج كان قائماً هناك وأشار الى رفيقيه فجلسا . ثم أومأ إلى قيم الخصيان باشارة فهمها فحنى رأسه وخرج والفضل في قلق ليعلم هل وصلت قرنفلة ورفيقتاها . وابن الهادي ينظر الى الامين ويبتسم وفي نفسه أمور عظام لو تنفسها وخرجت زفيراً لاحرقت تلك القاعة بما فيها ولكنه كان كظوماً صبوراً . ثم ما عتم ان سمعوا ضرب العيدان ضرباً كثيراً على توقيع واحد ونغم واحد واذا بباب من ابواب القاعة فتح وخرج سرب من الجواري في ايديهن العيدان فمررن في القاعة عشراً عشراً يضربن على العيدان ضرباً رخيماً ويغنين بصوت واحد فاذا فرغ العشر انصرفن من الباب الآخر وجاءت عشر أخر وفي أيديهن عيدان أخر وهن يغنين غناء آخر على نغم آخر فلما انصرفن جاء عشر أخر وهكذا حتى تمت عشرة افواج . فلم يكن شيء من ذلك ليدهش الفضل ولا جعفر لانهما شاهدا مثله في دور البرامكة ودار الرشيد . وانما ادهشهما ماجاء بعد الجواري من أسراب الغلمان الخصيان وغيرهم وعليهم الألبسة الثمينة الباهرة مما لم يسبقه الى مثله احد في الاسلام على هذه الصورة . فانه كان يغالي في اقتناء الخصيان ويطلبهم من اقاصي البلاد وينفق في استجلابهم الاموال وزاد ذلك فيه بعد خلافته فصيرهم لخلوته ليله ونهاره وقوام طعامه وشرابه وسماهم الجرادية وفرض لهم فرضاً خاصاً واصطنع اجواقاً أخر من الغلمان الحبشان سماهم الغرابية وفرض لهم الاموال وانتقد عليه الناس ذلك

ونظموا فيه الاشعار [1] اما في اثناء ولاية العهد فكان لايزال في اول رغبته في هذا الطرب الدخيل

فكان الغلمان يدخلون افواجاً وشعورهم مسترسلة جدائل مفردة ومزدوجة وفي ايديهم الدفوف أو المزاهر أو العيدان يدقون ويغنون والامين يطرب لكل صوت ويقهقه ولا يطلب شراباً لانه ينوي الشرب في المصطبة

الفصل الخامس والعشرون

مجلس طرب في المصطبة

فلما مر الجميع اشار الى القيم اشارة أخرى وأشار إلى رفيقيه فنهضا وسارا بين أيديهم وقد فتح لهم القيم باباً في صدر القاعة خرجوا منه ونزلوا بضع درجات إلى دهليز في جانبيه أبواب مقفلة تستطرق إلى غرف وقاعات عديدة وفي منتهى الدهليز وصلوا إلى المصطبة وكأنهم خرجوا من الخباء الى الخلاء فوجدوا المكان على سعته قد فرش بالنمارق والطنافس وفي صدره فرش عالية فوق سرير من الآبنوس المنزل بالذهب لا يرتقي اليه الا بكرسي وبين يديه عدة كراسٍ ووسائد فوق الطنافس وحوالى الاساطين أو الجدران . وقد نصبوا في وسط المصطبة سماطاً هو بساط من جلد جميل الصنعة فوقه ملاءة من الحرير وفوق البساط مائدة كبيرة الحجم مستديرة الشكل قصيرة علوها شبر وأتوا بالأباريق البلور أو الفضة وفيها الأشربة والأنبذة وبينها الاقداح على اختلاف أشكالها وألوانها ويتخلل ذلك اطباق الفاكهة واللحوم الباردة ومزاهر الازهار ونحوها وقد فاحت رائحة المكان بالأطياب العطرية . فصعد الأمين إلى سريره وأشار إلى ابن عمه فجلس ثم التفت إلى الفضل وقال « أراك لاتزال بثيابك فاخلعها والبس ثياب المنادمة » فأشار مطيعاً . فصاح « ياغلام هات ثياب المنادمة »

(١) ابن الاثير ج ٦

فجاءوه بثوب معصفر وأصر الامين إلا أن يجعل على رأسه اكليلا من الزهر مثله فأطاع ثم صفق الأمين فدخل القيم فقال « الينا بالمغنيات . . هل اتانا من الجواري أحد جديد ؟ »

فقال « كلا يامولاي ولكن عندنا من المغنيات غير واحدة ممن ليس في بغداد أحسن منهن حتي ولا في دار أمير المؤمنين . . فهل آتي بهن ؟ »

قال « هات الوصائف بالمراوح أولا ثم اختر لنا أحسن المغنيات نتعالل بهن ريثما يأتي اولئك »

فخرج وبعد هنيهة أقبلت جارية تفتن الناظرين يظهر من ملامحها انها كرجية الأصل دخلت المصطبة نافرة كانها الغزال انفلت من شبكت الصياد عليها قميص اسكندراني شفاف يشف عن أثوابها جميعاً وفوقه قرطق مفروج أو هو القباء المفرد وقد أشرق بياضها اشراقاً باهراً وجعلت شعرها طرة أسبلتها على جبينها وتعصبت بعصابة قد نقش عليها بصفائح الذهب هذا البيت :

مالى رميت فلم تصبك سهامى ورميتنى فأصبتني يارامي

وقد أدارت صدغيها وتقوس حاجباها ولها عينان قد ملئتا سحراً وأنف كأنه قصبة در وفم كأنه جرح يقطر دماً . وبيدها مروحة عريضة من ريش النعام مغشاة بالحرير المزركش وقد طرز عليها بالذهب هذه الابيات :

بي طاب العش في الضيـ ـف وبي طاب السرور
ممسكي ينفي أذى الحـ ـر إذا اشتد الحرور
الندى والجود في وجـ ـه أمين الله نور
ملك أسلمه الشبـ ـه وأخلاه النظير [1]

وقد قبضت على المروحة بأنامل منقوشة بالحناء فيها خواتم وفي معصمها الأساور والدمالج إذا حركت يدها للترويح سمع لها شخشخة . وفي صدرها هلال من ذهب مرصع بالجوهر وقد نقش عليه هذا البيت :

أفلتُّ من حور الجنـان وخلقت فتنة من يراني

(١) العقد الفريد ج ٣

فلما دخلت افتتن جعفر والفضل برؤيتها ولكنهما تهيبا لعلمهما انها وصيفة الامين الخصوصية جاءت لتروح له . فمشت وهي تتثقل على رؤوس أصابعها وتتمايل حتى دنت من الامين فوسع لها الفضل فصعدت على دكة بجانب سرير الامين وأخذت تروح بالمروحة وفي يدها الاخرى منديل إذا تندى جبينه بالعرق مسحته له

ثم دخلت جارية أخرى يظهر من مجمل منظرها انها رومية الجنس عليها دراعة مصبوغة بلون الورد الاحمر وقد وضعت على رأسها ضفائر شعر مسدلة كأنها العناقيد تتدلى الى اسفل ظهرها . وفوق الشعر تاج مرصع وفي عنقها عقد ثمين تعلق فيه صليب من الذهب المرصع وعلى التاج بيتان من نظم الحسن بن هانىء (ابو نواس) وهما :

يا رامياً ليس يدري ما الذي فعلا عليك عقلي فان السهم قد قتلا
اجريته في مجاري الروح من بدني فالنفس في تعب والقلب قد شغلا

وتمنطقت بمنطقة شدت بزنار وعلقت المروحة بها وعلى المروحة هذا البيت :

أتهوون الحياة بلا جنون فكفوا عن ملاحظة العيون

فلما دخلت هذه الوصيفة أشار الامين اليها فوقفت بجانب ابن عمه جعفر وأخذت تروح له . ثم دخلت جارية ثالثة تختلف في شكل هندامها عن صاحبتيها وقد جعلت شعرها على شكل الطرة السكينية التي تنسب الى سكينة بنت الحسين لانها أول من اصطنعها في المدينة منذ قرن وبعض قرن ولم تشد فوقها عصابة ولكنها كتبت فوق جبينها بالغالية هذين البيتين :

يا هلالا من القصور تجلى صام طرفي لمقلتيك وصلى
لست أدري أطال ليلي أم لا كيف يدري بذاك من يتقلى

وقد لبست درعاً من القطيفة ابيض اللون كتب على جانبه الايمن بالتطريز :

كتب الطرف في فؤادي كتاباً هو بالشوق والهوى مختوم

وعلى الجانب الايسر :

كان طرفي على فؤادي بلاء ان طرفي على فؤادي مشوم

فلما دخلت علم الفضل انها ستقف بجانبه تروح له فمشت وهي تلاحظ ما يبدو من الامين فاذا هو يشير اليها ان تذهب الى الفضل فوقفت الى جانبه وأخذت تروح له

الفصل السادس والعشرون

المغنيات وابو النواس

ثم دخل جماعة من الغلمان يحملون آنية الشراب وهم في ثياب مصبغة بالوان قوس السماء على أحدهم ثوب احمر وعلى الآخر ثوب أصفر والآخر أخضر وعلى الآخر أحمر واصفر معاً أو من عدة ألوان مما يبهر النظر وكلهم في عنفوان الصبا بغاية الجمال مع نقاوة البشرة وأكثرهم لا يعرفون العربية واذا تكلموها ظهر للسامع انها ليست لغتهم لان بعضهم من الصقالبة والبعض الآخر من الكرج أو الترك أو الروم ومعظمهم حديثو الاقامة في بغداد وأكثرهم خصيان — وقد تفنن قيم الغلمان في تزيينهم كما تفننت قيمة الجواري في تزيين الوصائف اللواتي ذكرناهن . فكان على بعضهن قباء كتب على عاتقه الايمن هذا البيت :

بدر على غصن نضير شرق الترائب بالعبير

وعلى عاتقه الايسر :

خطت صفيحة خده من صفحة القمر المنير

ووقف بعض الغلمان بأباريق الشراب الابريق في يد أحدهم والكأس بيده الاخرى والكؤوس من البلور بعضها احمر اللون أو أزرق أو أخضر وبعضها من خالص الذهب وعليه نقوش كتابية أكثرها أشعار في مدح الخمر ووصفها من أمثلتها :

اشرب على منظر انيق وامزج بريق الحبيب ريقي

واحلل وشاح الكعاب رفقاً واحذر على خصرها الرقيق

وقل لمن لام في التصابي اليك خلي عن الطريق

وجلس الامين وصاحباه في انتظار المغنيات فاذا هم يسمعون ضرب العود على نغم مطرب وصوت رخيم . ثم ظهرت مغنية صفراء ليست من الجمال في شيء لانهم لم يكونوا يعلمون الجواري البيض الغناء بعد . ومشت وهي تضرب ضرباً مسكراً وتغني بصوت رخيم حتى اقبلت وفي أثرها أربع جوار يحملن العيدان يرقصن على توقيعها . فما سمع الامين الغناء حتى صاح « الي بصاحب الشراب » فجاء رجل هو رئيس السقاة فاخذ يدير أمر الساقين وأرسل بعض الغلمان الى الامين بقدح دفعه اليه فشربه وأمر للفضل وجعفر فسقاهما . فتناولا القدحين ولم يشربا وانما أظهرا الشرب مسايرة للامين . أما الجواري فجلسن على دكة من الوسائد معدة لهن في بعض جوانب المصطبة وبعد ان دارت الكؤوس وطرب الامين قال « أين الحسن ابن هانىء ... أين أبو نواس ؟ »

فقال رئيس الخصيان « هو في دار الاضياف يا مولاي »

فقال « الي به الآن »

فذهب لاستدعائه فاسترجعه الامين قائلا « احذر ان يدخل علي بغير ثياب المنادمة »

فاشار مطيعاً باحناء الرأس وخرج وما عتم ان عاد وهو يقول « ان أبا نواس في الباب »

فقال وقد أخذته هزة الطرب « يدخل »

فدخل ابو نواس وكان جميل الصورة ومع انه جاوز الاربعين من عمره فكان الجمال لا يزال ظاهراً في محياه . وغلبت عليه ملامح الاهوازيين لان أمه منهم وأرخى لحيته وكانت خفيفة وقد وخطها الشيب قليلا . وكان أزرق العينين تتجلى فيهما الدعابة والذكاء معاً . وعلى رأسه بدل القلنسوة أو العمامة قبعة (طاقية) حمراء اللون وقد تزمل بثوب من ثياب المنادمة شديد الصفرة يكاد يتقيأ الزعفران . فلما أقبل صاح الامين به « أهلا بشاعرنا ان هذا المجلس لا يحلو بلا شاعر .. والشعراء زينة مجالس الغناء »

فانحنى أبو نواس ووقف فأشار اليه ان يجلس بجانب الجواري المغنيات وأشار الى بعض الغلمان فقدم له وسادة جلس عليها . فتذكر الفضل أبا العتاهية وان هذا وقته وكان قد اسر اليه أمراً لما فارقه وخاف أن يكون قد نسيه فأخذ يفكر فيه وهو يتشاغل بما يراه ويسمعه من أسباب اللهو ويظهر التهيب في مجلس ولي العهد وفي نفسه امور دفعه اليها جاره جعفر بن الهادي واغتنم جعفر اشتغال الامين بسماع الغناء وسأل الفضل عن الجواري اللواتي ابتاعهن ومتى يصلن فأجابه بضم أنامله جميعاً وهي اشارة الاستمهال كأنه يقول انهن يصلن قريباً . ثم التفت الى أبي نواس وقال له « ألا تلقي من اقوالك شيئاً يغنينه فيطرب ولي العهد ؟ »

فلما سمع الامين قوله قال وقد لعبت الخمر في رأسه « لا لا يقول شيئاً قبل ان يشرب رطلا » وأشار الى الساقي فملأ رطلا ودفعه الى أبي نواس فتناوله وشربه دفعة واحدة وارجعه الى الساقي وأشار برأسه ان « هات ايضاً »

الفصل السابع والعشرون

الطرب بالطعن

فاعجب الامين برغبته في الشرب وضحك حتى استلقى وفي يده تفاحة يأكلها وقال له وفي فمه قطعة منها « اطربنا يا ابن الاهوازية »

فأجابه والمجون ظاهر في سحنته « أيريد مولاي أن أطربه بالمدح أو الطعن »

فابتدره الفضل بن الربيع قائلا « ألا تكف عن مزاحك ؟ كيف يسأل الامير هذا السؤال ؟ وهل يطرب أحد بالطعن ؟ وهو انما سألك ان تلقي على هؤلاء القيان ابياتاً يطرب لها مولانا »

فنظر أبو نواس الى الفضل شزراً وهو يظهر المجون ايضاً وقال « وما ادراك ماذا يطرب الامير أتريد أن تحترف صناعة المنادمة فضلا عن

الوزارة . . ؟ اني أخاطب سيدي وهو يفهم مرادي »

فاستغرب الفضل جسارته وأراد ان يجيبه فسمع الامين يقول « لقد فهمت مراده » ثم التفت الى أبي نواس وقال «أطربنا بالطعن ليرى الفضل ان الطعن قد يطرب مالا يطربه المدح .... ألق على الجارية بيتاً او بيتين من هذا القبيل »

فاصغى الحضور وقد ظهر الاستغراب في وجوههم وحامت أبصارهم حول أبي نواس فاذا هو قد أدنى رأسه من الجارية التي بيدها العود وأسر اليها ابياتاً فسوت العود والكل سكوت حتى الامين ثم أخذت تغني :

عجبت لهارون الامام وما الذى يود ويرجو فيك ياخلقة السلق (١)
أرى جعفراً يزداد بخلاً ودقة اذا زاده الرحمن في سعة الرزق
ولو جاء غير البخل من عند جعفر لما وضعوه الناس الا على حمق (٢)

وكانت الجارية تغني وتجيد في غنائها والامين يهتف طرباً عند كل مقطع . وتفطن الفضل لسر ذلك منذ بدأت الجارية في غناء البيت الاول فادرك ان أبا نواس يعرض بجعفر بن يحيى البرمكي عدوه فكان طربه اكثر من طرب الامين . وكان اطربهما جميعاً جعفر بن الهادي فلم يتمالك ان صاح في أبي نواس « لله درك ولا فض فوك » وكان في يده عقد من الجوهر يلاعبه بين انامله هم أن يرميه اليه فتذكر أنه في حضرة ولي العهد ولا يستحسن ان يسبقه الى اجازة الشاعر فالتفت الى الامين واستأذنه بالاشارة فاذن له فرمى بالعقد الى أبي نواس فوقع في حجره فتناوله ونظر الى الامين كانه يستشيره في امره فضحك الامين وقال « أراك تبحث عن مكان تضع فيه هذا العقد.. ضعه هنا وأشار الى الجارية الواقفة على رأس الفضل وقال « وهي لك ايضاً . . ولكن بعد انقضاء هذا المجلس واذا زدتنا زدناك »

فوقف ابو النواس ليشكر ذلك الصنيع فأومأ اليه الامين ان يجلس ويعود الى ما كان فيه واشار الى الساقي فأدار الاقداح وهو يبدل الوان الانبذة من نبيذ التفاح الى نبيذ التمر فنبيذ العنب وهي تتلألأ في الاقداح

(١) الذئب (٢) ديوان ابي نواس ١٧٣

بين الصفرة والحمرة والشهبة والصهبة . وأشار الامين الى صاحب الشراب اشارة فهم مراده منها فأمر احد الخصيان ان يقدم القدح الى أبي نواس بيده وكان الغلام جميلاً عبلاً جعد الشعر وقد صففه على جبينه بشكل بديع فاخذت ابا نواس سورة الخمر فنظر الى الغلام ثم الى الامين فابتدره الامين قائلا «صفه وهو لك» فتناول أبو نواس القدح من يده وقال :

يسعى بها خنث في خلقه دمث يستأثر العين في مستدرج الرأي
قد كسر الشعر واوات ونضده فوق الجبين ورد الصدغ بالفاء
عيناه تنفث داء في محاجره وربما نفعت في صولة الداء
اني لاشرب من عينيه صافية صرفاً وأشرب اخرى مع ندماني

فلما سمع الامين شعره صاح فيه «ويلك كفى . هو لك»

اما الفضل فلما رأى الخمر دارت في رأس الامين أراد ان يغتنم الفرصة فقال له « هل نسي مولاي القيان البيض ؟ »

فقال « ويحك وكيف أنساهن هل اتين ؟ » ونظر الى قيم الدار مستفهماً فقال « نعم يامولاي قد جئن منذ ساعة »

فقال «الي بهن الساعة»

فخرج وماعتم ان عاد مهرولاً مذعوراً وفي أثره رجل قصير قد اكتسى جلد قرد وعلى رأسه قبعة هرمية الشكل في قمتها جلاجل وهو يقهقه قهقهة القردة ووثب حتى توسط المصطبة وأخذ في الرقص فقهقه الامين وأغرق في الضحك حتى استلقى على ظهره ولم يبق أحد لم يضحك وعلا الضجيج فقال الامين « أليس هذا أبا الحسين الخليع ؟ »

فانتبه القيم وقال « بلى يامولاي هو بعينه قبحه الله انه ذهب بعقلي »

فقال الامين « دعه وامض الى الجواري »

فعاد وتشاغل الحضور بالضحك ريثما عاد الرجل بالمغنية قرنفلة وبيدها العود تضرب عليه ضرباً رخيما وقد تكحلت وتبرجت وأرخت شعرها على كتفيها . ودخلت الجاريتان الاخريان في اثرها وبيد كل منهما عود فوقفت بين يدي الامين وهي تضرب على عودها نغماً لم يسمع مثله من قبل فأومأ

اليها الامين فجلست وأخذت تغني هذين البيتين :

لم تلده امـة تعـ رف في السوق اتجارا
لا ولا حد ولا خا ن ولا في الخزي جارا

وكان الفضل في أثنـاء ذلك يراقب حركات الامين فاذا هو يرفس الارض برجليه طرباً ويصيح « صدقت صدقت قبحك الله »

ولم يستغرب الفضل ذلك بل كان يتوقعه منه لانه هو الذي أوعز الى أبي العتاهية يعلمها هذين البيتين لاثارة حقد الامين على اخيه المامون لما فيهما من التعريض به اشارة الى ان الرشيد حده في جارية وجده معها (١)

الفصل الثامن والعشرون

اسماعيل بن يحيى

وعلا ضجيج الضحك وتعالت الضوضاء وكانت الشمس قد مالت الى الاصيل فقطع ضجيجهم نباح كلاب كان الامين قد جعلها على شاطىء دجلة وراء تلك المصطبة اذا رأت غريباً نبحت نباحاً شديداً. فلما سمعوا نباحها أمر الامين بعض غلمانه أن يستطلع السبب فخرج من باب سري يستطرق الى الشاطىء ثم عاد مسرعا وهو يقول « أرى سفينة تدنو من الشاطىء أظنها حراقة اسماعيل بن يحيى الهاشمي »

فلما سمعوا ذلك الاسم اسقط في ايديهم واقشعرت ابدانهم كانك صببت عليهم ماء حاراً ولاسيما جعفر بن الهـادي فامتقع لونه وظهرت البغتة على وجهه وأشار الامين الى المغنيات فسكتن وتحولت تلك الضوضاء الى دهشة واستولى السكوت على ذلك الجمع هنيهة سمعوا في اثنائها ربان السفينة ينادي بحارته ان يحلوا الشراع ويتقدموا نحو الشاطىء . فوجم الامين وتجلد وقد ذهب سكره وتذكر حاله فنزع الاكليل عن رأسه كأنه يريد ان يخفي مجونه وتهتكه واقتدى به غيره ولكن انى لهم ان يخفوا مجونهم والاقداح

(١) الفخري ١٩٣

متناثرة بين ايديهم والاباريق مملوءة والمائدة منصوبة وعليهم ثياب المنادمة وما يتبعها من أسباب الخلاعة واللهو

على ان الامين تجلد ونهض من مجلسه وصاح بغلامه أن يسأل أهل الحراقة عن صاحبهـا فعاد وهو يقول « ان اسماعيل بن يحي يستأذن بالدخول »

فقال « يدخل . . أهلا به ومرحباً . . »

ولحظ الحضور رغبة الامين في اخفاء تهتكهم فأخرجوا الخليع وأمروا الجواري بالسكوت وجلسوا ينتظرون وصول اسماعيل وكان على رؤوسهم الطير . وماعتم ان رجع الغـلام وفي أثره شيخ جليل المنظر وسيم الطلعة طويل القامة عليه جبة سوداء وعلى رأسه قلنسوة طويلة حولها عمامة من خز وهو لباس العباسيين الرسمي

وكان اسماعيل بن يحي من جلة بني هاشم رهط الخليفة . وكان من أهل التعقل والحزم وزادته الشيخوخة وقاراً وهو عالي الجبـين عريض المنكبين مسترسل اللحية وقد اشتعل رأسه شيباً ولم يتعاط الخضاب ترفعاً عن بهارج الدنيا لانه كان حكيما نير البصيرة يرى الامور كما هي ويقدر الناس بحسب مناقبهم ومواهبهم لابحسب انسابهم وظواهرهم . فمع كونه هاشمياً من أعمام الخليفة لم يكن يرى في النسب الهاشمي فضلا على سواه الا اذا قرن بالتقوى والصالحات . وكان مطلعاً على دخائل الدولة عالماً بما تنطوى عليه شؤون اهلها . ولم يكن يحب الرشيد لانه هاشمي ولا يكره جعفر البرمكي لانه فارسي وانما كان ينظر الى الامور من حيث هي. وغرضه الاول سلامة الدولة العباسية من العالل وخلوصها من أسباب الفشل ولايهمه على يد من تكون سلامتها

فكان ينظر الى مايجري من الدسائس بين الرشيد ووزيره أو بين الامين واخيه أو بين غيرهما من الاحزاب المتناقضة نظر الحـكيم الناقد يشرف على أهواء الناس من سماء تعقله وفلسفته ويسعى جهده في تلافي ما يخشى وقوعه من مفاسد ذوي المطامع الدنيوية وأرباب الاهواء النفسانيـة . فلم

يكن يهمه ان تفضي الخلافة اليه بقدر ما يهمه صلاحها وتوطد دعائمها وطول بقائها وكان اعلم الناس بمواضع الضعف من الرشيد ووزيره وبمواضع القوة منهما وله الدالة على كليهما والكلمة النافذة عندهما ولاسيما الرشيد فقد كان يجله ويحترمه ويعظم شأنه لما تحققه من كبر نفسه ونزاهته وسلامة نيته فضلا عن ذكائه وسداد رأيه . وطبيعي في من كان هـذا شأنه ان يهابه الناس ويحترموه حتى الملوك فانهم مهما بلغ من صلفهم وكبريائهم لا يحتقرون رجلا لا يجتمعون به الا لنصيحة يتحققون بالاختبار انها صادرة عن محض الاخلاص . ولا يتباحثون معه الا آنسوا منه تعقلا فوق تعقلهم . فكيف اذا اضيف الى ذلك شرف النسب وعلو الهمة والشيخوخة . فلا غرو اذا نال اسماعيل هـذه المنزلة عند الرشيد أو رجال دولته لاشتهاره بالغيرة على سلامة الدولة والتفاني في سبيل مصالحها . على انه لم يكن يقدم على نصيحة او مشورة الا اذا رأى النصح نافذاً ولا يقول الا صريحاً . فاذا افتقر الى تلون أو رياء تباعد وتحاشى ولذلك لم يكن يعجبه الامين ولا يرى نصحه نافعاً فكان يبتعد عنه ويحاذر أن يحضر مجلسه

الفصل التاسع والعشرون

الدهشة

أما مجيئه في ذلك اليوم فسببه انه كان رقيباً على ابن الهادي من عند نفسه لعلمه بما يكنه من الحقد على الرشيد والبرامكة وبلغه أنه يجالس الامين ويعاشره فلم يعجبه ذلك منه . وكان اسماعيل وجعفر يقيمان في البصرة مثل أكثر بني هاشم المتقاعدين الذين يعيشون برواتب الخليفة وهباته من الاموال والضياع فينغمسون بالترف والقصف ويقضون أيامهم بين مجالس الانس والغناء والخلفاء يسهلون لهم هـذه الاسباب ليضعفوا عزائمهم عن النهوض لمنازعتهم على الخلافة ويشغلوهم عن الدسائس السياسية بالجواري والقيان ومعاطاة الكاس والطاس

أما اسماعيل بن يحيى فقد كان عفيفاً حازماً يكره ما يراه من ترف هؤلاء وقصفهم وعلم ان النصح لا ينفعهم فكف عن نصحهم الا جعفر بن الهادي فانه كفله من صغره منذ مات أبوه فشب جعفر لا يشرب مسكراً ولا يميل الى اللهو وانما كان يعاشر الامين ويغريه على زيادة الترف واللهو لغرض في نفسه لم يكن يخفى على اسماعيل . وكان يخاف بقاءه على عزمه لانه لا يرى فيه صلاحاً للدولة بل هو يخاف عليها منه . وكثيراً ما نصحه في الرجوع عن ذلك وهو يعده ويخلف . وعلم منذ أيام وهما في البصرة ان جعفر أتى بغداد فظنه جاءها لترويح النفس أو لقضاء بعض المصالح أو ليقبض عطاءه فلما أبطأ خاف عاقبة ابطائه فلحق به وهو يظهر انه آت لغرض له . فلما وصل بغداد واستطلع اخباره علم انه نازل في قصر الامين لا يخرج منه . فلم ير بداً من مقابلته هناك وكانت له سفينة في دجلة اذا جاء بغداد ركب فيها فامتطاها في ذلك اليوم وقصد قصر الامين فوجده على تلك الحال

فلما دخل اسماعيل على مجلس الامين تهيب كل من كان فيه حتى الامين مع سكره وتهتكه فتجلد ووقف لملاقاة ذلك الشيخ الجليل ولم يكن يحلم ان يراه على هذه الصورة وأما جعفر فوقف منزوياً وقد ارتج عليه . ولم يبق ثابت الجأش متجلداً الا الفضل بن الربيع لما ذكرناه من طبيعة مزاجه فضلا عن دهائه . فانه تقدم الى اسماعيل وتبسم له ورحب به وأظهر رغبته في تقبيل يده وهو يقول « مرحباً بمولاي » وقدم له كرسياً وكان الامين قد نزل عن سريره ورحب به أيضاً

فنظر الشيخ الى ما حوله من الجواري والغلمان والعيدان والابارق والاقداح وغير ذلك من اسباب الانس والطرب فعلم انه اذا جلس معهم نغص عليهم نهارهم فتظاهر انه لم يكن يقصد الزيارة في تلك الساعة ولكنه توهم انه سمع صوت جعفر هناك . قال ذلك وهو يتجاهل أنه رآه

فظهر الوجل على وجه جعفر وأقبل متأدباً وهو يتجلد وعلم ان اسماعيل لا يروق له الجلوس هناك فقال « قد كنت عازماً على الخروج من الصباح فامسكني ولي العهد في هذا المجلس ليسمعني غناء الجواري البيض

وألبسني ثياب الندامة . فاذا أحب سيدي ان انطلق في خدمته فعلت »

فاظهر اسماعيل انه مسرور بلقياه وقال « لا بأس يا ولدي فاني مشتاق الى رؤيتك فاذا أحببت الانصراف انزل معي الى السفينة ودع القوم في مجلسهم فان مقامي لا ينفعهم » قال ذلك وتحول ومشى فاستأذن جعفر في تبديل ثيابه ثم يلحق به الى السفينة

خرج اسماعيل وأهل المجلس سكوت تهيباً وقد سر الأمين بذهابه . أما جعفر فأسرع الى غرفته فلبس قلنسوته وسواده ونزل الى السفينة فوجد اسماعيل يتمشى على ظهرها وقد ارسل قلنسوته الى الوراء وظهر الاهتمام في جبينه وعينيه . فلما اقبل عليه ترامى على يديه ليقبلهما فجذبهما منه وقال « ما هذا المجلس يا جعفر ؟ أمثلك يفعل ذلك ؟ »

فتراجع واطرق ولم يجب وامر اسماعيل ربان السفينة أن يمضي بهم الى مرسى بعيد عن القصر وأمسك جعفر بيده وسار به الى مقعد في مؤخر السفينة يشرف على الماء وأجلسه الى جانبه ولما جلسا قال اسماعيل « لم يكن عهدي بك مجالسة هذا الغلام في مثل هذا المجلس فهل طاب لك اللهو والتهتك ؟ »

قال « هل ترى في أثر الشرب ؟ اني والله لم أذق الخمر . . »

« قال لا أقول أنك تسكر ولكنني أعهد فيك التعقل والرزانة وكنت أحسبك اذا لقيت الامين في مثل هذه الحال انبته ووبخته لا أن تجلس معه وتسايره . . »

الفصل الثلاثون

مقتل الهادى

فتنهد جعفر وحول بصره الى مقدم السفينة يتشاغل بما يراه من سير النوتية قاع النهر بالعمد ليسيروا بالسفينة الى مأمن . فلما رأى اسماعيل سكوته ومشاغله أدرك ما يضمره وقال « يخيل لي انك لا تزال على سوء نيتك في هؤلاء وكانك لا تزال طامعاً . . . »

فلم يتمالك جعفر عن قطع الحديث قائلا « لا تقل طامعاً يا سيدي فاني غير طامع وانما أنا أطلب حقي . . »

قال « وأي حق تعني ؟ »

قال « أعني . . » وخفض صوته وهو يلتفت مخافة أن يسمعه أحد ثم قال « أعني أن هؤلاء الموالي سلبوني حقي بعد ما قتلوا والدي وأخرجوا الخلافة من يدي وأنت أعلم اني أولى الناس بها . . »

فتظاهر اسماعيل بالاستخفاف وقال « لا أجادلك فيما تدعيه من الحق ولكنني لا أرى علاقة بين ما تطلبه وما تفعله .. ما هي العلاقة بين طلبك الخلافة وجلوسك هذا المجلس وقد طالما دافعتني بمثل هذا المقال فاخبرني ما هو حقك وممن تطلبه ؟ »

فقال جعفر وقد تجلى الغضب بين حاجبيه « أتسمح لي أن أصرح بما في نفسي اني أتهيب من ذلك بين يديك »

قال « قل ... لا تخف فاني اذا رأيت طلبك صواباً اعنتك عليه والا فاني أنصحك واكتم أمرك »

قال « أنت تعرف والدي الهادي رحمه الله وتعلم أنه تولى الخلافة بوصية جدى المهدي وان والدي أوصى لي الخلافة بعده »

قال « أظنك تطمع بتنفيذ وصيته وانت تعلم انه ارتكب بهذه الوصية شططاً لان المهدي رحمه الله انما أوصى بالخلافة لابيك ثم لعمك الرشيد بعده فلما تم له الامر أراد اخراج الخلافة من الرشيد ومبايعتك بها فهل تعد هذا حقاً ؟ »

قال « لا انكر عليك انه خرج بذلك عن وصية المهدي ولكنهم راجعوه فرجع وأعاد البيعة الى الرشيد على ان تكون لي الخلافة بعده — ألا تذكر ذلك ؟ »

قال « بلى اذكره »

قال « فما بالهم فتكوا على أثر ذلك بوالدى وقتلوه ولم يجلس على عرش الخلافة الا سنة وبعض السنة ؟ »

فقال وهو يظهر الاستغراب « قتلوه ؟ ومن قتله ؟ لا أعلم أنه مات مقتولا وانما توفي من مرض ولو زعمت ان امه الخيزران ساعدت على قتله لرأيت مسوغاً لهذا الزعم واما غيره فلا . . »

فتضاحك جعفر وقال « لا يبعد أن تكون الخيزران ارتكبت هذا الجرم كما يقولون لان والدي اغضبها بكف يدها عن التداخل في شؤون الدولة ولكنها فعلت ذلك مدفوعة باغراء ذلك الفارسي . . . » قال ذلك وحرق اسنانه

فقال اسماعيل « أظنك تعني يحيى بن خالد »

قال « إياه اعني نعم إياه اعني والدليل على ذلك انه هو الذى وقف في سبيل والدي وعارضه في أمر البيعة وكان الرشيد قد اذعن للخلع ورضي بتحويل البيعة الي ولكن يحيى هذا حرض الرشيد على رفض هذه البيعة وما زال حتى وافقه والدي أن يرجع البيعة اليه على ان اكون انا الخليفة بعده . فلما وافقه على ذلك اسرع الى الغدر به ولم تمض ليال قليلة حتى قيل ان الهادي مات وزعموا ان جدتي الخيزران قتلته ولكنني اعتقد انها اذا كانت قد فعلت ذلك فانما فعلته باغرائه . ألا تذكر انه كان اول العارفين بالوفاة فهرول ليلا الى الرشيد وبشره بذلك ؟ . وقد عرف الرشيد فضله والقى مقاليد الحكومة اليه كما تعلم . ثم افضت الامور الى ابنه جعفر الوزير الحالي وهو في ما تعلمه من نفوذ الكلمة حتى يصح أن يقال أنه هو الخليفة وليس الرشيد »

الفصل الحادى والثلاثون

البرامكة والدولة

وكان جعفر يتكلم والعرق يتصبب عن جبينه واسماعيل مصغ الى قوله وربما كان رأيه في هذا الامر مثل رأيه ولكنه لم يكن يرى أن يشجعه عليه لاعتقاده مخالفة ذلك لمصلحة الدولة مخافة أن يؤول الانقسام الى فسادها فعمد

الى المدافعة فقال « أراك سيء الظن بالبرامكة كأنك تجاري أعداءهم في الطعن باعمالهم وأنت تعلم ان للبرامكة فضلا على هذه الدولة لا يضارعه فضل . وأنا هاشمي كما تعلم والخليفة من لحمي ودمي يسوءني ما يسوءه ويسرني ما يسره ولكنني أراكم ظلمتم هؤلاء الموالي ونسيتم آثارهم في تنظيم هذه الدولة من عهد جدهم خالد ـ ألم يكن خالد من اكبر اعوان أبي مسلم في نقل هذه الدولة من الامويين الينا ـ فلما قتل أبو جعفر المنصور أبا مسلم وثار الفرس والاكراد عليه كادت تخرج الدولة من يديه لو لم ينجده خالد ويضمن له التغلب عليهم بالرأي دون الجنود . ناهيك بما كان من تدبير شؤون الحكومة وتنظيم دواوينها على يده ويد ابنه يحيى وحفيديه الفضل وجعفر ـ ان البرامكة ياولدي هم جمال هذه الدولة وقوام ابهتها . وهذه بغداد كيف اتلفت رأيت آثار تدبيرهم في معاهدها . فقد أقاموا فيها المكاتب والحلقات ومنازل الجند وماوى المرضى ومجالس القضاة وغرف الشرطة . وان ما تراه من رواج العلم والفلسفة وتهافت أهل الذمة وغيرهم على ترجمة كتب اليونان والفرس انما اصله ترغيب البرامكة فيه بالبذل والعطاء أليس يحيى بن خالد أول من عنى بنقل المجسطي من اليونانية الى العربية ؟ وهل تنكر أنه هو الذي سعى في جمع الكتب من الهند وغيرها . . ؟ أليس البرامكة هم الذين استقدموا اطباء الهند لترويج صناعة الطب . ان هؤلاء الاطباء بين ظهرانينا الآن وخصوصاً منكة الهندي الذي أشار يحيى على الرشيد باستقدامه لما اشتدت وطأة المرض عليه حتى كدنا نيأس من حياته فعالجه وشفاه . أليس هم الذين رغبوا الرشيد في انشاء المارستان وولوا عليه طبيباً هندياً من هؤلاء وأنشأوا مارستاناً لانفسهم وولوا ادارته الطبيب الهندي ابن دهن ؟. وهل خفي عليك ما للفضل بن يحيى من الاثر الجميل في استخدام الكاغد فاني لن أنسى تضايق اصحاب الدواوين من استعمال الجلود والرقوق للدفاتر والاروج والسجلات حتى أشار الفضل المذكور بالكاغد فانشأنا له المعامل في بغداد كما ترى . وأراني لو أردت تعداد مآثر هؤلاء البرامكة لتعبت قبل الاتيان على آخرها وأنت تعلم عصبيتي في هاشم وغيرتي على هذه الدولة

ورغبتي في سلامتها (قال ذلك وتنهد) فلا يعقل أن أقول ذلك عن تهوس أو غرض وانما أقول الحق الصراح فلا يغرنك ما تراه من نقمة ابن الربيع وأمثاله عليهم وطعنهم فيهم فانهم يفعلون ذلك حسداً لتقصيرهم عن مجاراتهم »

وكان جعفر في اثناء تلك الخطبة مطرقاً ينظر في حركة الماء الملامس لجدران السفينة وهي سائرة الهويناء وكأنه استغرق في هواجسه فلم يفهم كل ما سمعه . فلما فرغ اسماعيل من كلامه انتبه جعفر وقد ضاقت نفسه من سماع الاطراء بالبرامكة وهو يكرههم كرهاً شديداً . ولا يرى سبيلا لدفع أدلة اسماعيل فلم ير خيراً من استئناف الكلام عنهم فقال « هب انهم ملائكة نزلوا من عليين ألم يقتلوا والدي ويخرجوا الحكم من يدي ؟ »

قال « ان دعواك منقوضة أو هي غير ثابتة على الاقل إذ لم يقل احد ان يحيي بن خالد قتل والدك أو سعى في قتله لاخراج الامر من يدك »

قال « أما انه قتله فلا ريب عندي فيه وان خفي على الاكثرين . وأما انه فعل ذلك لاخراج الحكم من يدي يدلك عليه انه بعد ان وافقه والدي على ان يبايع الرشيد قبلي عجل قتله قبل تمكين البيعة لي . ولما تم الامر للرشيد فبدلا من ان يبايع لي بايع لابنه هذا المتهتك وأظنه كان عازما ان يجعل الخلافة لي بعد الامين فاغراه وزيره البرمكي على مبايعة ابنه الآخر المأمون فاصبحت صفر اليدين ووالله لو .. . » وتململ

فابتسم اسماعيل وقطع كلامه قائلا « اني لأعجب من تباين اعمالك وتناقض اقوالك كيف تكون ناقماً على هذا الغلام ومجالسه في مجلس المدام ومعاشره في احوال الغرام ؟ ثم اني لا أفهم معنى هذه النقمة ولا كيف يمكن لك نيل بغيتك وهذا الرشيد على كرسي الخلافة وحوله الجند والاعوان وبنو هاشم ينصرونه ويؤيدونه وقد بايع بالخلافة لولديه الواحد بعد الآخر وهم سيتولون الخلافة بعده فلا أرى لنقمتك محلا ولا الى غرضك سبيلا فاقلع عما يجول في خاطرك من الافكار الصبيانية وأنت تعلم غضب الرشيد اذا اطلع على شيء مما في نفسك فان لحمك يتناثر نتفاً بين السماء والارض . ولكني كتمت أمرك واكتمه لأني أرجو صلاحك ورجوعك وأما اذا

تحققت بقاءك على عزمك فحرصي على سلامة الدولة يبعثني على التفريط بك . . . الا اذا رأيت في اعمالك سداداً ـ فاخبرني كيف ترجو الوصول الى الخلافة ؟ »

وكان لتهديد اسماعيل وقع شديد على جعفر وهو يحترمه ويخافه فضاقت نفسه وانحبست عواطفه وكاد يختنق لو لم ينفرج بدمعتين تعلقتا بين المآقي واطرق خجلا من ظهورهما وظهرت الحيرة في وجهه لكنه لم يتمالك عن الجواب فقال « أراك مستخفاً بي وبأعمالي وتحسب اني اخبط في اقوالي فاعلم يا عماه اني لا أجهل قصر باعي عن مناوأة الرشيد وهو في جنده واعوانه ولا أنا طامع في ذلك وانما أطمع بنيل الخلافة بعده وهذا هين اذا سقط وزيره البرمكي ـ اسمع كلامي الى آخره ـ ان الرشيد متى مات فالخلافة تفضي أولا الى الامين هذا وهو لا يصلح لها ولا أراه يزداد الا انغماساً في القصف والترف واللهو ولا أظن أهل الدولة الاخالعيه فيبقى أخوه المأمون وهو والحق يقال ذو عقل وحزم ولكنني لا أرى احداً من الهاشميين يحبه لانه ينتمي الى اخواله الفرس . ولا أظنك تجهل ان جعفر البرمكي هذا هو الذي سعى في مبايعته بالخلافة لغرض في نفسه لا يقل عن اخراج الدولة من أيدينا ـ ارجو الاصغاء الى آخر كلامي ـ فالعقبة الوحيدة في سبيل استرجاع حقي في الخلافة وجود هذا الفارسي وهو يستحق القتل اذا لم يكن انتقاماً عن فعل أبيه بأبي فلانه استأثر باموال المملكة لنفسه ولاهله وانت ترى ان دخلهم من ضياعهم ربما ضارع دخل بيت المال فقد اخبرني سهل بن هرون وهو اعلم الناس بذلك ان مبلغ جباية هؤلاء الموالى عشرون الف الف دينار [1] في السنة من ضياعهم ومرافقهم ولا يخفى عليك يا عماه ان مجموع جباية المملكة من أقصى الشرق الى أقصى الغرب لا يزيد عن هذا القدر كثيراً . فقد علمت من صاحب بيت المال ان مجموع جباية الدولة نحو ٤٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠ درهم [2] أو ٢٧ ٠٠٠ ٠٠٠ دينار ونحن الهاشميين نستقطر رواتبنا بالالف والعشرة آلاف كانتا نستعطى ـ

(١) العقد الفريد ٢٢ ج ٣ (٢) تاريخ التمدن الاسلامي ٥٤ ج ٢

ناهيك باسباب الابهة التي استأثروا بها حتى لقد ترى الخيول الواقفة بباب جعفر هذا اضعاف ما يقف بباب الرشيد . فما ادرانا ما يكون من عاقبة هذا الاستئثار اذا مات الرشيد وتولى الامين وهو لاه كما تراه ألا تذهب الدولة من أيدينا ؟ . أما المأمون فاني اعترف بحزمه ولكنني لا أراه غيوراً على استبقاء الخلافة في أهل بيته ولعل ذلك من اتصال نسبه بالفرس من أمه ولانصياعه الى مشورة مربيه جعفر . . »

الفصل الثانى والثلاثون

العالية بنت الرشيد

فاعجب اسماعيل بتدابير جعفر ولعله رأى قوله صواباً ولكنه لم يكن يعتقد حسن عائدة ذلك على الدولة فاخذ يدافعه فقال « أما ثروة البرامكة فلا أنكر عليك ضخامتها ولكن ما يدخل من ريعها انما ينفقه البرامكة على الناس بالسخاء أو الاحسان أو الرواتب فمن منا لا يستولى على راتب أو هدية من جعفر أو غيره ؟. وقد علمت عن ثقة من صاحب بيت مالهم ان ١٢ ٠٠٠ ٠٠٠ دينار من هذه الجباية أي أكثر من نصفها يجعل بدراً عليها صكوك مختومة وعلى كل بدرة اسم صاحبها من أهل الدولة أو غيرهم على سبيل الهدية . فالمال راجع الى الدولة وأهلها ولا أظن الخليفة يفعل أكثر من ذلك . ثم أن مقتل هذا الرجل خطر على الخلافة ـ حتى الرشيد نفسه لو أراد قتله لم يستطع اليه سبيلا لان أكثر رجال الدولة من مريديه وقد غمرهم بالعطاء والمعروف ... فاقلع عن هذا وذاك واصغ لنصحي فاني ضنين بشبابك حريص على حياتك . والرأي عندي أن تتقرب من الرشيد فذلك خير لك وأبقى وأنا أضمن ما تبتغيه من القربى بل أنا أسعى في ذلك بنفسي »

فلما رأى اصراره على مقاومته تظاهر بالقبول مخافة أن يفشي أمره اذا أغضبه فقال « وما هي وسائل القربى ؟ »

فآنس اسماعيل قرب رضائه فسر لزوال تلك العقبة من طريق الدولة فقال « ما هو اقصى ما يطمع به النـاس في التقرب من الخلفاء . غير انه يتزوجوا بناتهم ؟ فاعدك ان الرشيد يزوجك ابنته العالية . فما قولك ؟ »

فرأى جعفر ان ذلك الزواج اذا تم لا يقف في سبيل بغيته بل هو قد يساعده على تنفيذها فاظهر الاستحسان ولـكنه قال « انها قربى عزيزة ولـكن الرشيد قد يشاور وزيره فلا يقبل ! » وضحك

فقال « لا تكن سيء الرأي بالرشيد الى هـذا الحد فانه أقوى عزيمة وأشد بأساً مما تظن ـ وأنا اضمن لك ذلك في كل حال انما أتقدم اليك ان ترجع الى البصرة ريثما أوافيك بالخبر »

قال « سأذهب حسب امرك ولـكنني لا أرى ضرراً من بقائي هنا حتى تنقضي هذه المهمة . . »

قال « حسناً فاذهب انت الآن الى قصري وأنا أمضي غداً الى الرشيد في هذا الشأن »

فقال « ولـكن ألا تأذن لى أن اعود الى الامين فأودعه وآتى ببعض الامتعة التي تركتها عنده فأبيت الليلة هناك ؟ »

قال « اذهب بحراسة الله »

وكانت الشمس قد دنت من المغيب فطلب جعفر الى اسماعيل ان يأذن بانزاله من السفينة ليركب زورقاً يعود به الى قصر الامين

فأمر اسماعيل بايقاف الحراقة بجانب الشاطىء ورأى جعفر هناك زورقاً ركب فيه حتى عاد الى قصر الامين وقد أقبل العشاء واظلم الليل فوقف عند المصطبة فنبحت الـكلاب وكانت كبيرة هائلة فخاف اذاها ولبث واقفاً عن بعد يتردد بين النزول من هناك أو الدخول من الباب الآخر وراء البستان ولاحظ في اثناء وقوفه ان المصطبة خالية من الناس إذ لم يسمع فيها غناء ولا رأى نوراً فعزم على المسير في الزورق الى الباب الآخر والطريق اليه بعيد

وهو يفكر في ذلك إذ رأى نوراً يظهر في المصطبة ويدنو من السور

ثم سمع لغطاً خفيفاً واذا بيد امتدت فوق الحائط والمصباح في قبضتها فلما رأت الكلاب المصباح سكتت ثم أطل رجل عرف جعفر من قيافته انه قيم الغلمان فناداه فقال الرجل « سيدي جعفر ؟ »

قال « نعم . . هل ادخل من هنا ؟ »

قال بصوت ضعيف «تمهل قليلا ريثما اعود اليك »وتركه وعاد بمصباحه وجعفر واقف في الزورق ينتظر رجوعه ويفكر في سبب هذا التستر وبعد قليل ظهر النور وسمع صوت القيم يقول «تفضل على مهل »

فاستغرب جعفر هذا التخوف وتحول من الزورق ومشى حتى دنا من الباب السري فقابله الرجل بالمصباح وقال « تفضل يامولاي ادخل »

فدخل والرجل يمشي بين يديه بالمصباح فرأى بالمصطبة فرأى آثار الشراب والطعام لاتزال فيها كأن الجلوس غادروها من عهد غير بعيد . فتحير في امره وحدثته نفسه ان يستفهم عن سبب ذلك التغيير ثم أمسك والرجل يسير أمامه حتى تجاوز الدهليز الى القاعة الوسطى في دار النساء فرأى المنائر في زواياها وجدرانها قد اضيئت شموعها وليس هناك احد فلم يتمالك ان سأل الرجل « اين هو مولانا ولي العهد ؟ »

قال « انا ذاهبان اليه ياسيدي تعال معي ولا تضجر »

الفصل الثالث والثلاثون

خبر جديد

فمشى جعفر في اثر القيم وهو يدخل من قاعة الى قاعة وكلها مضيئة بالشموع على المنائر وفيها الرياش الفاخر يختلف في كل قاعة لوناً وشكلاً عما في القاعات الاخر حتى وصل الى باب مقفل وقف القيم عنده ونقر عليه نقراً خفيفاً فسمع جعفر حركة ثم فتح الباب واطل منه الفضل بن الربيع وهو لايزال بثوب المنادمة كما فارقه وامسك بيده وادخله وهو صامت فدخل جعفر الى غرفة لم يجد فيها الا الامين جالساً على طنفسة وهو ايضاً

بلباس المنادمة وبجانبه امرأة قد تزملت بعباءة ووجهها مكشوف فعرف انها جارية ورأى على وجهها آثار الاهتمام فحياهم ووقف فأمره الامين بالجلوس قائلا « اجلس واسمع هذا الحديث الغريب »

فجلس وجلس الفضل الى جانبه فقال الامين « قد جاءتنا هذه الجارية بخبر يهمك ويهمنا . انها من جوارينا وقد أقمناها رصداً لنا على ذلك الوزير فاسمع ما جاءتنا به عن خيانته »

فاستبشر جعفر بما سمعه وتطاول بعنقه نحو الجارية ولبث صامتاً فاذا هي توجه كلامها للامين وتقول « أنت تعلم يامولاي ان يحيى بن عبد الله بن الحسن العلوي كان قد خرج على الدولة في الديلم واجتمع حوله جماعة الشيعة وكلهم ناقم على بني العباس يريدون اخراج الخلافة من ايديهم على مايزعمون . وبعث امير المؤمنين الرشيد لحربهم غير واحد وهم يزدادون تمرداً حتى انفذ اليهم الفضل بن يحيى اخا الوزير جعفر فلما وصل بجنده الى الطالقان وعلم ان الرجل ممتنع في جبال الديلم احتال في استنزاله واستقدامه ووعده خيراً . فوثق يحيى بمواعيده لانه من الشيعة مثله فجاءه فتلطف في معاملته وطلب اليه ان يصحبه الى بغداد ويسلم نفسه لامير المؤمنين فابى فاستحثه على الذهاب على ان يشترط ما اراده ويكتب له الرشيد ذلك بخطه . فتم الوفاق بينهما على عهد أمان كتبه الفضل وبعثه الى مولانا الرشيد فامضاه للرجل كما تعلمون حتى أتى بغداد فاستقبله أمير المؤمنين احسن استقبال واجرى له ارزاقاً سنية . ثم بلغ مولانا الرشيد من بعض العارفين ان الرجل لايزال عازماً على الخروج ... »

فقطع الامين كلامها وقال وهو يهز رأسه « نعم انه مازال على سوء قصده وهل تصفو قلوب اولئك العلويين لنا بعد ان بلغ العداء بيننا وبينهم الى هذا الحد .. ؟ ولا قلوبنا تصفو لهم »

فقال جعفر « ومن ادرانا ان الفضل لم يتواطأ مع صاحبه يحيى العلوي سراً على أمور تقضي بالتربص حيناً ريثما يخرجون جميعاً علينا ؟ .. »

فقال الفضل « وهذا الذي خامر فكر امير المؤمنين على ما يظهر لانه

بعد ان اعطاه العهد عاد فافسده كما ستسمعون »

فأتمت الجارية كلامها وهي تنظر الى الامين « نعم ان مولانا الرشيد افسد ذلك العهد لا أدري لاي سبب ولكنني علمت ان آل الزبير وشوا بذلك العلوي فأمر امير المؤمنين بالقبض عليه وحبسه وأنتم تعتقدون الآن انه في الحبس »

فاستغرب الامين قولها وقال « لا بد من أن يكون هناك »

قالت وهي تبتسم « كلا يا مولاي انه الآن في طريقه الى أهله »

فصاح الامين « ماذا تقولين ؟ ومن اطلقه ؟ »

قالت « اطلقه الوزير جعفر .. »

فقال « وكيف ذلك .. ما هذه الجسارة ؟ »

قالت « دعني أقص عليك ما رأيته رأي العين في غروب هذا النهار »

فتطاول لسماع حديثها فقالت « كان الوزير جالساً عصارى هذا النهار في غرفته الخاصة من قصره والخدم والجواري يشتغلون بشؤونهم الا أنا فقد كنت حريصة على مراقبة من يدخل أو يخرج فرأيت يحيى بن عبد الله العلوي المذكور داخلا وحده دخول المتلصصين وليس معه احد من الحاشية فعلمت انه جاء خلسة فراقبت طريقه فرأيته دخل على الوزير وجلسا في الغرفة وليس معهما ثالث فعلمت انهما لامر ما اختليا هناك فدرت من ناحية أخرى الى غرفة بينها وبين هذه باب مقفل يمكن الاطلاع من بعض ثقوبه على من فيها . فوقفت هناك فرأيت العلوي لما دخل وقف له الوزير ورحب به وأجلسه الى جانبه وبش له وأمر الخادم أن يقفل الباب عليهما . فلما استقر بهما الجلوس سأله الوزير عن حاله في الحبس فبكى وشكا الى أن قال « اتق الله يا جعفر في أمري ولا تتعرض أن يكون خصمك جدي محمد (صلعم) فو الله ما احدثت حدثاً يوجب ذلك » فافرغ العلوي من قوله حتى رأيت الوزير يلاطفه ويخفف عنه بكلام لم افهمه ولكنني فهمت أخيراً قوله « اذهب حيث شئت من البلاد »

فلما قالت الجارية ذلك بدت الدهشة في وجه الامين وقال «قبحه الله

على هذه الجسارة بل على هذه الخيانة كيف يطلق أسيراً أمر والدي بحبسه . وبعد ذلك ماذا فعل ؟ »

قالت « فأجابه الرجل كيف اذهب وأنا خاف أن أؤخذ فارد »

قال الفضل « صدق والله . . »

فقال ابن الهادى « وكيف اطلقه اذاً ؟ »

قالت « انه طمأنه وبعث معه رجالا من حاشيته ليوصلوه الى مأمنه وقد رأيته خارجاً وهو يثني على الوزير والوزير يشجعه ويطمئنه .. »

فصاح الامين « قد نجا العلوى اذاً . . ! »

قالت « نعم يا مولاى فعزمت من تلك الساعة ان اسرع اليك لاقص هذا الخبر عليك فلم استطع الخروج قبل الآن »

فنظر الامين الى ابن الهادى كأنه يستطلع رأيه في ذلك فأومأ اليه ان يصرف الجارية فأدرك أنه يجتنب الكلام بحضورها فأشار اليها أن تمضي الى قيمة الجوارى وهي تقوم بمكافأتها فنهضت وقبلت ثوب الامين وخرجت

فلما خلا جعفر بالامين والفضل أخذ في تعظيم ما سمعوه ليغريهما على الفتك بالبرمكي فقال « ان الصبر على هـذا التطاول ضعف » ولبث ينتظر ما يبدو من الامين فاذا هو يضحك ويقهقه . فاستغرب ضحكه فقال « وما الذي يضحك مولاي أظنه يريد أن شر البلية ما يضحك »

قال « كلا ولـكنني اضحك لما أتوقعه من استغرابك اذا سمعت ماقصه علي الفضل قبل مجيئك » والتفت الى الفضل كأنه يأمره بقص الخبر

فالتفت جعفر الى الفضل فرآه يقول للامين « أظن مولاي يعني خبر مولاتي العباسة »

فأومأ برأسه ان « نعم »

فازداد جعفر شوقاً لسماع الخبر فأخذ الفضل يقص عليه ما جرى له في فجر ذلك اليوم في دار الرقيق وما قصه عليه أبو العتاهيـة من تلصصه وما رآه وما سمعه وجعفر مصغ وقد تولته الدهشة . فلمـا فرغ الفضل من حديثه لم يتمالك أن وقف وصاح « يا للخيانة كيف تصبرون على ذلك ؟

لماذا لايعلم أمير المؤمنين بهذه الخيانة ؟ »

فقال الفضل « أما خبر العباسة فلا يجسر أحد على نقله الى الرشيد مالم يعرض حياته لخطر لما نتوقعه من غضبه والعياذ بالله »

فقال جعفر « كيف نطلع على هذه الخيانة ونكتمها ؟ ان كتمانها خيانة اخرى »

قال « لابد من الاحتيال في ابلاغه ذلك على يد مغنية بالاشارة أو التلميح أو التعريض . أما خبر فرار العلوي فيسهل نقله . . »

فاقتنع جعفر بذلك لعلمه ان خبر العلوي وحده يكفي للفتك بجعفر وهذا مايتمناه ويرضيه فأخذ يحسن له الاسراع في نقله . ثم التفت الى الفضل وكأنه تفطن لامر هام وقال « وأين ذهب الطفلان ابنا العباسة أرجو أن لايكون قد فاتكم ادراكهما والقبض عليهما والاحتفاظ بهما لحين الحاجة لان نقل الخبر اذا لم يكن مؤيداً بوجودهما فيالشقاء ناقله وقصر عمره .. »

فقال الفضل « لاتستجهلني الى هذا الحد .. فاني حالما سمعت القصة أنفذت جماعة من رجالي وأبا العتاهية معهم للقبض على الغلامين ولم يرجعوا الي بالخبر بعد . . . على اني لا أخاف أن يفوتهم القبض عليهما . . »

وهم في ما تقدم من الحديث سمعوا وقع أقدام في الغرفة المحاذية ثم قرع الباب قرعاً تعود الامين سماعه من غلامه اذا جاء لمسارته في شأن فنهض الفضل لفتح الباب فأطل الغلام وظل واقفاً بالباب ففهم الامين أنه يريد مسارته وفهم جعفر والفضل ذلك

فاستأذنا بالخروج فأذن لها ودخل الغلام فقال « ان بعض رجال الشاكرية جاءنا الآن » فعلم أنه رسول من عند والدته زبيدة لانها أول من اتخذ الشاكرية من الخدم يختلفون على الدواب في جهاتها ويذهبون في حوائجها برسائلها وكتبها [1] فقال « وماذا يريد ؟ »

قال « جاء ليدعوك الى مولاتنا السيدة زبيدة لانها تحب أن تراك في صباح الغد لامر هام »

(١) المسعودي ٣٦٦ ج ٢

فقال « قل له اني مصبح اليها باكراً ان شاء الله »
فخرج الغلام وكان الليل قد سدل نقابه فذهب كل الى فراشه

الفصل الرابع والثلاثون

زبيدة بنت جعفر

هي زبيدة بنت جعفر بن أبي جعفر المنصور وابنة عم الرشيد اخي ابيه تزوجها سنة ١٦٥ هـ . وهي تفاخر بنسبها الهاشمي سائر نساء الرشيد لانهن من أمهات الاولاد ولذلك كانت عنده في المنزلة الاولى وكانت جميلة الصورة واسمها الاصلي امة العزيز فلقبها جدها المنصور زبيدة لبضاضتها ونضارتها[١] وكانت نافذة الكلمة عند الرشيد وهو يتبرك بمشورتها ولها في الاسلام مآثر لم يسبقها اليها احد . مثل حفرها العين المعروفة بعين المشاش بالحجاز فانها حفرتها ومهدت الطريق لمائها في كل خفض ورفع وسهل وجبل حتى أخرجتها مسافة اثني عشر ميلا الى مكة فبلغ ما أنفقته ١٧٠٠٠٠٠٠ دينار فضلا عن المصانع والدور والبرك والآبار بالحجاز والثغور مما أنفقت الالوف عليه . غير ما كانت تنفقه في أهل الفاقة من المعروف والخصب وكان لها مائة جارية يحفظن القرآن ولكل واحدة ورد عشر من القرآن حتى كان يسمع في قصرها كدوي النحل من القراءة

وهي اول من اتخذ الآلة من الذهب والفضة المكللة بالجوهر وصنع لها الوشي الرفيع حتى بلغ ثمن الثوب من الوشي الذي اتخذ لها ٥٠٠٠٠٠ دينار. وهي اول من اتخذ الشاكرية من الخدم والجواري واول من اصطنع القباب من الفضة والابنوس والصندل وكلاليبها من الذهب والفضة ملبسة بالوشي والسمور والديباج وأنواع الحرير من الاحمر والاصفر والاخضر والازرق واتخذت الخفاف المرصعة بالجوهر وأضاءت شمع العنبر على منائر من الذهب وقد تشبه الناس في سائر احوالهم بها[٢]

(١) ابن خلكان ج ١ (٢) المسعودي ٣٦٦ ج ٢

وكان لها قصر في بغداد على شاطىء دجلة الغربي يسمى قصر زبيدة ويلقب (دار القرار) واقع جنوبي قصر الخلد شرقي مدينة المنصور وحوله الحدائق والبساتين مما لم يكن له شبيه في تلك الحضارة الزاهرة

وكانت زبيدة شديدة العصبية لبني هاشم وفي صدرها حزازات على البرامكة وخصوصاً جعفر بن يحيى الوزير لانه كان يحط من قدر ابنها الامين ويرفع من شأن أخيه المأمون مع ان امه جارية . وآخر ما زاد نقمتها عليه انه حمل الرشيد على ان يبايع للمأمون بولاية العهد مع ابنها الامين وكانت تحب ان تكون البيعة له وحده . وزد على ذلك ان الرشيد سار سنة ١٨٦ هـ الى الكعبة حاجاً ومعه ابناؤه ووزراؤه وقواده وقضاته وفي جملتهم ابناه الامين والمأمون ليعهد لهما بولاية العهد وجعفر البرمكي ليشهد العقد فكتبوا الكتابين وعلقوهما في الكعبة وحلف كل منهما على الثبات وكانت زبيدة حاضرة فلما حلف الامين وأراد الخروج من الكعبة رده جعفر وقال له « فان غدرت باخيك خذلك الله » وطلب منه ان يحلف على ذلك ثلاث مرات ففعل فأضطغنت زبيدة عليه وما برحت من ذلك الحين تترقب الفرص للايقاع به وربما كانت أكثر أعداء البرامكة شدة عليهم لا تدخر وسعاً في استطلاع اخبارهم لعلها تجد فرصة تتمكن بها منهم . وكانت عالمة بتردد جعفر على العباسة ولكنها لم تكن مطلعة على خبر الطفلين ولو علمت ما تقاعدت عن كشف امرهما لزوجها لانها لم تكن تهيب منه لما تعلمه من منزلتها عنده

فلما كان صباح ذلك اليوم وحدث ماحدث من الغوغاء عند دار الرقيق اطلع على خبر الطفلين بعض جواسيسها عند العباسة فنقل الخبر اليها فرأت أن تغتنم أول فرصة لاطلاع الرشيد عليه ولكنها أحبت ان تفاوض ابنها الامين في ذلك فأرسلت في طلبه كما تقدم

وبكر الامين في صباح اليوم التالي الى دار القرار اجابة لطلب والدته فركب جواده والغلمان يسيرون بركابه يتقدمهم فارس يحمل الحربة بين يديه على عادتهم في المسير بين يدي ولي العهد في ذلك الحين [1] فسار الموكب

(١) البيان والتبيين ١٥ ج ٢ وابن الاثير ٣٥ ج ٦

محاذياً الشاطىء الشرقي وعلى الامين السواد والقلنسوة حتى وصل الجسر السفلي فقطعه وسار بعده على الشاطىء الغربي حتى أطل على دار القرار والناس يقفون له في الطرق ويحيونه ويدعون بطول بقائه ولا سيما العرب ومن يرى رأيهم في العصبية العربية فيرد تحيتهم وهو مشرق الوجه بنضارة الشباب وعزة الملك

وكانت زبيدة تنتظر قدومه وقد استبطأته مع علمها بطول المسافة بين قصرها وقصره ولكن مدة الانتظار تطول على المنتظر وان قصرت. وكانت قد أعدت له كل اسباب الراحة والانس والترحاب لشدة تعلقها به لانه وحيدها وقد جمعت كل آمالها فيه فأمرت جواريها ففرشن طرقات الحديقة بالازهار والرياحين وأعدت له مجلساً فاحت فيه رائحة الطيب من المسك والعنبر في غرفة من قصرها سقفها قبة مصنوعة من خشب الصندل ومكسوة بالوشي والسمور وأنواع الحرير بألوانه الزاهية وقد أسدلوا من جوانب القبة على جدران المجلس ستائر من الديباج طرزوا عليها بالقصب أبياتاً من الشعر أو حكماً مأثورة وعلقوها في مواضعها بكلاليب من الذهب وفي أرض الغرفة بساط واحد من السجاد الثمين عليه رسوم بعض ملوك الفرس يصطاد السباع توهم الناظر من اتقان صنعها أنه يرى منظراً حقيقياً. وعلى حواشي البساط أبيات من الشعر مطرزة بالذهب. وفي وسطه صورة طاووس ألوانه منسوجة بالحرير وخيوط الذهب والفضة وعيناه من ياقوت مما يبهر النظر

وكان في قصر زبيدة غرف عديدة لكل غرفة فرش خاص بشكل خاص وفرش هذه الغرفة من الطراز المعروف بالارمني في ذلك العصر من صنع أرمينية وهو عشر مصليات بمخادعها ومساندها ومطارحها وبساطها كما وصفناه. فمثل هذا الفرش لا يقوم بأقل من ٥٠٠٠ دينار[1] غير البساط وغير ما يكسو القبة والنوافذ والجدران من الستائر والنقوش وغير ما في

(١) الفرج بعد الشدة ١٠٣ ج ١

جوانبها من المنائر المصنوعة من الذهب وقد غرس فيها شمع العنبر وهو من أثمن ما يكون ولم يستخدمه أحد قبلها الى ذلك العهد

الفصل الخامس والثلاثون

دار القرار والجواري المقدودات

فوصل الامين الى الحديقة فاستقبله جماعة من الخدم الشاكرية أعانوه في التحول عن جواده وقد تحول صاحب الحربة قبله ومشى بين يديه بالحربة حتى وصلا الى مفرش الازهار وقد فاحت روائحها وامتزجت بروائح الاطياب . فتنحى صاحب الحربة ومشى الامين وحده حتى وصل الى باب القصر فرأى والدته واقفة هناك في انتظاره فلما دنا منها همت به فضمته الى صدرها وقبلته قبلة الوالدة المشتاقة . فقبل يدها فاحس ببضاضتها . وكانت زبيدة مشرقة الوجه بيضاءه عليها وقار الهاشميين مع حلاوة وجمال وكانت سوداء العينين كبيرتهما مع ذكاء وحدة وقد استدار خداها وانبسطا من عيش الترف والرغد . وكان فمها صغيراً باسما يعلوه أنف فيه شمم وذقن قليل البروز ليس بينه وبين الترقوة غور ولا ثنية وقد استدار عنقها واشتد بياضه وليس فيه بروز

وكانت طويلة القامة الى الربعة مع سمن قليل اذا اسرعت في مشيتها ارتج كتفاها وورکاها ارتجاج الدلال والرخاء . وقد تزملت برداء من الحرير ارجواني اللون يستر كل أثوابها وتمنطقت فوقه بمنطقة مذهبة شدت طرفيها بعروة مرصعة بالجوهر . وقد ارسلت شعرها ضفيرة واحدة على كتفيها وعصبت حول رأسها عصابة ليس عليها شيء من الجوهر — والعصائب كانت لا تزال حديثة العهد لم تبلغ الى نساء العامة بل كانت محصورة في بيت الخلفاء والامراء شأن ما يحدث من الازياء في كل عصر . فان الزي الجديد (المودة) تبدأ به عادة بعض الوجيهات فيقلدها اترابها ثم يشيع بين العامة — والعصائب استنبطتها علية اخت الرشيد لتستر بها عيباً في جبينها

فاصطفتها مرصعة بالجوهر كما تقدم فاستحسن الناس ذلك فقلدوه . أما زبيدة فكانت لفرط اعجابها بمنزلتها عند الرشيد حسباً وجمالا وتعقلا تستنكف من ان تقلد سواها وخصوصاً بعض بيت احمائها . فاتخذت عصابة بسيطة لا جوهر عليها ترفعاً عن التقليد ولم تضع في عنقها عقداً ولا في أصابعها خاتماً ولا في معصمها سواراً تنزهاً عما يستطيع سواها تقليدها به . فلم يتمالك الامين عند مشاهدة تلك العصابة عن الابتسام وقال « أراك تقلدين عمتي علية ان هذه العصائب جميلة يا اماه . لكنني لا أرى على عصابتك شيئاً من الجوهر »

فابتسمت وأشارت بسبابتها الى قدميها فنظر الى قدميها فاذا هي قد رصعت خفيها بالجوهر فاعجب بترفعها وبذخها وهي أول من لبس الخفاف المرصعة

وكان الامين يمشي بجانب والدته لا يدري الى أين تسير به فقطعت الدهليز وبلغت الى درجات صعدت عليها وهو يتبعها حتى استطرقت من دهليز آخر الى القاعة التي ذكرناها . فلم يبهره ما هنالك من الفراش الثمين ولكنه استغرب شيئاً آخر لم يكن رآه من قبل — ذلك أنه لما أطل على القاعة تزايدت رائحة المسك ورأى عند مدخلها صفين من الجواري الحسان على رؤوسهن العمائم وقد سوّين شعورهن بأشكال الطرر والاصداغ والاقفية ولبسن الاقبية والقراطق والمناطق من الذهب والفضة فبانت قدودهن وبرزت صدورهن على شكل غريب وفي أيدي بعضهن جامات المسك وفي البعض الآخر قوارير الطيب . فلم يتمالك الامين عند مشاهدة ذلك المنظر عن الدهشة والاعجاب وامه تتماسك عن الضحك فالتفت اليها فضحكت فقال « ما هذه الملابس يا أماه . . . ؟ أراك قد جعلت هؤلاء الجواري غلماناً »

فقالت « فعلت ذلك تشبهاً بك ياولداه . . . رأيتك اتخذت الغلمان وبالغت في تزيينهم كأنهم من الجواري الحسان فاتخذت هؤلاء الجواري

اقلد بهن الغلمان كما ترى وقد سميتهن الجواري المقدودات [1] وسأبعث بهن هدية اليك »

فسر الامين بتلك الهدية . وكانا قد وصلا الى مجلس معد لهما على سرير من الابنوس في صدر القاعة محلى بالذهب . فجلست زبيدة فوقه على وسادة من الخز المزركش محشوة بريش النعام واجلست الامين الى جانبها وهي تنظر اليه ولا ترتوي من رؤيته . ثم أشارت الى من كان هنالك من الجواري والغلمان فانصرفوا

الفصل السادس والثلاثون

المشورة والحيلة

فلما خلت به تغيرت سحنتها من الابتسام والانس الى الهيبة والجلال وبدت في عينيها السوداوين اللامعتين ملامح الذكاء وحدة الذهن والجد فقالت « كيف قضيت نهارك البارحة يامحمد ؟ »

قال « قضيته كما تحبين ياسيدتي من الانس والطرب »

قالت « وفي الليل . . لماذا كنت مستتراً في خلوة ؟ »

قال « ومن قال لك ذلك ؟ »

قالت « أخبرني به الشاكري الذي بعثته اليك فما هي هذه الخلوة ؟ »

قال « هي خلوة يحلو لك سماع خبرها وقد كنت عازماً على المجيء اليك لأطلعك على سر اكتشفته يسرك الاطلاع عليه . وأنت ما الذي بعثت الي من أجله ؟ »

وكانت متكئة على كتفه ويدها على خده تلاعب بأناملها شعرات في عذاره وتنظر اليه نظر الحنو والانعطاف . فلما قال لها ذلك ابتسمت وقالت :

(١) المسعودى ٣٦٦ ج ٢

« وعندي أيضاً ما يهمك الاطلاع عليه وأرجو ان تتخلص به من ذلك الفارسي »

فعلم انها تشير الى جعفر البرمكي فبغت وقال « وخبري أيضاً يتعلق به قبحه الله . . . هل تعنين خبره مع العلوي أم مع عمتي العباسة ؟ »

فأجفلت زبيدة وتصاعد الدم الى وجنتيها وظهرت الدهشة في عينيها وقالت «هل علمت بخبر العباسة أيضاً ؟ »

قال « نعم علمت به وكدت اتميز من غيظي ولكن لا أظننا ننتفع بذلك عاجلا . أما خبر العلوي فهو أقرب استثماراً »

فقالت «وأي علوي تعني ؟ وما خبره اني لم أسمع بشيء من هذا القبيل »

فاعتدل في مجلسه وقص عليها ما سمعه مساء الامس من الجارية حتى اتى على آخره وزبيدة تنظر اليه وعيناها تبرقان استغراباً ودهشة . فلما فرغ من حديثه تنهدت وقالت « ذلك جزاء من يستهين بسلطة فوضها الله اليه.. ان أباك مع تعقله وحزمه قد استسلم لهذا الفارسي حتى أصبحت الخلافة له ولم يبق لابيك الا اسمها . . . ولكن سوف يلقى الباغي عاقبة بغيه »

فقال « لاأنكر عليك اطلاق والدي يد هذا الوزير في أمور الدولة ولكن ألا تظنين ذلك لازماً لتمشية الاحكام . . ؟ وهل يستطيع أمير المؤمنين أن يتولى كل الاعمال بنفسه ؟ »

فقالت والجد ظاهر في عينيها « ان اطلاق يده في الاحكام قد يكون له فيه عذر ولكن ما هو عذره في ادخاله على حريمه بلا اذن ولا حرج ؟ ان جدك المهدي رحمه الله مع استخدامه البرامكة ووثوقه بهم لم يبلغ هذا الحد من اطلاق أيديهم ولا عمك الهادي فعل شيئاً من ذلك ولا أظن احداً يفعل ما فعله ابوك . . . » قالت ذلك وقد بان الغضب في وجهها فزادها هيبة

قال « وماذا تعنين يا أماه بدخوله على الحريم ؟ »

قالت « اعني ان أباك حفظه الله أمر ان يدخل جعفر على دور النساء

في السفر والحضر وأبرز اليه جواريه واخوته وبناته لزعمه ان بينهما رضاعاً يحلل ذلك فهو يدخل الى قصور نساء الخليفة وبناته واخواته بلاحرج فلا عجب اذا ظهر ماظهرمن جرأته » . وتنهدت وقد أخذ الغضب منها مأخذاً عظيما وكان في يدها جام فيه مسك تتشاغل بتفتيته في أثناء الحديث فلما غلب عليها الغضب ارتعشت أناملها فوقع الجام من يدها وانتثر فتات المسك على البساط فهم الامين بالتقاطه وهو يقول « وهل بلغ من اطلاق يده في دور النساء ان يدخل الى قصرك ويراك ؟ » وقد بانت الغيرة في وجهه

فصاحت « كلا . . وهل يجسر هـذا المولى ان يرفع بصره الي . . ؟ انه لم يطأ ارض قصري هذا ولا كلفته بحاجة يقضيها لي ولا أكلفه . . »[1]

وكان الامين قد فرغ من التقاط المسك فاعاده الى الجام ودفعه الى امه وهو يقول « وما هو الرأي الآن ؟ ان هذا الرجل لا ينبغي ان نستر فعله والا ذهب الامر من ايدينا واكتسينا العار الذي لا يمحى لما ارتكبه هذا الخائن بعمتي . . . »

فقطعت كلامه وقالت « ان امر عمتك يا بني اكثر اللوم فيه على ابيك كماقدمت لك لانه اباح لوزيره الدخول الى قصرها ومخاطبتها وقضاء حوائجها وهو شاب حسن الخلقة نظيف الثوب طيب الرائحة وهي لم تر رجلا غيره — ذلك جزاء من جمع بين النار والحطب . على ان هذا لا يبرئه من الخيانة . . » وعادت الى التشاغل بفتات المسك وهي تنظر الى البساط تتفرس في الطاووس المنقوش في وسطه . والامين قد انقبضت نفسه وضاق صدره لانه مع طول الحديث لم يصل الى الغرض المطلوب ولا تجاسر ان يفاتحها بطلب قتله أو الوشاية به . فلما ضاق ذرعاً أطرق وبانت الحيرة في وجهه ولحظت أمه ذلك فيه فأسرعت الى تطييب خاطره فقالت « أظنك تريد ان تعرف رأيي في هذا الرجل »

فلم يتمالك محمد ان صاح « نعم يا أماه لقد ضاق صدري »

فقالت « وهل ترى أن نبلغ أباك خبر اخته العباسة ؟ »

(١) الاتليدي ١١٣

قال « لا أدري . . وانما اريد أن يقتل هذا الرجل والسلام »

فضحكت وادارت ذراعها حول عنقه وقبلته ودموع الحنان تكاد تتناثر من عينيها لولا عظم الامر الذى ادخلت نفسها فيه وقالت « قد كنت عازمة ان اطلعه على خبر اخته ولكن مباغتة الرشيد بذلك لا تخلو من الخطر على الناقل فيكفى الآن ان نبلغه خبر العلوي . . ثم خفضت صوتها ومدت يدها الى جيبها فاستخرجت بطاقة دفعتها اليه وهي تقول « لا تظنني غافلة عن الانتقام لك من هذا المولى . . . اني لا انسى تشديده عليك بالحلف على كتاب العهد بالكعبة فى العام الماضي فقد بلغ من قحته وسوء أدبه ان يستهين بك أمامي . . وقد اعددت ابياتاً من الشعر بمعنى ما نحن فيه على ان اوصلها الى ابيك سراً من حيث لا يعلم فنكون قد ابلغناه الخطر الذي يهدد الدولة من هذا الرجل فاذا لم يستيقظ الرشيد من ذلك عمدنا الى ما هو أبلغ »

فتناول الامين البطاقة وقرأها فاذا فيها : (١)

قل لامين الله فى ارضه ومن اليه الحل والعقد
هذا ابن يحي قد غدا ما لكما مثلك ما بينكما حد
وقد بنى الدار التي ما بنى الـ ـفرس لها مثلا ولا الهند
الدر والياقوت حصباؤها وتربها العنبر والند
ونحن نخشى انه وارث ملكك ان غيبك اللحد
ولن يباهي العبد اربابه الا اذا ما بطر العبد

فلما فرغ من قراءتها احس بارتياح وقال « اظنها تقتله لا محالة وهل انت عازمه على ايصالها وكيف ؟ . . . »

قالت لا يهمك ذلك فانى اكلف واحداً من جواسيسنا هناك يلقيها عند مصلى ابيك فاذا رآها قرأها واظنها تفى بالغرض المطلوب والا فالدواء الناجع عندى . . . « قالت ذلك ووقفت فوق الامين وقد علم انها

(١) ابن خلكان ج ٢ والاتليدى ١١٧

تنوي الخروج من تلك القاعة فمشيا معاً وهي تقول له « أظنك جائعاً وقد اعدت المائدة فهلم بنا اليها ... »

قال « صدقت اني جائع ... وهل اعود بعد الطعام الى قصري ؟ »

قالت « اني مشتاقة اليك يا محمد فتقضي هذا اليوم معاً »

وذهبا الى غرفة المائدة ـ فلنتركهما على الطعام ولنعد الى ما كان من اسماعيل بن يحيى ومهمته الى الرشيد

الفصل السابع والثلاثون

قصر الخلد

تركنا اسماعيل بعد مفارقة جعفر في مساء الامس وهو عازم على زيارة الرشيد في الغد لمخاطبته بشأن ابن الهادي والعالية . فلما أصبح لبس سواده وقلنسوته وركب الى قصر الخلد وقضى مسافة الطريق وهو يفكر في الرشيد ويهيء الاسلوب الذي يتطرق به الى مخاطبته في أمر ابن عمه لعلمه بشدة الرشيد اذا غضب وربما سبق الى ذهنه سوء الظن فتعود العائدة وبالا عليه . لكنه لم يطل على ذلك القصر حتى رأى الناس يتسارعون في الاسواق نحو الشارع الاعظم المؤدي من القصر الى الجسر فأمر أحد الغلامين السائرين في ركابه ان يستفهم عن سبب ذلك الهرج فعاد وهو يقول « ان امير المؤمنين خارج الى الشماسية لحضور حلبة السباق » فتشاءم اسماعيل من هذا الاتفاق وسبق الى اعتقاده فشل مهمته لانه لم يوفق في عزمه في ذلك الصباح ولا هو يرجو ان يقابل الرشيد في المساء لان الشماسية في الجانب الشرقي من بغداد والحلبة تستغرق كل النهار . فترجل وتنحى جانباً بحيث يرى موكب الخليفة ولا يعلم به أحد . فما عتم ان رأى الناس يتهارجون يدفع بعضهم بعضاً كأنهم يساقون سوقاً ثم رأى خدماً صغاراً يركضون مشاة وفي أيديهم قسي البندق يرمون بها العامة الذين يعارضون الموكب في الطريق ـ وهم فرقة من الخدم

يسمونهم النمل [١] ومن ورائهم رجال مشاة على الاقدام عليهم شارة الدولة وفي أيدي بعضهم السيوف المرهفة وفي أيدي الآخرين الاعمدة ووراءهم رجال في أيديهم القسي الموتورة [٢] وهم يمشون بوقار وسكون . ووافى الخليفة بعدهم على جواد مخضوب بالحناء عليه سرج مذهب وقد تغطى سائر الجواد بالديباج المخوص بالذهب والرشيد جالس فوقه وعلى رأسه قلنسوة كثيرة الطول ليس حولها عمامة ـ لان الخلفاء كانوا اذا لبسوا القلانس مكشوفة زادوا في طولها وحدة رءوسها حتى تكون فوق قلانس جميع الامة [٣] فكيف اذا ركب وهم مشاة . ورأى سواده مسترسلا حتى يغطي بعض ظهر الجواد

وكان الرشيد يومئذ في الحادية والاربعين من عمره وقد أشرق وجهه بياضاً وابرقت عيناه ذكاء وكانتا كبيرتين ولحيته خفيفة كستنائية اللون وشارباه مستطيلان دقيقان وفي فمه ابتسامة . وفي يده اليمنى قضيب من الابنوس طرفه مصنوع من الذهب وكان الجواد يمشي الهوينا ويتبختر بمشيته كأنه عالم بمن يعلوه ووراء الخليفة صاحب المظلة يحمل مظلة من ريش النعام مجنبة على عصاها لتظلل الخليفة من الشمس . ووراءها فرسان من الخاصة والقواد وكبار الكتاب الاجعفر الوزير فانه لم يكن معهم . ويلي ذلك افراس الحلبة عليها سروج خفيفة وسياس يقودونها بالارسان وبينها فرس عليه رئيس السياس وهو تركي له مهارة في تربية الخيل . وأخيراً فرقة أخرى من الخدم الصغار يردون الناس عن الموكب من الوراء

وظل اسماعيل واقفاً ينظر الى ذلك الموكب نظر الفيلسوف المعتبر وهو يعجب لغرور الانسان واشتغاله بالظواهر المبهرجة عن الحقائق الدامغة . . ونظر في من يحف بالرشيد من الخاصة والقواد والهاشميين وهو يعلم ما في نفوسهم ومنهم من يكره الرشيد حتى يتمنى له الموت ومنهم من يحبه ويستهلك في خدمته والمرجع العام فيهم جميعاً الى حب الذات . ثم فكر في نفسه وفي

(١) الاغاني ٩٤ ج ٢٠ (٢) المسعودي ٦٥ ج ٢
(٣) البيان والتبيين ٨٤ ج ٢

ما كان قادماً من أجله وتحركت فيه الغيرة على الدولة والرغبة في سلامتها وأسف لفشل مهمته في ذلك الصباح فركب وعاد الى منزله أسفاً ـ على ان يعود في صباح الغد لاتمام ذلك الامر

وهم صباح اليوم التالي ركب كالامس وغلاماه في ركابه وعليه السواد والقلنسوة وما زال حتى أقبل على قصر الخلد . وللقصر أربعة اسوار الواحد داخل الآخر فلا يستطيع أحد الوصول الى مجلس الخليفة الا بعد المرور في أربعة ابواب[1] وعند كل منها حرس من الشاكرية وقفوا بالاسلحة . فدخل الباب الاول وهو راكب فوقف الحرس اكراماً له ولم يعترضوه لعلمهم انه من كبار بني هاشم فضلا عن منزلته عندالرشيد . ودخل الباب الثاني فالثالث والحرس يقومون له ويحيونه حتي اذا وصل الى الباب الرابع فتناول الفرس أحد الغلامين ومشى اسماعيل في طريق واسع يؤدي الى دار العامة وغلمان القصر يسيرون بين يديه وهو يمشي الهوينا مع جلال ووقار حتى اقبل على تلك الدار وهي التي يجلس فيها الخليفة للعامة ويجانبها غرف يقف فيها الشعراء والادباء والندماء أو يجلسون ريثما يؤذن لهم أو يطلب الرشيد أحدهم . فعلم اسماعيل من جلبتهم وغوغائهم وخلو المكان من الحرس (الشاكرية) ان الرشيد ليس هناك فاستغرب ذلك وأحب أن يستفهم عنه فاذا بمسرور خادم الرشيد يعدو نحوه مسرعاً وسيفه يخبط على جانب فخذه لشدة سرعته . فلما رآه اسماعيل لم ينشرح صدره له لعلمه بفظاظته وقسوته وهو فرغاني الاصل واكب مسرور على يد اسماعيل ليقبلها فاجتذبها منه وسأله عن اميرالمؤمنين فقال « هو في دار الخاصة يا مولاي »

قال « وكيف ذلك واليوم موعد جلوسه في دار العامة »

فقال « قد كان عازماً اليها فجاءه وفد من ملك الهند فأحب أن يجلس لهم في دار الخاصة لان ذلك أقرب للرهبة والعظمة »

(١) الاتليدي

الفصل الثامن والثلاثون

وفد ملك الهند

فتحول اسماعيل نحو تلك الدار وقبل الوصول اليها رأى صفين من جند الخليفة الاتراك وقد وقفوا بانتظام ولبسوا الحديد حتى لا يرى منهم غير الحدق فقال لمسرور « ما بال هؤلاء .. وما الذي بعث على وقوفهم بالحديد كأنهم في ساحة الحرب ؟ »

قال « لما علم امير المؤمنين بقدوم الوفد من ملك الهند أحب أن يوقع الرعب في قلوبهم ليبلغوا ملكهم ما شاهدوه من قوة الاسلام فأمر بوقوف هؤلاء كما ترى » (١)

فانبسطت نفس اسماعيل لما عاينه من رغبة الرشيد في أبهة الدولة ولكنه ما لبث ان تذكر ما يخافه عليها من الدسائس حتى انقبض صدره . على أنه تماسك ومشى نحو الدار بين الصفين حتى دنا من بابها وكان مرتفعاً يصعد اليه على درجات عريضة من الرخام الابيض يتخللها قطع من البلاط الاخضر والشاكرية وقوف الى الجانبين وفي أيديهم السيوف . فدخل مسرور أمامه ليخبر صاحب الاذن (الحاجب) بقدومه ليستأذن له بالدخول

فصعد اسماعيل في أثره وهو يتباطأ في مشيته ريثما يؤذن له فما عتم ان جاء الآذن يدعوه للدخول فمشى في دهليز عريض مبلط ببلاط احمر مشدود بعضه الى بعض بقضبان الذهب والآذن يسير بين يديه فرأى في آخر الدهليز ثلاثة كلاب هائلة المنظر كبيرة الابدان كأنها أسد وقد أوثقت من أعناقها بسلاسل الحديد وأمسك السلاسل ثلاثة رجال عرف من قيافتهم وألوانهم أنهم من أهل الهند وهم مكشوفو الرءوس فاشتغل خاطره بتلك الكلاب وتهيب من توقد أبصارها وكبر ابدانها . ولكنه تجلد وجاوز عدة مقاصير وأروقة ودهاليز والخدم يقفون له حتى انتهى الى دار قوراء مفروشة

(١) العقد الفريد ١٤٩ ج ١ وسراج الملوك

بالبسط الثمينة فوقها جلود النمور والسباع وفي جوانبها قضب المناور عليها الشموع الملونة . فوقف اسماعيل هناك وهو يتشاغل بقراءة ما نقش على الجدران من أبيات الشعر أو الحكم لعله يحتاج الى إذن ثان على جاري العادة في الداخلين على الخليفة فرأى الآذن قد عاد وهو يشير اليه أن يتقدم لان مثله لا يحتاج الى إذن ثان

فتقدم نحو باب عليه ستر من الديباج المخوص بالذهب أماله الآذن بيساره وأشار الى اسماعيل بيمينه أن يدخل فدخل الى إيوان كبير طوله ثلاثون ذراعاً في ثلاثين قائم على أساطين من الرخام وعلى جدرانه صور مما في البر والبحر ممثلة بالذهب والفضة يتخللها أبيات من الشعر وحكم مكتوبة بماء الذهب . وفي أرضه بساط من الديباج الاصفر كان صانعه قلد به القطيف بساط كسرى ـ عليه نقوش بألوان زاهية بينها خيوط القصب تمثل أشجاراً وأنهاراً وطيوراً وأسماكاً توهم الناظر انه في حديقة يانعة الاغراس جرت فيها الجداول وتغنت فيها الاطيار . وعلى حواشي البساط وشي جميل . وسقف الايوان قبة عظيمة الاتساع مبنية على ثلاثة عقود كل عقد قائم على خمسة أساطين وعلى سقف القبة نقوش وكتابة . وفي وسط الايوان ستر من الحرير الصيني معلق عرضاً بين الحائطين يحجب الخليفة عمن يجالسه على عادتهم فى مجالسة الخلفاء يومئذ الا من أختار الخليفة تقديمه ورفع الستر بينه وبين أهله وخاصته

ورأى اسماعيل الكراسي المنصوبة خارج الستر لجلوس بني هاشم وليس عليها أحد منهم ـ ويسمى الهاشميون في اصطلاح تلك الايام ابناء الملوك أو الاشراف [1] وأما الوسائد المطروحة بين يدي الكراسي لجلوس الخاصة من الامراء والقواد فرأى على بعضها اناساً من الهنود عليهم القبعات المزركشة . وأثوابهم من نسيج الهند عليها صورة ملونة تمثل بعض الحيوانات الكبرى ولا سيما الفيل . وفي اعناقهم عقود من الجوهر الثمين بينها تعاويذ من الذهب تمثل بعض اصنامهم وقد جلسوا خاشعين متهيبين ينتظرون أمر

(١) المسعودي ١٧٧ ج ٢

الخليفة وبين أيديهم على البساط سيوف من صنع بلادهم يقال لها السيوف القلعية فعلم انهم الوفد القادم من ملك الهند وان اصحاب الكلاب في الدهليز تابعون لهم

فتقدم صاحب الستارة الى اسماعيل أن يدخل اذا شاء أو يجلس على أحد الكراسي ريثما يفرغ الرشيد من هؤلاء الهنود . وكان اسماعيل قد سمع الرشيد يتنحنح فعلم أنه جالس هناك على سريره وراء الستارة ففضل الجلوس هناك حتى يفرغ من هؤلاء وهو يخاف أن يحولوا بينه وبين ما يريد من مخاطبة الرشيد ثم سمع الرشيد يخاطبهم من وراء الستارة بواسطة الترجمان وهو صاحب الستارة لانهم كانوا يختارون أصحاب الستارة من العارفين باللغات لمثل هذه الحال . فقال الرشيد لرئيس الوفد « ما الذي أتيتمونا به »

قالوا « هذه سيوف قلعية لا نظير لها عندنا »

فدعا الرشيد بالصمصامة وهي سيف عمرو بن معدي كرب وأمر بعض رجاله الاتراك فقطع بها تلك السيوف واحداً واحداً وأمر أن يروهم ذلك السيف فرأوه فاذا هو لا فل فيه فاسقط في أيديهم ونكسوا رءوسهم ثم قال « وما عندكم غير هذا ؟ »

قالوا « أتينا بكلاب لا يلقاها سبع الا عقرته »

فلما سمع اسماعيل قولهم زاد تهيباً من رؤيتها ثم سمع الرشيد وهو يقول « ان عندنا سبعاً فان عقرته كلابكم فهي كما ذكرتم . . . اخرجوها الى السباع في أقفاصها وأمروا السباع أن يخرج السبع عليها ونحن ننظر الى مغالبتها من الروشن »

فخرج صاحب الستارة وأشار الى الهنود فنهضوا ومشوا حتى مروا بالكلاب في الدهليز فساقوها معهم وسار بعض الغلمان بهم الى خارج الدار وقد سبق أحدهم الى السباع فأمره باخراج أسد عظيم فأخرجه وجاءوا به الى ساحة اطلق فيها الكلاب القلعية ورأى اسماعيل الاسد يخطر ويزأر فما شك أنه سيمزق الكلاب ارباً ارباً فاذا هي قد مزقته ورأى الرشيد ذلك

من الروشن فأرسل الى الوفد أن يعودوا الى الايوان كما كانوا فعادوا وعاد اسماعيل وهو يستغرب ما رآه من الكلاب فلما عادوا قال الرشيد للوفد « من أين لكم هذه الكلاب وما هو جنسها »

قالوا « هي كلاب سيورية تعيش في بلادنا لا شبيه لها في الارض »

فقال « هذه أحب أن أحفظها فتمنوا فيها ما شئتم من طرائف بلدنا »

قالوا « ما نتمنى إلا السيف الذي قطعت به سيوفنا »

قال لهم « هذا ما لا يجوز في ديننا ان نهاديكم بالسلاح ولولا ذلك ما بخلنا به عليكم ولكن تمنوا غير ذلك ما شئتم »

قالوا « لا نتمنى سواه »

قالوا « لا سبيل اليه » ثم أمر لهم بتحف كثيرة وأحسن جائزتهم وانصرفوا [1] وفي نفوسهم رهبة من هيبة الخلافة

الفصل التاسع والثلاثون

مجلس الرشيد

أما اسماعيل فما صدق ان فرغ الخليفة من ذلك الوفد حتى عاد الى التفكير في ما جاء من أجله وأحب مخاطبته على انفراد قبل ان يأتي أحد من بني هاشم أو سواهم فيحول بينه وبين ما يريد وهو يرى الاسراع في مهمته قبل ذهاب الفرصة . فلما ذهب الوفد عاد صاحب الستارة ودعاه للدخول على الرشيد إذ لا حجاب عليه وقال « لما علم مولانا أمير المؤمنين بقدومك أمرني أن أدخلك عليه »

قال « وأحب ان لا تدخل علينا أحداً ريثما افرغ من خطابي معه »

فوسع له الستارة ما بين شطريها فاطل اسماعيل على الرشيد فرآه جالساً الاربعاء على سرير من الذهب الابريز مرصع بالجواهر [2] فوق سدة في صدر المجلس منصوبة بين اسطوانتين من اساطين الايوان مجللتين بالوشي

(١) العقد الفريد ١٥٠ ج ١ (٢) الاغاني ١٨٤ ج ٣

المنسوج بالذهب وقدوقف عند كل منهما وصفاء في أيديهم المذاب أو المناديل ووراء السدة من الجانبين شاكريان بيد كل منهما سيف مسلول . والسدة عبارة عن مظلة قائمة على عمد من الابنوس المنزل فيه العاج سقفها من الديباج الاسود المزركش بالذهب برسوم جميلة . وفي حاشيته من الامام والجانبين أهلة من الذهب مدلاة في كل هلال منها اترجة ذهب مسبك يتدلى من كل اترجة درر كبار بينها الياقوت الاحمر والاصفر والازرق على نظام بديع يبهر النظر . والرشيد جالس على السرير في السدة تحت المظلة وعليه ثياب يلبسها عند استقبال قادم من كبار الملوك أو نوابهم اذا أراد ارهابهم بعز الاسلام وجلال الدولة وابهة الخلافة . وقد لبسها في ذلك اليوم لاستقبال الوفد الهندي فكان على رأسه قلنسوة قصيرة حولها عمامة سوداء من الخز الموشى وبين ثناياها عقود من الجوهر بشكل سبحات تملأ الاخلية بين تعاريج العمامة . وفي مقدمها فوق الجبهة شبه طرة من الذهب المرصع بالجوهر والياقوت .والزمرد يبرز منها كعرف الطاووس من اسلاك الذهب وقد نظمت بها لآلىء بينها ثلاث كبيض الحمام عند قاعدة العرف . وكان على الرشيد جبة سوداء فوقها بردة النبي . فهل يسع المقبل على تلك السدة غير التهيب ؟ أما اسماعيل فكان قد تعود ذلك وهو عاقل حكيم لا تأخذه المظاهر المبهرجة وكان مع ذلك في شاغل من اعمال الفكرة في حال الخلافة وما يخافه عليها من التضعضع وهو يعلم شدة الرشيد وتسرعه اذا غضب

فلما أطل من بين شطري الستر قال بأعلى صوته « السلام على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته .. ؟ »

فتحرك الرشيد كأنه يتحفز للقيام اجلالا لاسماعيل وابتسم له وهو يقول « وعليك السلام يا عماه .. مرحباً بك »

فدخل وأسرع في خطوه ليمنع الخليفة من الوقوف له . أما الرشيد فنهض عن مقعده نهوضاً قليلا ومد يده وصافح اسماعيل وقال « لقد أتيت أهلا يا عماه أمثلك يستأذن بالدخول ؟ » ثم أومأ الى الوصفاء فقدموا له كرسياً وضعوه بجانب السرير وأشار الرشيد اليه بالجلوس وهو يبتسم ترحاباً

واستئناساً . فجلس وأثنى على ما لاقاه من الرعاية والحفاوة ودعا للرشيد ولبث ساكتاً على عادة جلاس الخلفاء فانهم لا يبدأون الخليفة بكلام فاستحسن الرشيد تأدبه مع علمه بكبر نفسه ودالته فقال « لقد أتيتنا لخير ان شاء الله فانك منقطع عنا منذ أيام ولا تأتينا الا لنصيحة أو مهمة ونحن كل يوم نرجو لقاءك »

قال « اني يا امير المؤمنين اقيم في البصرة وقلما آتي بغداد ولو علمت لدخولي على الخليفة نفعاً لقضيت سحابة عمري بين يديه . واما الآن فقد اتيت التمس منه فضلا نضمه الى منته المتوالية ونعمه السابغة .. »

قال « قل طلبتك فانك صاحب الامر معنا »

فاكبر اسماعيل تلك المجاملة وحنى رأسه امتناناً ويداه ملمومتان في حجره وقال « ان الامر لمولاي جعله الله له وحده لا ينازعه فيه احد . وهو ينعم بما يشاء من فضله فاذا سمح مولاي بكلمة فاني استأذنه في الخلوة »

فأومأ الرشيد فخرج الوصفاء والشاكريان واقبل هو بكليته على اسماعيل وقد ابرقت عيناه اهتماماً وتفرساً لعلمه ان اسماعيل لا يطلب الخلوة الا لامر ذي بال

فنظر اسماعيل الى الرشيد وقال « أأتكلم »

قال « تكلم اطلب ما تشاء »

قال « لا يخفى على مولاي ان جعفر ابن اخي الهادي من خيرة بني اعمامنا »

فلما سمع الرشيد اسم جعفر اوجس خيفة مما قد يتلوه من اقتراحات لا يروق له تنفيذها ولكنه اظهر الملاطفة وقال « نعم انه ابن اخي فهل هو في حاجة الى عطاء »

قال « كلا يا مولاي لان نعم امير المؤمنين تتوالى عليه كما تتوالى على سائر بني هاشم ولكنه يود الزيادة في شرفه »

فادرك الرشيد بفراسته ان اسماعيل انما جاء خاطباً فتجاهل وقال « ان قرابة الرسول اعظم اسباب الشرف له ولنا »

قال « نعم .. هو كذلك ولكنه يحب التقرب من عمه امير المؤمنين وخليفة سيد المرسلين »

فلم يبق عند الرشيد شك في انه جاء يخطب ابنته لجعفر فابتدره قائلا « كل ماتقترحه يا عماه ينفذ الا خطبة العالية . . »

فاستغرب اسماعيل تلك المفاجأة وقال « وانا لم آت لاطلب سواها . فاذا كان ذلك ممتنعاً فالامر لامير المؤمنين ونحن مطيعون لارادته ندعو بطول بقائه . على ان ما خولتنيه من الدالة يجرئني على سؤال ارجو ان لا يثقل على مولاي »

قال « قل فان لك رعاية وحقاً »

قال « ألعل امير المؤمنين لا يرى ابن اخيه كفؤاً لمولاتنا العالية ؟ . ومن يا ترى اكثر كفاءة لها من ابن عمها أخي ابيها حفيد الملك النبيل والشيخ الجليل (يريد المنصور) »

فقال الرشيد وهو يعبث بقضيب الخلافة بين انامله « اما الكفاءة فلا ينازعه احد فيها كما ذكرت ... ولكن سبق السيف العزل . . فان العالية مخطوبة . . »

فاستبعد اسماعيل ان تخطب بنت الخليفة ولا يعلم هو بخطبتها وظن الرشيد يقول ذلك ليدفع طلبه فقال « العالية مخطوبة ؟ اني لم اعلم ذلك ولو علمته ما اقدمت على طلبها ولم اكن اظن احداً ينال ذلك غير ابن عمها . . . »

فتحرك الرشيد في مجلسه ونظره على البساط وقال وهو يحاول اخفاء ما كاد يظهر في وجهه من الانفعال « نعم .. لكن وزيرنا جعفر طلبها لابرهيم بن عبد الملك بن صالح ابن عمنا فلم نرد طلبه .. »

فلما سمع اسماعيل قوله اطرق وتشاغل ببلع ريقه وقد عظم عليه فشله ولكن غضبه من نفوذ جعفر الى هذا الحد كان اعظم عليه من ذلك الفشل

على انه تماسك مخافة أن يظهر غضبه فيؤول الى النقمة عليه وظل مطرقاً والرشيد ينظر اليه ويراقب ما يبدو منه وهو يود الاكتفاء بما تقدم . فلما طال سكوت اسماعيل قال الرشيد « انه ليسؤنى أن أرد طلبك لولا ما قدمته من وقوع الخطبة وانت تعلم ان الرجوع عن ذلك لا يليق . . فاطلب لابن أخينا منة أخرى »

الفصل الاربعون

الفشل

فرفع اسماعيل بصره واغتنم رغبة الرشيد في التعويض عن فشله وقال « صدق مولاي ان الرجوع عن الوعد لا يليق بمقامه وأنا أعلم ذلك لثقل ما أقاسيه من رجوعي بخفي حنين بعد ان وعدت ابن أخيه بهذا الشرف . وقد تسرعت بوعدى ولكننى لم ارتكب ذلك الا رغبة فى صيانة الدولة لما يعلمه مولاي من غيرتي على سلامتها . . . »

فادرك الرشيد ما يعرض به من الرغبة في ارضاء ابن أخيه الهادى ليشغله عن طلب الخلافة أو الوقوف في سبيلها . وقد تعود الرشيدان يسمع من اسماعيل ما هو أكثر صراحة من ذلك مما لا يتجرأ سواه على عشر معشاره ومع ذلك فان هذا التعريض أثار غضبه لان الخلفاء العباسيين لم يكونوا يغضبون لشيء مثل غضبهم لما يشتم منه رائحة التعرض للملك ولو تلميحاً . ولكنه تمالك وكظم وتجاهل وقال « انك شهير بغيرتك على دولتنا وهي انما تتأيد بآراء أمثالك من شيوخ الحكمة وأرباب الرأي السديد وهم قليلون . وأما ابن أخي فانه من لحمي ودمي واحب له ما يرضيه فهل من شيء تطلبه له غير العالية ؟ »

قال « أطال الله بقاء أمير المؤمنين فانى أراه يبالغ في مجاملتي ولكن يسرنى انه عالم بالغاية التى أرمى اليها . . . فاتقدم اليه أن يتولى ابن أخيه

عملاً يشتغل به . . . ونظراً لقرابته من الخليفة فأطلب له ولاية مصر أو خراسان . . »

فوجم الرشيد عند سماعه ذلك وبدت البغتة في عينيه وهزّ رأسه استغراباً لذلك الاتفاق وقال « وهـذا لا سبيل اليه ياعماه فاني وعدت وزيري في صباح الامس بولاية مصر لا برهيم المذكور وأما خراسان فقد وعدته بها لنفسه منذ أيام وقد كتمت ذلك ولم أخـبر أحداً به ولولا أنك اسماعيل ما بحت به لك »

فضاق اسماعيل ذرعاً من توالي الفشل على هـذه الصورة وعاد الى الاطراق واعمال الفكرة ولم ير بداً من التصريح بغرضه من تلك الاقتراحات فعاد الى ما فطر عليه من حرية القول ونسي موقفه وما يعلمه من سوء العقبى اذا غضب الرشيد فقال « يأذن لي أمير المؤمنين ان أبوح له بما في ضميري فاخاطبه باعتبار انه هرون بن محمد وانا ابن عمه اسماعيل بن يحيى . . . » وتنحنح واعتدل في قعوده والرشيد يتجلد في سماع قوله وهو يكاد يتلقفه بعينيه من شدة التفرس

فقال « أنت تعلم غيرتي على سلامة هذه الدولة وشدة محافظتي على بقاء هذا الخاتم بيد هارون وهذه البردة على كتفيه وتعلم أيضاً ما قد يجول في خاطر ابن اخيك . . وأنا اعلم قصر باعه عن نيله ولـكن المصلحة وحسن السياسة يقضيان علينا بملافاة أسباب الفتن لئلا يرى أعداؤنا غرّة منا فيغتالونا وهم كثيرون . يكفي منهم الروم في القسطنطينية والامويون في الاندلس — وانا اعتقد عجزهم عن الفوز ولكن الحكمة تستدعي التكاتف وجمع الكلمة . وهذا هين على الرشيد اذا استخدم ذكاءه ودهاءه فيشغل اهل المطامع من هله بخدمة دولته بدلاً من أن يتفرغوا لاقلاق راحته . . . »

فبادر الرشيد الى قطع كلامه خوفاً من استرساله في الحديث حتى يصرح باكثر من ذلك فيغلب الغضب عليه ولا يقوى على التمالك فقال « قد كان بودنا ان نولي ابن اخينا مصر لولا ما قدمته من الوعد بها لا برهيم . . فهل ترى لي حيلة اخرى ؟ »

فاسرع اسماعيل بالجواب قائلاً وقد غلبت عليه الانفة والاستقلال بالرأي « لى حيلة واحدة . . »

قال « وما هي ؟ »

قال وكفّاه على ركبتيه كانه يتحفز للقيام « تبايع له بالخلافة بعد محمد وعبد الله (الامين والمأمون) ـ افعل ذلك ولو على سبيل الترضية . . . »

فلما سمع الرشيد قوله القى القضيب من يده على السرير ونهض بغتة ونزل الى البساط بسرعة حتى انحرفت البردة عن كتفيه وكادت تسقط وقد نسي موقفه ومنزلة اسماعيل عنده ثم اصلح البردة وجعل يخطر في الايوان فنهض اسماعيل وأدرك ان بقاءه هناك اصبح خطراً ولا فائدة منه وأجل التصريح بما في نفسه لفرصة أخري . فتراجع من موقفه وقد رأى بنهوض الخليفة مسوغاً لخروجه من حضرته لان ذلك من علامات الصرف عند الخلفاء ولكنه لم يشأ الخروج على تلك الصورة لئلا يستغشه الرشيد أو يسيء الظن به فقال « أظن أمير المؤمنين ندم على ما أباحه من اطلاق لسانى بين يديه وأظنني تطاولت في الدالة عليه الى ابعد مما ينبغي فدخلت في ما لا يعنيني . . فاعتذر له عن جسارتي . . . »

وكان الرشيد قد وقف وتشاغل بقراءة بيتين من الشعر منقوشين على حائط الايوان فلما سمع قوله تحول اليه وتكلف ابتسامة لم تخف غضبه وقال « ان اسماعيل عندنا في المقام الذي تعلمه وله فضل النصح والمشورة على الدولة فلا يزعجك ما رأيته من وقوفي فجأة . واذا غضبت فان غضبي لك لا منك وكيف اغضب من شيخ بنى هاشم وحكيم بنى العباس ؟ ولكن ساءني انك لم تطالب امراً ممكناً لكي أجيبك عليه حالا مع رغبتي في رعايتك واكرامك . . »

فادرك اسماعيل من خلال قوله ما كان يحاول اخفاءه من الغضب ويتكلفه من التلطف في الجواب فقال « اشكر لمولاى تفضله وحسن قصده والظاهر أن سوء طالع ذلك الرجل قد أوجب هذا الاتفاق . . . اذ لكل وقت طالع وكأن طالع هذه الساعة لا يوافق حظه . . . فهل يأذن مولاى بانصرافي

الآن ونؤجل ذلك الى ساعة ابرك من هذه ؟ »

فسر الرشيد لطلبه الانصراف في تلك الحال وقال « لا بأس من انصرافك يا عماه ؟ »

فرجع اسماعيل وهو منحن يمشي القهقرى بين يديه على العادة في الخروج من مجالس الخلفاء حتى وصل الى الستارة وخرج والرشيد واقف ينظر اليه وقد قام في نفسه من الغضب ما اقلقه وحبب اليه الخلوة بنفسه

الفصل الحادي والاربعون

عبد الملك بن صالح

اما اسماعيل فخرج تواً الى جواده وقد ندم على مجيئه فركب ومشى الغلامان في ركابه وهما غافلان عما يتقد في قلبه من الغضب وما يتردد في ذهنه من الاسف على حال تلك الدولة بما يعلمه من تضارب الاحزاب واختلاف الاغراض . فوصل الى قصره والشمس قد تكبدت السماء فوجد ابن الهادي في انتظاره واستفهمه عما جرى فقص عليه بعض الخبر وأبلغه عذر الرشيد في امتناعه عن تزويجه بالعالية وبالغ في الاعتذار عنه لئلا يهيج غضبه ولم يخبره بطلب ولاية مصر ولا ولاية العهد الى أن قال « وانى أسف لما اتفق لى من الفشل والرشيد أكثر أسفاً منى على ذلك ولكن لا حيلة لنا في الواقع فاصبر وكن عاقلاً وسنغتنم وقتاً أبرك من هذا الامر أهم من هذا فان الرشيد حسن الظن بك . . »

فلم يخف على جعفر غرض اسماعيل من تلطيف الخبر ولكنه ساير وقال « اني صادع بامرك . . . ولكن هل تعلم السبب الذي بعث على خطبة العالية لابرهيم ؟ »

قال « كلا . . ولكن للوزير دالة على الخليفة ولعبد الملك دالة على الوزير فالظاهر انه تقدم اليه ان يتوسط له بخطبتها عند امير المؤمنين وهو ابن عمها وكفءٌ لها فأجاب طلبه »

قال « لو كان الامر كذلك لهان ولكنني اقص عليك السبب فتتحقق ما قلته لك من استخفاف هؤلاء الموالي بالخليفة واهله ـ اخبرني جاسوس لي عند جعفر في صباح هذا اليوم ان هذا الوزير كان في مجلس انس خلا فيه بندمائه فلبس الحرير وتضمخ بالخلوق وكذلك فعل سائر جلاسه وامر حاجبه ان يحجب عنه كل احد الا عبد الملك بن بحران قهرمانه . فسمع الحاجب لفظ عبدالملك ولم يسمع لفظ ابن بحران . وكان عبد الملك بن صالح ابن عمنا يراقب فرصة يخاطب بها الوزير في بعض حوائجه فلما سمع بذلك المجلس قدم الى داره فجاء الحاجب وقال لجعفر ان عبد الملك في الباب فظنه ابن بحران فامر بادخاله فدخل وهو في سواده وقلنسوته فرأى القوم في لباس المنادمة . ولما رآه جعفر أربد وجهه وانت تعلم ان عبد الملك لا يشرب النبيذ فلما رأى تلك الحال خلع السواد والقلنسوة وطلب ثياب المنادمة ودخل وسلم وقال « اشركونا في أمركم وافعلوا بنا مثل فعلكم بانفسكم » فجاء الخادم وألبسه ثياب المنادمة واستدعى الطعام فاكل وبنبيذ فأتوه برطل فشربه ثم قال لجعفر والله ماشربته قبل اليوم . فزاده جعفر من النبيذ وأتوه بالخلوق فتضمخ ونادم القوم احسن منادمة فذهب عن جعفر خجله . فلما أراد عبدالملك الانصراف قال له جعفر اذكر حوائجك فاني لا استطيع مقابلة ما كان منك . فقال ان في قلب امير المؤمنين موجدة عليّ فتخرجها من قلبه وتعيد اليّ جميل رأيه فيّ . فقال قد رضي عنك امير المؤمنين وزال ماعنده منك . فقال وعليّ اربعة آلاف الف درهم ديناً . قال تقضي عنك وانها لحاضرة ولكن كونها من امير المؤمنين اشرف بك وأدل على حسن ما عنده لك . قال وابرهيم ابني أحب ان ارفع قدره بصهر من ولد الخلافة . قال قد زوجه امير المؤمنين العالية ابنته . قال وأوثر التنبيه على موضعه برفع لواء على رأسه قال وقد ولاه امير المؤمنين مصر [1] فانظر الى هذه الجسارة التي ليس اغرب منها الا رضاء الرشيد بها وقد فعل جعفر ذلك مكافأة على شرب النبيذ ونحن نلوم ابن عمنا الامين مع صغر سنه على شربه ونعده خليعاً وهذه

(١) ابن خلكان ١٠٥ ج ١

هي الخلاعة ولا يخفى عليك اضرارها بالملك . ومع ذلك فان الرشيد اطاع جعفر ولم يهمه ما يترتب على ذلك من ضعف الملك »

وكان اسماعيل يسمع كلام ابن الهادي وهو يكاد يتميز غيظاً ولكنه اختصر في الجواب واظهر الاستخفاف بالقصة وقال « هكذا ابلغك الجاسوس ولايخلو بلاغه من غلو ومع ذلك فليس هذا بالامر الهام فأنا أتقدم اليك ان تكتم ما دار بيننا وتصبر لنرى ما يكون »

فسكت جعفر عن احترام لا عن اقتناع فقال اسماعيل « فاذهب الى البصرة وأنا موافيك اليها بعد يومين »

قال « سمعاً وطاعة » فودعه وأظهر انه يتأهب للسفر فاشتغل اسماعيل عنه فاختفى يوماً ثم أتى الى الفضل بن الربيع في منزله وكان الفضل لايزال مفكراً في اسلوب يبلغ به خبر العلوي الى الرشيد وقد عاد محمد الامين واخبره بحديث والدته أم جعفر ومادار بينها وبينه من خبر العلوي وما في نفسها على البرامكة . ولم يكن الفضل يجهل ذلك فلما جاءه ابن الهادي رحب به فاخبره بما سمعه عن امر عبد الملك بن صالح وزواج العالية وما يدل عليه ذلك من ضعف الخليفة واستبداد البرامكة وحرضه على ابلاغ خبر العلوي الى الرشيد

فقال له الفضل « قد أعددت كل شيء ...؟ »

قال « وهل عينت من يذهب بذلك ؟ »

قال « ليس لنا الا ابو العتاهية فانك تشتريه بالمال وله دالة على الخليفة »

قال وقد تذكر امراً قد نسيه « وهل عاد من اقتصاص أثر الطفلين ؟ »

قال « عاد وقد قبض عليهما وحبسهما في مكان امين لوقت الحاجة »

فأبرقت اسرة جعفر وقال « لقد قتل البرمكي لا محالة . . والآن دبر ما تراه لابلاغ الخبر الى الرشيد فاني منصرف من بغداد لان عمي اسماعيل ألح علي بالانصراف وأنا واثق انك كفء لتمام العمل . . »

قال « كن مطمئناً »

فودعه ورجع وهو يتوهم أنه أغرى الفضل واستخدمه في مصلحته والفضل يعتقد أنه استخدم ابن الهادي لغرضه لانه اذا سقط البرامكة عادت

الوزارة له ولم يخف عليه مافي نفس ابن الهادي على الرشيد وانه انما يسعى في مصلحة نفسه لارجاع الخلافة اليه ولذلك كان يوهمه أنه ساع في مساعدته على نيل الخلافة وهو انما يشتغل لاسترجاع الوزارة له ولايهمه كانت وزارته للرشيد أو لسواه . فكانت النيات مختلفة والدسائس متنوعة والمساعى متضاربة ولكن الغرض متفق فيها كلها وهو اسقاط البرامكة بأية وسيلة كانت . واذا أراد الله أمراً هيأ له أسبابه

الفصل الثانى والاربعون

المناجاة

فلندع الفضل في مساعيه ولنعد الى الرشيد فقد تركناه في الايوان وحده فلما خلا بنفسه ساءه خروج اسماعيل على تلك الصورة مع رفعة مقامه وجلالة قدره فأخذ يفكر فيما دار بينهما ويردد ماقاله له فلم يجد في امكانه أن يفعل غير مافعله . فجعل يخطر في الايوان وقد ذهب وجدانه وتراكمت عليه الهواجس فتذكر حاله مع وزيره وما بلغ اليه من نفوذ الكلمة عنده حتى أصبح أكثر وجاهة ونفوذاً من أبناء عمه ثم رجع الى صوابه فرأى أنه محمول على ذلك ببواعث الاحوال لان الوزير قابض على مصالح الدولة يدير شؤونها ويتصرف في أعمالها بحكمة ودراية . وقد أراحه من مشاغلها وخفف عنه أثقالها فضلا عما بينهما من روابط الولاء والمحبة وما لابيه يحيى من الفضل عليه وهو الذي أقامه على منصة الخلافة بحسن تدبيره . ثم اعترض حسن ظنه به مايعلمه من ميله الى الشيعة العلوية وما يراه من كثرة الطاعنين به ولكنه كان يحمل طعنهم عليه محمل الحسد منه

وبينما هو يمشي في الغرفة ويفكر على هذه الصورة لاحت منه التفاتة الى السرير فرأى القضيب الذي كان قد وضعه هناك فتقدم ليتناوله ويتشاغل به فى أثناء هواجسه فوقع نظره على بطاقة وراء الوسادة فالتقطها وفضها

وقرأها فاذا فيها الابيات التي قرأتها أم جعفر زوجته على ابنها محمد وقد تقدم ذكرها ـ فلما بلغ الى قوله :

ونحن نخشى أنه وارث ملكك ان غيبك اللحد
ولن يباهي العبد أربابه الا اذا مابطر العبد

توارد الدم الى رأسه وحمي غضبه فاعاد نظرة الى البطاقة فقرأها ثانية وهو يعمل الفكرة وقد نسي البحث عن سبب وضعها هناك لعظم ما كان من تأثيرها على ذهنه فعاد الى التفكير في جعفر وما بلغ اليه من الثروة والاستبداد حتى يزوج بنات الخليفة ويولي الامصار لمن يشاء ويهب الاموال بلا مشورة لايخشى بأساً ولا يخاف اعتراضاً فقال في نفسه « لقد آن لك ياهرون أن تستيقظ من رقادك وتنظر في أمر هذا المولى وما بلغ من تطاوله فانه لايلبث أن يمد يده الى أعظم من ذلك والعياذ بالله » ثم وثب من موقفه والقضيب مشهر بيده كأنه يهاجم عدوا وهو يقول :

ان سهامنا اذا وقعت بقدر ماتعلو بها رتبه
واذا بدت للنمل أجنحة حتى يطير فقد دنا عطبه (١)

ثم تراجع ونظر حوله فرأى ماهو فيه من النعيم والأبهة وتصور أنه اذا مات أفضى الامر الى جعفر لانه لايجهل ضعف ابنه الامين ويعرف قوة المأمون وهو ابنه أيضا ولكن ضلعه مع الفرس لانه ربى في حجر جعفر وشب على حب الشيعة فاذا أفضى الامر اليه وجعفر حي خرجت الخلافة من بني العباس . فندم على تسليم المأمون الى جعفر واهمال الامر الذي كان ينبغي أن ينظر فيه قبل كل شيء وهو بقاء الدولة لبني العباس . ثم تذكر كيف حرضه جعفر على المبايعة للمأمون ولم يكف عنه حتى أطاعه فتوهم أن ذلك انما فعله لينقل الخلافة الى الشيعة بعد ذهابها من يد الامين فحرق أسنانه ندماً ثم عض أنملته وهز رأسه وقال :

لقد بان وجه الرأي لي غير أنني عدلت عن الامر الذي كان أحزما
فكيف يرد الدر في الضرع بعد ما توزع حتى صار نهباً مقسما

(١) المسعودي ٢٠٨ ج٢

أخاف التواء الامر بعد استوائه وأن ينقض الحبل الذي كان أبرما

وعاد فاسترجع رشده وأعمل فكرته في حقيقة الواقع فغلب عليه الخوف من جعفر .. لما يعلمه من كثرة مريديه وأنصاره وفيهم جماعة كبيرة من نخبة رجال الدولة حتى بني هاشم ممن غمرهم بالعطاء وقيدهم بالانعام . . . فكانت هذه الهواجس تتردد في مخيلته وهو يمشي في الايوان ويداه وراء ظهره . واتفق وهو في ذلك أن وقف أمام الستر فقرأ عليه بيتين مطرزين بالقصب هذا نصهما :

وإياك والامر الذي ان توسعت موارده ضاقت عليك المصادر

فما حسن أن يعذر المرء نفسه وليس له من سائر الناس عاذر

فلما قرأهما أمسك نفسه وعاد الى صوابه ونظر الى البطاقة في يده وقال « لعل الذي كتب هذه الابيات من حساد جعفر وهم كثيرون واني في كل حال صابر له أترقب الفرصة للاطلاع على الحقيقة »

الفصل الثالث والاربعون

باب الرشيد

قضى في تلك الخواطر وأمثالها حيناً وهو يقف تارة ويمشي أخرى وعليه ذلك اللباس الفخم واذا بالحاجب دخل وهو يقول « ان الشعراء والندماء بباب العامة منذ الصباح لانه يوم الجلوس لهم فهل يأمر أمير المؤمنين ببقائهم أو بصرفهم ؟ »

فلما سمع الرشيد قوله انتبه لنفسه كأنه هب من رقاد وتحير في أمره لانه في حال لا يروق له معها مجالسة الندماء والشعراء وانما يفضل الخلوة ولكنه استنكف من أن يشعر أحد بقلقه اذا صرف الشعراء فقال « من في الباب من هؤلاء ؟ »

قال « هم كثيرون وفيهم المقيمون في بغداد من أهل الرواتب المعينة والارزاق الجارية وفيهم الوافدون للاستجداء من أطراف البلاد »

فقال « أما الوافدون فنأذن لهم في وقت آخر اصرفهم الآن وقل لصاحب بيت المال أن يحسن جوائزهم ويطيب خواطرهم .. ومن بالباب من أهل الرواتب ؟ »

قال « فيهم من العلماء الاصمعي والكسائي وأبو عبيدة . . » فقطع كلامه وأشار اليه بيده ولسان حاله يقول « دعني من العلماء واذكر غيرهم »

فقال « أما الشعراء فمنهم الحسن بن هانيء (أبو نواس) وأبو العتاهية ومروان بن أبي حفصة . . . واما . . . »

فأشرق وجه الرشيد عند سماع اسم مروان لانه كان يستلذ شعره لما فيه من الطعن بالعلويين ولكنه لم يجد في نفسه راحة لسماع الشعر أو الادب وعلم انه لايجلو مافي خاطره غير الغناء فقال « دع هؤلاء الشعراء الثلاثة فقط يدخلوا الى قاعة الشراب في هذا القصر واخبرني هل بباننا أحد من الندماء والمغنين والملهين »

قال « أما المغنون فرأيت منهم بعض أصحاب مولانا ابراهيم بن المهدي أخي أمير المؤمنين الذين هم على طريقته في الغناء كابن جامع وابن نابه وابن أبي العوراء ويحيى الملكي ورأيت بعض اصحاب اسحق الموصلي المعجبين بطريقته وسمعتهم يتقارعون في أي الطريقتين أفضل . . . »

فقطع الرشيد كلامه وقال « دعنا من هذه الطبقات فاني لاأرى الاجتماع للمناظرة في طرق الغناء اليوم ... فادع برصوما الزامر وأبا زكار الربابائي الاعمى وحسيناً الخليع . واما الغناء فأحب سماعه من قيان القصر ... » ثم أطرق وقال « ولكن ذلك لايحلو الا بوجود ابراهيم الموصلي . . . . ادع لي مسروراً الخادم .. »

فأشار مطيعاً وخرج ثم أتى مسرور بسيفه وفظاظته وحيا فقال له الرشيد « الى بابراهيم المغني على عجل .. »

فظل مسرور واقفاً فعلم الرشيد انه يريد التكلم فقال « ما بالك لاتذهب ؟ »

قال « لاأدري اين اجد ابراهيم الآن وأمير المؤمنين قد اذن له ان

يختلي باهله يوماً في الاسبوع لا يطلبه فيه .. وهو هذا اليوم »

قال « هاته حيثما كان ولا تراجعني »

فلم يسعه الا الطاعة فخرج وصفق الرشيد فجاءه بعض الغلمان فقال الى بصاحب اللباس وهو الذي يلبس الخليفة ثيابه فاتى . فقال له « انى عازم على مجلس منادمة فالبسني ثيابها » فخرج ثم عاد ومعه عدة وصفاء يحملون تلك الثياب وهى غلالة وشي منسوجة بالذهب وعمامة صغيرة موشاة وأزار رشيدي عريض العلم مضرج ـ تلك كانت ملابسه الصيفية في مثل هذا المجلس . وجاء غلمان آخرون في أيديهم المباخر فيها العود والند . وفي أيدي آخرين جامات الطيب . فبدأ صاحب الملابس بنزع ماعلى العمامة من الحلى حتى حل العمامة وأخذ البردة والجبة ثم البسه الغلالة وعممه وناوله الازار فاتشح به . فلما فرغ من لبسه خرج من باب في الايوان يؤدي الى دار النساء ومازال ينتقل من رواق الى آخر ومن دار الى أخرى حتى دخل داراً مفروشة الصحن بالرخام وملبسة الحيطان بالوشي المنسوج بالذهب. ومنها الى قاعة أرضها وحيطانها ملبسة بالوشي المذكور وقد نصبوا له هناك سريراً من الصندل وأرخوا في منتصف الغرفة ستراً من ذلك الوشي المطرز عليه نقوش جميلة وحول أرض الغرفة الوسائد من الوشي المطرز وليس عليها أحد لان الشعراء يجلسون في القسم الآخر من الغرفة وبينه وبينهم الستر

فلما جلس هناك ووقف الغلمان بين يديه تذكر انه جائع ولم يتناول الطعام منذ الصباح فامر صاحب الطعام أن يأتيه ببعض الاطعمة المستعجلة فنصبوا له سماطاً وأتوه أولا بالمرق من السكباج تنشيطاً لجسمه ثم جاءوا بمطبوخات البقول ثم الدجاج فالشواء من الحمام او الدراج فانواع السمك فبعض مايطبخ بالتوابل من اللحم والبقول ثم قدموا له رقاقاً من السنبوسج المحشية باللحم والدهن عليها التوابل من الفلفل والزنجبيل . ثم الحلوى من الفالوذج واللوزينج واخيراً النقل للتعلل بعد الطعام . وكان يأكل وخاطره قلق حتى اذا فرغ من الطعام سمع عوداً يضرب ضرباً مطرباً على نغم لم يسمعه من قبل

فاصاخ بسمعه فاطربه ذلك الصوت وعلم انه آت من الرواق وبينه وبين ذلك المكان ستر فشعر بذهاب الانقباض عن صدره شيئاً فشيئاً وهو يعجب لذلك النغم الغريب وقد أدرك من نعومته انه صوت جارية فصاح «من يغنينا في الرواق جزاه الله خيراً ؟ »

فسمع الجواب من وراء الستر « هذه قرنفلة وصوتها مثل رائحتها » فعلم الرشيد ان الذي يخاطبه حسين الخليع فصاح فيه « قبحك الله وأي قرنفلة ؟ »

فقال « هي جارية أرسلها مولانا ولى العهد هدية لامير المؤمنين في هذا الصباح . غني ياقرنفلة ان الخليفة طرب لصوتك فيا لسعادتك . . . ويالبتني كنت مكانك فيغنيني ذلك عن اللطم والصفع على الاقل »

فلما سمع الخليفة مجونه ضحك وضحك سائر السامعين الاحسيناً المذكور فانه استأنف الكلام قائلا « هذا هو حظى بتقربي من الخلفاء أنا أبكي وهم يضحكون . . . فعسى ان يسعدني الحظ وأصير قرنفلة أو وردة يشمني الناس ويسمعون صوتي او يرفقون بجلدي . . . ولكنني أخاف لادبار سعدى ان يجاب دعائي ويقع الالتباس في طلبتي فيجعلني القضاء بطيخة او سكباجة فيأكلني الناس ويتمتعون بي واصير انا الى ظلمة الاحشاء وبئس الظلمة . غني ياقرنفلة غني . . اطلب من الله ان يبقيني على ما انا . . وقد قيل نحس تعرفه ولا سعد تتعرف به . . »

فاغرب الرشيد في الضحك ولم يبق احد هناك الا قهقه ثم سكتوا جميعاً ينتظرون مايبدو من الرشيد . ولم يكن عنده احد من الندماء او الخاصة الذين يجالسونه بلا حجاب فلم يكن يرى وجهه في ذلك المجلس الا الغلمان والوصائف الوقوف في خدمته او الترويح له . وسكت الرشيد لحظة وهو يغالب هاجساً مما كان فيه ذلك الصباح ثم قال « قد علمت ان هذه القينة جديدة عندنا منذ سمعت ضربها وغناءها مع كثرة من في هذا القصر من القيان . . . قبح الله ابراهيم الموصلي اين هو ؟ »

فقال الحاجب « قد ذهب مسروراً في اثره ولم يأت بعد »

فقال انصبوا الستارة لهذه المغنية وضموا اليها احسن من في قصرنا من القيان ممن اتقن الصناعة على يد ابراهيم .. وهاتوا الشراب .. »

الفصل الرابع والاربعون

مجلس المنادمة

فسر السامعون بتلك الاوامر لما سيشنف آذانهم من معجزات الطرب . وكان في قصر الرشيد ثلثمائة قينة فيهن العوادة والجنكية والمزهرية والطنبورية وغيرها [1] من المتقنات بالضرب على آلات الطرب وان تفاوتن في المنزلة لديه بتفاوت الجمال ودقة الصناعة ـ غير ألفي جارية لا يحسن الغناء وهن السراري . فاسرع الغلمان لتدبير ذلك . وكان المنوط بالسراي والقيان مسرور الخادم وهو غائب فناب عنه قيم الجواري ثم جاء صاحب الشراب بمائدة الشراب وما تحتاج اليه من الاباريق والاقداح من البلور والذهب والفضة وعليها النقوش على نحو ما وصفناه في مصطبة الامين . وأما الاشربة التي تعاطوها في ذلك المجلس فأنواع الانبذة المصنوعة من عصير العنب ومنقوع التمر أو التفاح أو المشمش أو غيرها من الفاكهة اللذيذة وأشربة من محلول العسل أو الدبس أو غيرهما. فلما انتظمت القيان للغناء دار الساقي بأباريق الشراب على الرشيد فشرب قليلا وهو محجوب عن القيان بستارة وعن الشعراء بستارة أخرى ومع القيان برصوما وأبو زكار . وكان كلما غنت احداهن صوتاً عرفها وطرب لها وناداها باسمها . ثم صاح بالحاجب فأتى فقال له « قل للحسن بن هانىء ينشد ما عنده »

فبلغه امر الرشيد فقال أبياتاً كان قد هيأها فأنشدها انشاداً على عادة الشعراء في مجالس الخلفاء فطرب الرشيد وصاح « وانت يا ابن ابي حفصة »

فقال « لبيك يا امير المؤمنين » واخذ ينشد قصيدة نظمها في مدح الرشيد ضمنها التعريض بالعلويين . فاذكره ما كاد ينساه من هواجسه

(١) اعلام الناس ١١٣

فصاح فيه « دع عنك هـذا الآن . . . قل لابي العتاهية هل هو باق على الزهد في الشعر ؟ »

فأجاب ابو العتاهية « ان ما نسمعه يا امير المؤمنين من اسباب الطرب يرمي الزهد بالمنجنيق .. وقد صدق القائل ان الغناء رقية الزناء »

فاستلطف الرشيد تعبيره وضحك وهو يقول « هذا هو الشعر بعينه .. فقل بيتاً أو بيتين »

قال « سمعاً وطاعة وسأتلو ما يحضرني بعد قليل لاني تركت النظم من زمن طويل

وبينما هم في ذلك دخل مسرور فلما رآه صاح فيه « ويلك أين ابراهيم »

قال « هو بالباب يا مولاي . . لقد أتيت به من أقاصي الارض . . »

قال « ادخله الي ليكون قريباً من هؤلاء القيان يعلمهن أو يساعدهن »

فدخل ابراهيم وسلم فأمر له الرشيد بالجلوس وقال له « نظننا أزعجناك لدعوتنا إياك على غـير انتظار . . . ولـكننا آثرنا لذتنا على راحتك . . . فاعذرنا »

فخجل ابراهيم لهذه المجاملة وقال « نحن عبيد امير المؤمنين واذا دعانا الى خدمته فقد شرفنا ورفع منزلتنا ... »

فقطع الرشيد كلامه وقال « اسمع الغناء الجـديد . . . » والتفت الى صاحبة ستارة القيان وقال « ان ابراهيم استاذ المغنين يحب سماع ذلك الغناء الجديد »

فصاحت الجارية « غن يا قرنفلة . . »

فلما سمع الموصلي اسمها ابتسم وقال « قرنفلة هنا ان هذه المغنية نادرة في رخامة الصوت واتقان الصنعة وطالما كنت أتمنى دخولهـا في جملة قيان القصر .. وهي من جملة الجواري البيض اللواتي تعلمن الغناء على يدي ومن أكثرهن براعة واتقاناً »

قال الرشيد « ان ولدنا محمداً أهداها الينا في هذا اليوم ولم أر وجهها بعد . . . »

قال « ووجهها جميل يا مولاي »

فصاح حسين الخليع من وراء الستر « نحمد الله لان استاذها علمها الغناء فقط ولم يعلمها الجمال »

فضحك الرشيد وأمر الساقي فصب له قدحاً ولابراهيم قدحاً وقال « ان حسيناً خفيف الروح .. اشرب هذا القدح يا ابراهيم »

فصاح حسين الخليع من الداخل « جزى الله امير المؤمنين خيراً لانه انصف بيني وبين مغنيه فأعطاني خفة الروح واعطاه القدح كأن خفاف الروح لا يشربون لئلا يزدادوا خفة فيطيروا »

فضحك الرشيد وقال لابراهيم بصوت منخفض « قبحه الله رمى حجراً فأصاب اثنين فجعلني من الثقلاء وهو لا يدري »

فسمع الخليع قوله فاستدرك خطأه وقال « أستميح عذر امير المؤمنين فان منع الشراب عني قد اسكرني فخلطت . . . ورميت القول جزافاً . . . ولكن صاحب الحاجة يعرف حاجته ولذلك فلا أظن كلامي تجاوز ابراهيم خطوة واحدة .. »

فضحك ابراهيم وقال « كن مطمئناً يا حسين فاني قد حبسته عندي فاكفف عني »

الفصل الخامس والاربعون

تغير الحال

ثم قال الرشيد « نسمع يا قرنفلة .. »

فأخذت تضرب على العود وحدها وتغني والرشيد يبالغ في استحسان صوتها حتى حسدتها رفيقاتها وفيهن من كانت لها حظوة كبرى عند الرشيد فسمع الخليفة لغطاً وراء الستار عقبه ضحك فقال « وعلى أي شيء يضحكن »

قالت صاحبة الستارة تقول « ضياء (احدى القيان) ان امير المؤمنين معجب بقرنفلة وهي لا تحسن الا صوتاً أو صوتين تعودتهما فاذا امر بعض

الشعراء بنظم بيتين تغنيهما ارتجالا فيظهر الفرق »

فصاح الرشيد « احسنت احسنت . . الي أبا العتاهية ببيت أو بيتين مما نظمته الآن »

قال « لبيك يا أمير المؤمنين .. هل أقول وعلي الامان مما ربما كان ؟»

فاستغربوا سؤاله ولا سيما الرشيد ولكنه ظنه يقول ذلك من قبيل المجون خوفاً من القيان فقال « عليك الامان »

قال « وتجيزني يا امير المؤمنين غير اجازة سائر الشعراء ...لاني لم أقل الشعر من زمن مديد »

فازداد الرشيد استغراباً لهذه الشروط ولكنه ما زال يحسبه مازحاً فقال « ونجيزك »

قال « وتسمح لي ان أرى وجهك على حدة ؟ »

فضجر الرشيد من كثرة الشروط ولكنه تحمله وقال « ولك ذلك أيضاً . قل »

فقال « لا تعجب يا مولاي من دالتي وجساري فقد قيل :

ولن يباهي العبد أربابه إلا اذا ما بطر العبد »

فلما سمع الحضور هذا البيت ظنوه يشير الى جرأته في شروطه على الخليفة بما لم يسبق له مثيل . وأما الرشيد فحالما سمع قوله تذكر أنه قرأه منذ ساعة في تلك البطاقة فانقبضت نفسه وأدرك ان ابا العتاهية لم يقدم على ذلك الا وفي نفسه شيء يريد إسراره اليه وخصوصاً بعد ان اشترط أن يرى وجهه كناية عن مقابلته فتغير الرشيد ونسى ما كان فيه من الطرب وأصبح همه الاطلاع على سر تلك البطاقة فنهض للحال ونهض الحضور معه ولم يفهموا شيئاً مما في خاطره لانهم خليو الذهن من امر تلك القصيدة ثم صفق فجاء مسرور فأسر اليه ان يجيز الشعراء والقيان وان يأتيه بأبي العتاهية وحده وأحس الموصلي بوجوب الانصراف فاستأذن بالخروج وخرج سائر من كان في المجلس

وتحولت تلك الضوضاء الى سكوت ووقار . أما مسرور فعاد ومعه

أبو العتاهية وقد قبض على عنقه لاعتقاده أنه السبب الوحيد في انقلاب سرورهم الى كدر ولم يكن يشك في أن الرشيد سيأمر بقطع رأسه

أما أبو العتاهية فانه أقدم على ذلك الخطر طمعاً بمبلغ كبير من المال وعده به الفضل بن الربيع ومع جبنه وضعفه فقد غلب الطمع عليه حتى حمله على تلك المخاطرة ودبر هذه الوسيلة وكان مطلعاً على تلك القصيدة ولا يبعد أن يكون هو ناظمها لأم جعفر وقد علم أن أم جعفر بعثت بها باكراً وانها وضعت على سرير الخليفة في دار الخاصة ولا بد من أن يكون الرشيد قد رآها وقرأها فالاشارة الى بيت منها تبعثه على طلب المزيد فاذا استزاده قص عليه خبر اطلاق العلوي . على أنه لم يشعر بمقدار الخطر الذي عرض نفسه له الا لما رأى انقلاب ذلك المجلس من الغناء والضوضاء الى الانقباض والسكوت فخفق قلبه وخاف على حياته وخصوصاً بعد ان قبض مسرور على عنقه وجاء به الى ما بين يدي الرشيد فانه دخل تلك الغرفة وقد انحرفت عمامته وتشوشت لحيته وارتعدت يداه واصطكت ركبتاه حتى لم يعد يستطيع الوقوف . فالما وقع نظره على الرشيد ترامى على قدميه وأخذ في تقبيلهما وغلب عليه البكاء فتحقق مسرور عند ذلك أنه مذنب ولا يلبث أن يسمع أمر الخليفة بقتله فوقف ويداه على قبضة الحسام وعيناه على شفتي الرشيد

أما الرشيد فلما رأى ما استولى على أبي العتاهية من الرعب وما أظهره من التذلل والاستعطاف بعد أن أعطي الامان أشفق عليه وقال « لا بأس عليك يا أبي العتاهية . . انك شاعرنا ونحن نكرم الشعراء . . قم لا تخف . . » فما صدق ان سمع تلك العبارة حتى وقف وتكتف وهو مطرق لا يرفع بصره عن الارض والرعشة ظاهرة في ركبتيه ويديه وظل ساكتاً خائفاً حتى سمع الرشيد يأمر مسروراً بالخروج فرمقه بطرف عينيه فلما تحقق خروجه اطمأن خاطره ورفع بصره الي الرشيد بخشوع

الفصل السادس والاربعون

كشف السر

فاتكأ الرشيد على السرير وأومأ اليه أن يقعد فقعد جاثياً على البساط والدموع لا تزال في عينيه فقال له « لا تخف يا ابا العتاهية انك في امان »

فأجاب وصوته مختنق « أنا آمن يا امير المؤمنين ؟ »

قال « أنت آمن اذا صدقتني »

قال « آمن منك ومن وزيرك ؟ »

قال « لا تكثر السؤال .. اذا أمنك امير المؤمنين فلا خوف عليك »

فتنفس الصعداء حتى هدأ روعه ثم قال « وسيعلم مولاي اني انما ركبت هذا المركب الخشن استهلاكا في سبيل خدمته »

قال وقد مل الانتظار « قل لي من أين عرفت هـذا الشعر ومن اطلعك عليه »

قال « لم يطلعني عليه احد »

قال « وكيف عرفته ؟ ألعله من نظمك ؟ »

قال « نعم »

قال « وما الذي حملك على نظمه ؟ »

قال « حملني على ذلك امر عرفته وعلمت ان ليس بين رجال بطانتك من يجسر ان يطلعك عليه فاحتلت هذه الحيلة في إيصاله اليك فارجو أن لا أكون قد أسأت الى نفسي والى أهلي »

قال « لا بأس عليك . . . وما هو ذلك الامر وما دخل وزيرنا فيه »

قال « أنه يتعلق به وحده ياسيدي وسأقصه عليك فاذا تحققت وقوعه فأنا آمن وإلا فدمي مهدور »

قال « اقصص الخبر ولا تخف ... »

فقص عليه حكاية العلوي ونجاته على يد جعفر الى آخر الحديث

وكان ابو العتاهية يتكلم وصوته يرتجف ويتقطع والرشيد مصغ بكل جوارحه وجأشه رابط . فلما أتى الى آخر حديثه سأله « هل انت واثق بصدق هذه الرواية ؟ »

قال « لو لم أكن واثقاً .. بل لولم أكن على يقين من الامر لم اعرض حياتي لهذا الخطر العظيم ؟ »

فتذكر الرشيد علاقة جعفر به ورفعة مقامه عنده فاكبر أن يدخل ذلك الشاعر بينهما ورأى من الحزم والحكمة أن يغالطه فاغتصب ضحكة وقال « لاريب عندي أنك أقدمت على كشف هذا الامر غيرة منك على مصلحة الدولة ولذلك فأنت أهل للشكر والجائزة . . ولكنك كلفت نفسك عناء عظيما بلا طائل لان وزيرنا لم يأت شيئاً من عند نفسه فهو لم يطلق ذلك العلوي الا بأشارتي اذ تحققت أنه لابأس باطلاقه »

فلما سمع أبو العتاهية ذلك أسقط بيده وتولاه الخجل ولكنه اطمأن باله على حياته وقد ربح المال الذي وعده الفضل به . على أنه ظل خائفاً من جعفر اذا بلغه خبر هذه الوشاية فقال « أحمد الله على أن ذلك لم يحدث الا برأي أمير المؤمنين . . وقد اطمأن بالي على حياة الوزير ولكنني أصبحت خائفاً على حياتي منه اذا اتصل به اني نقلت هذا الخبر فيحسبني من أعدائه .. »

فقطع الرشيد كلامه قائلاً « لاتخف . . فاني سأكتم ذلك عنه . . . كن مطمئناً » قال ذلك ونهض فنهض أبو العتاهية وقد هدأ روعه . أما الرشيد فانحبس غضبه حتى ضاق صدره عنه وكاد يصرعه ـ فعل ذلك رغبة في اخفاء مافي نفسه عن أعداء جعفر . ولم يخف عليه أن أبا العتاهية لم يأت من عند نفسه وأن الفضل هو الذي أرسله ولكنه اكتفى بما سمعه وصفق فجاء مسرور مسرعاً كالبرق الخاطف فقال له الرشيد « خذ أبا العتاهية وأمر صاحب بيت مالنا أن يعطيه الف دينار وأطلق سبيله »

فقال «سمعاً وطاعة يا امير المؤمنين . . . » وامسك ابا العتاهية بيده وخرج به

فلما خلا الرشيد بنفسه هاج بلباله وعادت اليه وساوسه فتذكر مادار بينه وبين اسماعيل فى ذلك الصباح وكيف رده خائباً مع قرابته وجلالة قدره مراعاة لحق جعفر وكيف تبدر منه هذه البادرة فيطلق اسيراً عهد به اليه ـ فثبت عنده ما كان يتهمه به من الميل الى العلويين والرغبة فيهم عن العباسيين ـ فلما تصور ذلك هاج غضبه ونسي موقفه وجعل يمشي ذهاباً وايباباً على غير هدى ويخاطب نفسه قائلا «هل انا في حلم؟ ايرتكب جعفر هذه الخيانة وقد احببته واكرمته ورفعت قدره وسلمت اليه مقاليد الاحكام واطلقت يديه في شؤون الدولة ؟ وهل يعقل ان يكون ماسمعته وشاية من الحساد ؟ لا يعقل ذلك . . ولكن كيف يتصور ان يغدر بي جعفر ويطلق عدواً سلمته اليه مع مايعلمه من كرهي للعلويين . بل كيف يفعل ذلك ولا يخاف على حياته ؟ وهذا ايضاً لا يعقل . . . الا ان يكون الرجل مصاباً في عقله . . لانه يعلم بطش هرون اذا غضب . . . »

الفصل السابع والاربعون

مداعبة السباع

قضى ساعة في هذه المناجاة وهو لا يستقر في موقفه واخيراً استوقف خاطره واعمل فكرته في مايجلو عنه هذه الشكوك فرأى ان يسأل جعفر نفسه عن صحة هذا الخبر فاذا كان صحيحاً بادر الى الانتقام . فأمسك غضبه وتجلد . وكان الرشيد مع سرعة غضبه وشدة بطشه قوي الارادة له اقتدار عجيب على الكظم وكتمان مافي نفسه فصفق فجاءه مسرور فقال له « قد حدث شغل يستدعي الوزير الى هنا فادع لى صاحب الطعام واذهب انت الى الوزير ادعه الي »

فسأله «ماذا اقول له ؟ »

فأجاب « قل له ان امير المؤمنين احب ان تتناول معه العشاء في هذا المساء . . ولا تقل غير ذلك .. »

قال «سمعاً وطاعة» وخرج

وكانت الشمس قد قاربت المغيب فلما جاء صاحب الطعام قال له « اعدد مائدة اتناول عليها العشاء مع الوزير ولتكن فاخرة »

فأشار مطيعاً وخرج ومكث الرشيد وحده فعادت اليه افكاره وقد تعب منها فأحب ان يلهو ريثما يأتي جعفر فخطر له ان يخرج الى حديقة القصر ينزه فيها نظره فأمر برداء تزمل به وجاء غلام البسه النعال وسواها بقدميه فخرج الرشيد الى الحديقة يتمشى بين الاشجار والرياحين الى حيث لا يعلم

فما لبث ان وجد نفسه بجانب اقفاص السباع وكان بينهما اسدقد تعود الرشيد ان يلهو بمداعبته وهو داخل القفص . فلما وقع نظره عليه شعر بشيء استلفت انتباهه وهو ارتياح طبيعي في الانسان اذا رأى الاسد او غيره من السباع في قفص . ولعل سببه الاعجاب بقوتها والدهشة من منظرها غير مايحيش في النفس من حب التمثل بها . ومنظر السباع يهيج القوة الغضبية في الانسان فكيف اذا كان غضبان ؟ فوقف الرشيد عند القفص وامر السباع ان يرمى للاسد طعامه فأتي بخروف كان قد ذبحه وجعله قطعاً صغيرة فرمي له قطعة فوثب الاسد عليها والتقمها دفعة واحدة لانها صغيرة ووقف ينتظر اخرى فنهى الرشيد السباع أن يرمي اليه شيئاً فجعل الاسد يزأر ويخطر في القفص ذهاباً واياباً وذيله كالقوس فوق ظهره ينظر الى السباع بعينين يكاد الشرر يتطاير منهما والسباع يريه اللحم عن بعد . فلما استبطأ الطعام اقبل يضرب قضبان القفص برأسه تارة وبمخالبه اخرى يحدق الى قطعة اللحم بيد السباع ويزأر ويكشر عن انيابه والسباع يضحك والرشيد يشارك الاسد بالغضب وقد ازداد عبوساً وازدادت اسرته انقباضا حتى كاد يفتك بالسباع عنه ـ كانه تصور نفسه شريكا له في ذلك الغضب لان حاله مع جعفر مثل حال الاسد مع فريسته .

ولكن الكواسر ليس لها مايعقلها عن اظهار احساسها فتغضب وتقلق وهي في أقفاصها . أما الرجل العاقل فيملك غضبه ويمسك نفسه عن الفتك بفريسته وهي بين يديه مثل شأنه مع وزيره في ذلك اليوم . فرأى نفسه أسداً عاقلا فاذا لم يستطع امساك نفسه كان حيواناً أعجم

فكان الرشيد يفكر في ذلك والسباع ينتظر امره ليرمي القطعة للاسد حتى زأر الاسد زأرة نبهت الرشيد له فاشار الى السباع فرمى له القطعة فانقض عليها وعاد الى الزئير حتى رمي له القطعة الثالثة والرابعة وهكذا حتى شبع . فتربض ووضع رأسه بين ساعديه ولم يتحرك ولكن عينيه مازالتا تبرقان والحنق ظاهر فيهما

قضى الرشيد ساعة يلهو بذلك المنظر حتى سري عنه وزاد تمكناً من اعتقاده ان رابط الجأش من الناس اذا كان ذا سلطان وامسك غضبه كان أسداً عاقلا ـ وأراد ان يكون هو ذلك الاسد في تلك الليلة

فلما غابت الشمس وأخذت الظلال تتكاثف فوق قصور بغداد وبساتينها رجع الرشيد الى قصره وهو يسير بين الاشجار بثوبه الموشى وعمامته المزركشة والغلمان يتباعدون عنه احتراماً له وقد لحظوا غضبه وعرف بعضهم سببه والرشيد يحسب سره مكتوماً . وهو في ذلك سمع دبدبة وصهيلا وصلصلة وضوضاء بباب القصر فعلم انه موكب جعفر فتجاهل وظل ماشياً حتى اذا دنا من باب الخاصة لقيه مسرور فاخبره ان الوزير ينتظره في تلك الدار

فقال له « ادعه لموافاتي الى القاعة التي كنا فيها في أصيل هذا اليوم »

ومشى الرشيد حتى دخل القاعة وقد اضيئت فيها الشموع على مناور الذهب وفاحت روائح البخور والاطياب فتربع على السرير ولم تمض هنيهة حتى اقبل الحاجب يخبره بقدوم جعفر فقال « يدخل . . . ليس على الوزير حجاب »

فدخل جعفر وعليه القلنسوة والجبة على عادته في مجيئه لمقابلة الخليفة

وهو لباس العباسيين الرسمي . وكان جعفر خائفاً من ذلك الطلب في آخر النهار لعلمه بما يتوقعه من سعاية حسـاده به بشأن العباسـة بعد أن اطلع أبو العتاهية على سره ورأى ابنيه مع والدتهما رأي العين ـ فلما دعاه مسرور الى الرشيد أوجس خيفة وسأل عما يريد منه فقال « لاأدري » ولم يتوسم في وجه الرجل سوءا ومع ذلك ركب في موكبه الحافل وفيه جماعة من الفرسان الاشداء ممن يستهلكون في نصرته ودخلوا معه الى الباب الرابع على غير المعتاد في من يدخل قصر الخلد من القادمين الا بني هاشم والوزير وامثالهم من المقربين . فترجل جعفر واقبل على دار الخاصة ومسرور يسير بين يديه لا يتكلم

الفصل الثامن والاربعون

المداجاة

فدخل الوزير تلك القاعة وهو يتكلف الابتسام ويظهر الاطمئنان وقلبه يرتجف خوفاً . فلما اقبل على الرشيد رحب به وابتسم له وقال « ليتك جئتني بمثل لباسي فان مجلسنا مجلس انس » ودعاه للجلوس بجانبه على السرير . فجياه وقعد متأدباً وقد سري عنه واطمأن باله . وجعلا يتطارحان الاحاديث والرشيد يحتفي به ويلاطفه . ومما قاله « لقد دعوتك رغبة في انسك لاني شعرت بملل في اثناء النهار على اثر ملاقاتي ذلك الوفد الهندي » واقبل يقص عليه ماجاء به الوفد من السيوف القلعية والكلاب السـيورية وما كان من قوتها وفتكها بالاسد

فأجابه جعفر « مازال قصر الخلد مصدر الابهة والسؤدد ولا زال أمير المؤمنين مؤيداً بنصر الله يتزلف له الملوك والسلاطين »

والقاريء يعلم مافي قلب جعفر من الرشيد وما يكتمه من خوف بطشه اذا اطلع على حاله مع العباسة وما ينويه من النجاة بها اذا اطلع الرشيد على سرهما ـ فكانا يتداجيان وفي قلب كل منهما غل على صاحبه . وما زالا في

ذلك حتى آن العشاء ومد السماط وقد أعدت عليه ألوان اللحوم والطيور والتوابل وأنواع الفاكهة والرياحين وأصناف البقول ووقف الغلمان بأباريق الماء وأقداح الشراب. فقعدا يأكلان والرشيد يبالغ باكرام جعفر حتى كان يقدم له الطعام من الصحاف فيلقمه بيده [1] ويناوله السنبوسجة بعد السنبوسجة والتفاحة بعد التفاحة ويبش له ويحادثه ويضحك لحديثه حتى تطرق الى حكاية العلوي فقال له « وما جرى لذلك العلوي الذي عهدت به اليك ؟ »

قال « هو بحالهيأمير المؤمنين لا يزال في الحبس كما أمرت »

فابتسم الرشيد وقال « هل هو هناك ؟ »

قال « نعم يأميرالمؤمنين »

قال « بحياتي »

ففطن جعفر أن سؤاله لم يكن بسيطاً فبغت حتى ظهرت البغتة في وجهه وقال « لا وحياتك . . بل أطلقته لاني لم أجد مكروهاً عنده ولا خوف منه . . وزد على ذلك اني أخذت عليه المواثيق والعهود حتى لا يعود الي شيء مما كان فيه »

فضحك الرشيد وقدم لجعفر خوخة كانت في يده وهو يقول « بورك فيك . . فقدفعلت ما كنت أرجوه منك ولم تتجاوز مافي نفسي »

فاستأنس جعفر بتلك الملاطفة وخصوصاً لما غير الرشيد الحديث وأقبل يمازحه

ولما فرغا من العشاء جاءهما الخدم بآنية الغسيل فغسلا أيديهما وجلسا يتحدثان ساعة ثم استأذن جعفر بالذهاب فأذن له الرشيد ومشى لوداعه الى باب القاعة . فلما ودعه ورجع حرق أسنانه وقال في نفسه « قتلني الله ان لم اقتلك »

أما جعفر فلم تنطل عليه مداجاة الرشيد ولا انخدع بملاطفته ومجاراته فقد خرج وهو يعلم ان مركزه اصبح في خطر لاعتقاده أن تلك القصة

(١) ابن الاثير ٧٠ ج ٦

لم يرد ذكرها عرضاً كما أحب الرشيد أن يوهمه ولا كان ينوى اطلاق العلوي كما زعم — وكيف يصدق ذلك وقد كان هذا العلوي مطلقاً ومعه آمان بخط الرشيد وختمه فما زال الرشيد يسعى حتى أفسد الامان ومزقه وأمر بالقبض عليه وحبسه خوفاً منه . فهل ينطلي على جعفر أنه كان ينوي اطلاقه مع ما اختبره من طباع الرشيد وكظمه وملاينته . ولكنه أظهر أنه صدق قوله وافترقا وهما يتخادعان ويتداجيان ويظن كل منهما أنه خدع صاحبه وكلاهما خادع ومخدوع

الفصل التاسع والاربعون

الخروج للصيد

لما رجع الرشيد بعد وداع جعفر دخل غرفة الرقاد وهو يفكر في مامرّ به ذلك اليوم من الغرائب . فتذكر مجيء اسماعيل في الصباح وما كان من رده ولم يقض له حاجة رعاية لحق جعفر وزيره وما عرفه بعد ذلك من استبداد هذا الوزير في الامور واطلاقه ذلك العلوي حتى قام في نفسه أن يقتله . ورأى أنه أساء معاملة اسماعيل وهو يعتقد نصحه وحسن قصده فأحس بافتقاره الى مجالسته ليطلعه على ما فعله جعفر ويسر اليه ما نواه من الفتك به لانه كان شديد الثقة باخلاصه ولم يكن يثق بأحد من أهله أو رجال دولته مثل وثوقه به على نية أن يتطرق بذلك الى الاعتذار له عن رده خائباً . وشعر الرشيد بضيق صدره فلم ير خيراً من خروجه للصيد يفرج به كربه . فلما أصبح دعا مسروراً خادمه وأمره أن يوصي أصحاب الصيد بالتأهب للخروج الى أرض دجيل (قرب بغداد) الى أن قال « وهل تعلم مقر اسماعيل بن يحيى ؟ »

قال « نعم يا مولاي »

قال « اذهب اليه وادعه ولكن لا تزعجه بفظاظتك »

قال « واذا سألني عما يريده أمير المؤمنين منه ؟ »

قال « قل له انى عازم على الصيد وأحب أن يكون معي »

فأشار مطيعاً وخرج الى الفهادين والبيازرة والحجالين وأصحاب الصقور والكلاب وسائر خدمة الصيد والقنص فامرهم بالخروج الى أرض دجيل . وكانت لهم رسوم وطرق في خروجهم الى ذلك المكان يعرفونها ولا يحتاجون فيها الى ترتيب أو تدريب وكانوا يتصيدون في أرض دجيل وهي عبارة عن بقعة من الارض مساحتها عدة فراسخ في مثلها قد أحاطوا بعض جهاتها بسور في نصف دائرة مبني بالاعمدة المنصوبة وقد شد بعضها الى بعض بالامراس أو الاسلاك بشكل سور منيع . وكانت عادتهم في الصيد أن يطاردوا الحيوانات التي يريدون صيدها نحو ذلك السور من مقره فيضربون حولها حلقة من الجهة المفتوحة ويطاردونها بخيولهم وفهودهم وكلابهم وهي تفرّ امامهم بين الاعشاب والادغال فلا يزالون يضايقونها ويحدونها حتى يدخلوها وراء ذلك السور ولا يكون لها مجال . فاذا انحصرت في ذلك الموضع أقبل الخليفة ومن معه من الخاصة وتأنقوا في القتل فيقتلون ما يقتلون ويطلقون الباقي (١)

وكانت عادة الرشيد اذا خرج للصيد أن يجول بعض النهار على الجواد في ارباض بغداد وما يحدق بها من المغارس والضياع حتى يعلم ان الحيوانات قد حصرت وآن صيدها فيأتي ويباشر قنص بعضها بنفسه او يتفرج بمشاهدة البزاة والصقور والفهود كيف يستخدمها اصحابها في الصيد مما يطول شرحه — أما في ذلك اليوم فقد جعل الخروج الى الصيد حيلة لاجل مخاطبة اسماعيل كما قدمنا

أما هذا فلما جاءه أمر الرشيد بالقدوم اليه ليرافقه في الصيد لبس الثياب الخاصة بذلك وركب الى قصر الخلد وكان الرشيد في انتظاره بموكب الصيد وهو يختلف عن سواه من مواكب الخلافة . وما أقبل اسماعيل على القصر حتى رأى أصحاب الصيد خارجين بصقورهم وبزاتهم وفهودهم وقد لبسوا الملابس الخفيفة وفي جملتهم أصحاب اللبابيد وعات الضوضاء وتزاحم

(١) الفخري ٤٨

الناس . هـذا يلاعب صقره ويحرضه على طائر مار فوق رأسه فاذا تحفز الصقر امسكه . وذاك يقود فهده بسلسلة من الحـديد وآخر يستحث كلبه على طلب فريسة يوهمه انها وراء شجرة هناك والكلب لا يكترث لانه لم يشم رائحة الفريسة ـ فاعتبر ما يترتب على ذلك من الضوضاء واختـلاط الاصوات بين صهيل ونبـاح وهرير وصرصرة وقعقعة وصلصلة وطقطقة وهدير . فتجاوزهم اسماعيل حتى دخل الباب الثاني من ابواب القصر فلقيه مسرور وقال له «لا يترجل مولاي لان امير المؤمنين خارج بموكبه وقد امرني بذلك »

فوقف حتى رأى الرشيد قادماً على جواده بثيـابه الخفيفة والفرسان حوله في موكب الصيد فلم يتمالك عند ذلك عن الترجل فابتدره الرشيد قائلا « اركب يا عماه وادن فرسك من فرسي »

فركب واراد ان يسير متأخراً عنه تأدباً على العادة في مصاحبة الخلفاء فدعاه ان يحاذيه وقال له « ليس اسماعيل ممن يطالب بمثل هذه الرسوم . وما دعوتك لمرافقتي إلا لاستأنس بك »

الفصل الخمسون

المفاوضة

فدعا له وسار بجانبه وأمر الرشيد مسروراً ان يطلق اصحاب الصيد الى عملهم في دجيل كالعادة ريثما يصل . وسار الرشيد واسماعيل لا يتكلمان . اما هذا فسكت عن تأدب اذ لا يليق ان يبادىء الخليفة بالـكلام واما الرشيد فقد سكت عن هاجس غلب عليه . وما زالا ساكتين حتى خرجا من بغداد واشرفا على بساتينها وارباضها فأمسك الرشيد شكيمة جواده والتفت حوله لفتة فهم منها فرسان الموكب انه يطلب الانفراد فتفرقوا وظل هو واسماعيل سائرين . فلما انفردا نظر الرشيد الى اسماعيل وقال والاهتمام باد في محياه « ما الذي حدثتك به نفسك لما خرجت من الخاصة أمس ؟ »

قال « لم تحدثني بشيء غير موالاة الدعاء بطول بقائك وتأييد سلطانك »

قال « ذلك هو عهدي بك على انك لو عتبت على هرون وانتقدته لما وجدت سبيلا للومك لاني لم ارع حقك وقد أسأت معاملتك في سبيل رجل لم يرع حقي ولا حق بني العباس .. » قال ذلك والتفت كأنه يحاذر أن يسمعه احد . ثم تشاغل باصلاح ما على مقدم السرج من الديباج الموشي ومد يده الى ناصية الجواد وجعل يمشطها بأنامله وهو ينتظر مايبدو من اسماعيل

اما هذا فأدرك ما في نفس الرشيد وانه يضمر سوءاً لجعفر فشق عليه ذلك لعلمه انه يعود على الدولة بالخسران فتجاهل واقبل يشكر للرشيد حسن ظنه الى ان قال « ارى امير المؤمنين يبالغ في اكرامي وحاشا لله ان يأتي امراً يوجب اللوم ... وهب انه فعل ذلك فهو فوق اللائمين ... وانما ساءني انه غير راض عن مواليه ولو صرح لي بما يريد واباح لي الكلام لزادني منة . . »

فقطع الرشيد كلامه وقال « اظنك تتجاهل يا عماه ومثلك لا يفوته ادراك ما اريد

فقال « اذا صدق ظني فان الرشيد يشكو من وزيره »

قال « وهل تستغرب شكواي من رجل سلمت اليه مقاليد دولتي واطلقت يديه في كل شؤوني وقدمته عن اهلي وذوي عصبيتي ثم هو يسعى في هلاكي ؟ »

فقال « معاذ الله ان يكون ذلك . . . وما وزيرك يا امير المؤمنين الا من بعض مواليك يستهلك في مصلحة دولتك .. ذلك هو عهدي به »

وكانا يتخاطبان والفرسان يسيران متحاذيين بين الاشجار الباسقة المشتبكة اغصانها حتى تظلل الطرق فبعدا عن المدينة وهما يسيران الى غير مكان مقصود . واتفق عند ذلك انهما اشرفا على ضيعة (عزبة) عامرة ومواش كثيرة وعمارة حسنة يدور طريقها حول الضيعة فدارا حولها حتى اقتربا من بابها فنظر الرشيد الى بيدرها وكثرة الغلال عليه وما يسرح من

الماشية الكثيرة حوله والتفت الى اسماعيل وقال « لمن هذه الضيعة يا اسماعيل ؟ »

فعلم اسماعيل انها لجعفر وقد اراد الرشيد ان يتخذ ذلك حجة على ما يريد من الطعن فيه فقال « هي لاخيك جعفر بن يحيى »

فتنفس الرشيد الصعداء وقال « ولوسألتك عن سائرما في هذه الضاحية من الضياع لما اجبت غير هذا الجواب لان الذي دعوته اخي قد ملك أهله كل ما يحدق ببغداد من الضياع والبساتين .. أرأيت كيف اغنينا هؤلاء البرامكة وأفقرنا اولادنا واغفلنا امرهم حتى صارت البلاد لهم واصبحت مواكبهم اعظم من مواكبنا واموالهم اكثر من اموالنا ؟. واذا كانت هذه ضياعهم قرب هذه المدينة فكيف بما هو لهم على غير هذا الطريق في سائر البلدان ؟ »

فشق على اسماعيل ذلك القول غيرة منه على سلامة الدولة فقال « انما البرامكة عبيدك وخدمك وما ضياعهم وكل ما يملكون الا لك . . . »

وكان الرشيد لا يتوقع من اسماعيل دفاعاً عن رجل كان أمس سبباً في فشله فازداد رفعة في عينيه ولكن ساءه دفاعه لانه انما يريد من يجاريه في ما ينويه شأن كل غاضب مستبد . فنظر الى اسماعيل نظرة جبار عنيد وقد أخذ الغضب منه مأخذاً عظيما وقال « اراك حسن الظن باعدائي وتحسبهم عبيداً لي والبرامكة يعدون بني هاشم عبيدهم وانهم هم اصحاب الدولة وان لا نعمة لبني العباس الا والبرامكة لهم عليهم المنة بها »

فلم ير اسماعيل ان يدافع اكثر من ذلك لئلا يتحول غضب الرشيد اليه فقال « ان امير المؤمنين أبصر بخدمه وعبيده »

فادرك الرشيد انه خاف غضبه ولم يصرح بما في نفسه فأحب ان يسمع رأيه فقال « ليس لذلك اصحبتك يا عماه ولا هذا عهدي بك . . تسايرني وتجاريني خوفاً من غضبي ؟ »

فتحير اسماعيل في امره وتردد بين أن يجيبه أو يبقى على الكتمان . ومع ما يعلم من منزلته عند الرشيد لم يكن ليطلق لنفسه الحرية الا وهو

يحذر من غضبه ولا يستبعد ان ينقلب الرشيد عليه اذا تبادر الى ذهنه سوء الظن به . وهذا جعفر لم يبلغ احد ما بلغه من الدالة والنفوذ حتى صار الرشيد يدعوه أخاه ويدعو والده يحيي أباه فلما شك فيه اصبحت حياته في خطر . فظل اسماعيل ساكتاً يفكر وهو سائر بجانب الرشيد ولا يدري الى أين يسير به

فانتبه فاذا هو بباب المدينة فرأى مسوغاً لتغيير الحديث فقال « ارانا قد عدنا الى بغداد فأين الصيد ؟ »

قال « لم اخرج للصيد الا حيلة لمرافقتك وقد أوصيت من يقوم به عني ولكني لم اسمع منك غير ما يقوله سائر الناس ممن يجالسوننا ويصانعوننا وانت شيخ بني هاشم وحكيمهم فلا اقبل منك بهذه المصانعة ... »

فقال « ارى امير المؤمنين حسن الظن بي وأنا بحمد الله عند حسن ظنه ولكنني لم أسمع منه سؤالا صريحاً فأجيبه عليه . . »

الفصل الحادي والخمسون

التصريح

وكان الرشيد لما دخل المدينة قد عاد الموكب الى المسير بين يديه فقال « نحن داخلون بغداد وعما قليل ندخل قصر الخلد فنخلو ونتحادث »

فأوجس اسماعيل خيفة من عاقبة تلك المحادثة ولكنه تجلد وسكت حتى اذا دخلا القصر ترجلا وصارا الى غرفة خاصة فجلس الرشيد على السرير ودعا اسماعيل الى جانبه فجلس وهو مطرق ينتظر ما يقوله الخليفة فاذا هو يقول « دع المدافعة وقل ما في نفسك ألم تر هؤلاء الاعاجم قد تطاولوا علينا واستأثروا بالدولة وأموالها دوننا ؟ »

قال « بلى . ولكنهم فعلوا ذلك بارادة امير المؤمنين ولو أفهمهم أنه يريد غير ذلك لأتمروا بأمره »

قال « وهل أمرتهم أن يستأثروا بكل شيء دوني ؟ »

فتوقف اسماعيل عن الجواب وهو يتردد بين أن يصرح له بما يعتقده من فضل البرامكة على الدولة أويسايره في اقواله فغلب عليه استقلال رأيه فقال « أما وقد أكرمني أمير المؤمنين بحسن ظنه فلا ينبغي أن أكتمه شيئاً يجول في خاطري — ان البرامكة عبيد مولانا ومواليه ولا خلاف في ذلك ولكن أمير المؤمنين اعلم الناس بما كان من بلائهم في مصلحة هذه الدولة من عهد جدهم خالد في خدمة جدك المنصور وقد عرف هذا الملك النبيل فضل خالد فقدمه كما قدم امير المؤمنين ابنه يحيى وحفيده جعفر . . ولا يخفى على الرشيد ماهؤلاء من الاثر الصالح في خدمة دولته وتنظيم ادارتها وسائر شؤونها غير ما لهم من المآثر في رفع منار العلم واسبابه بتقديم الفلاسفة واستقدام الاطباء من الهند وفارس الى بغداد وقد بنوا المارستان وادخلوا الكاغد وعمروا بغداد وعنوا بنقل الكتب — وهم لم يفعلوا ذلك الا والرشيد راض عنه ... وأخشى أن اطيل الكلام ... »

وكان اسماعيل يتكلم وهو يراقب ما يبدو من الرشيد وكأنه قرأ في وجهه قرب استيائه من ذلك الثناء وانه لا يرضيه الا ما يعضد عزمه على الفتك بهم فاستدرك قائلا « ولا أنكر أنهم من الجهة الاخرى استأثروا بالاموال . . والانسان مطبوع على الطمع ولكني علمت عن ثقة ان الاموال التي تجمع من غلتهم في كل عام مهما كثرت فانهم يفرقون معظمها على أهل الفاقة »

فضحك الرشيد اغتصاباً وهز رأسه وقال « لا يفعلون ذلك على سبيل الاحسان ولكنهم يبتاعون الاحزاب ولا يلبثون أن يجندوا علينا الجند » قال ذلك وتنهد

فابتدره اسماعيل قائلا « معاذ الله .. »

فقطع الرشيد كلامه وقال وهو مقبل عليه « كيف لا ووزيرنا الذي دعوته أخي يمالىء العلويين علينا ؟ »

فأجفل اسماعيل وقال « يمالئهم ؟ »

قال « نعم أنه أطلق يحيى بن عبد الله »

فقال « يحيى العلوي ؟ »

قال « أطلقه بدون اذني ولا شك في ذلك وقد اعترف هو نفسه به »

فلم ير اسماعيل باباً للدفاع وتحقق ان الرشيد غير راجع عن غضبه بعد ذلك لعلمه بما في نفسه على الشيعة العلوية فقال « انها جسارة وتطاول . وهل تظنه فعل ذلك عن عمد وقصد سيء ؟ »

قال « مهما يكن من قصده فان فعله هذا لا استطيع الصبر عليه . . »

فقال « وما الحيلة يا مولاي ؟ »

قال « الحيلة ؟ قد حل قتله والسلام »

فأكبر اسماعيل تسرعه الى هذا التصريح وقال « اذا قتل امير المؤمنين عبيده فانه ملك الرقاب يفعل ما يشاء . . ولكنه أعلم مني بما يترتب على هذا الامر . . . وقد قال لي الساعة ان البرامكة يبتاعون الاحزاب بالاموال . . »

فأطرق الرشيد واسماعيل وكلاهما يعمل فكرته ثم رفع الرشيد بصره وقال « فما الذي يراه ابن عمنا ؟ »

قال « ألا ترى أن تفرق بينه وبين احزابه بعمل توليه إياه خارج بغداد ؟ »

فأبرقت اسرة الرشيد عند سماعه رأيه وقال « ذلك ما عزمت عليه وسأوليه خراسان . فاذا بعد عن بغداد فكرنا في شأنه . . »

فسر اسماعيل بقبول الرشيد ذلك وقال « نعم الرأي هذا »

قال « انه رأي سديد وبعد ذلك تنظر في امره » ثم توجه نحوه بكليته وقال وهو يتفرس فيه « واعلم يا اسماعيل اني لم اطلعك على سري هذا الا لعظم ثقتي بك ... واني آمرك ان تكتمه فانه ما علم به أحد غيرك ومتى بلغهم شيء مما جرى علمت انه ما افشاه الا انت .. أفهمت ؟ »

فبهت اسماعيل من ذلك التهديد . ولما سمع الرشيد يخاطبه بتلك اللهجة تحقق ان مشيري الملوك اذا لم يسايروهم ويداهنوهم كانت حياتهم في خطر فقال « اعوذ بالله ان اقدم على افشاء سرك يا أمير المؤمنين »

ثم تزحزح الرشيد من مجلسه فعلم اسماعيل انه يريد الانصراف فوقف واستأذن فاذن له فخرج وقد عظم عليه ماسمعه وأصبح خائفاً على الدولة من تغير الرشيد وانطلق الى منزله وهو يصبر نفسه ليرى هل يعمل الرشيد بما قاله

الفصل الثانى والخمسون

اسماعيل وجعفر

وفي صباح اليوم التالي علم أن الرشيد بعث الى جعفر فجاءه فاجلسه الى يمينه وأكرمه غاية الاكرام وبش في وجهه وحادثه ساعة وأهداه هدايا كثيرة في جملتها غلام خادم من خاصة خدمه وأنبلهم وأوضحهم وجهاً واكملهم ظرفاً كاتباً حاسباً لبيباً وان جعفر سر سروراً كاملا بذلك . فعجب اسماعيل من اقتدار الرشيد على كتمان مافي نفسه مع شدة وطأته وسرعة غضبه . وربما تبادر الى ذهنه أن الرشيد قد صفح وذهب مايحفظه على جعفر لولا ماعلمه من اطلاق العلوي والرشيد يكره تلك الشيعة ويخافها على ملكه

ثم علم اسماعيل بعد يومين ان الرشيد خلع على وزيره وعقد له لواء على خراسان فظنه صفا له فتمنى أن تزول الضغائن بهذا الطريق وتعود المياه الى مجاريها ولا سيما بعدان علم برضاء جعفر عن هذه الولاية واسراعه في ارسال أعوانه ورجاله يتقدمونه الى النهروان خارج بغداد — فانهم ذهبوا وضربوا مضاربهم هناك وأخذوا يتأهبون للرحيل الى خراسان والبلد بعيد الشقة يحتاج الى الاحمال والاثقال . فلما تحقق اسماعيل قرب سفر جعفر رأى أن يزوره ويودعه ويسعى في ازالة ما ربما بقي في نفس الرشيد بوسيلة خطرت له

وأما جعفر فلم يكن ذلك كله ليذهب مافي قلبه على الرشيد ولكنه رأى في سفره الى خراسان باباً للفرج وعزم على مخابرة العباسة بشأن الفرار معه .

ففي اليوم الذى احتفلوا بالخلع عليه عاد الى قصره في الشماسية وهو من جملة قصور البرامكة في ذلك الحي وكان لهم عدة قصور هناك أشهرها قصر يحيى بن خالد عند باب الشماسية وقصر له آخر فى باب البردان[1] وكان جعفر في ذلك العام مقيما في قصره بباب الشماسية ولا تقل قصوره فخامة عن قصور الرشيد يكفى ماتقدم من وصفها في القصيدة التى دستها أم جعفر الى زوجها وفيها قول الشاعر في وصف تلك الدار :

وقد بنى الدار التي ما بنى الـــفرس لها مثلا ولا الهند
الدر واليافوت حصباؤها وتربها العنبر والنـد

فاعتبر مايكون من فخامة هذا القصر وأمثاله من قصور البرامكة مما يضيق المقام عن وصفه ووصف مافيه من الرياش الفاخر وقد وصفنا قصر الخلد وقصر الامين ودار القرار (قصر زبيدة) فقس عليها

فعاد جعفر الى قصره المشار اليه وهو لايصدق انه ولي خراسان وان كان الرشيد قد وعده بها غير مرة فتبادر الى ذهنه أن الخليفة ليس في قلبه غل عليه أو انه ولاه خراسان خوفاً منه على دولته اذا ظل في بغداد فاستقوى نفسه واستضعف الرشيد ونسى خوفه منه . فلما عاد الى القصر أمر قهرمانه أن يهتم بالرحيل ويوصي قيم الجواري والعبيد وكاتبه ان يتهيأوا في الغد . ودخل القصر وكان قد اعجب بالخادم الذى أهداه الرشيد اليه لادبه وفرط جماله فاصطحبه الى قاعة ريشها سماوي اللون لاعتقاده أن هذا اللون يشرح الصدر على مذهب القدماء ودخل الغلام لمؤانسته . ثم جاءه الحاجب يقول « ان اسماعيل بن يحيى بالباب »

فنهض جعفر لاستقباله وأدخله حتى أجلسه في صدر مجلسه لانه كان يجل مقامه ويثق به لاعتقاده صفاء نيته وصدق لهجته ولـكنه لحظ في أثناء حديثه انه يكتم امراً يريد اطلاعه عليه فصرف من فى مجلسه من الناس ولم يبق في الغرفة سواهما وأقبل جعفر بكليته ليسمع حديثه فقال اسماعيل « ياسيدي أنت عازم على الخروج الى بلدة كثيرة الخير واسـعة الاقطار

(١) الاغاني ٧ ج ٥

عظيمة المملكة فلو صيرت بعض ضياعك لولد أمير المؤمنين لكان أحظى لمنزلتك عنده »

فلما سمع جعفر قوله تبادر الى ظنه ان الرشيد أوفده للتوسط في ذلك فزاد استخفافاً به واستقواء لنفسه وغلب عليه الحقد لما يقاسيه من تصرفه معه وظن نفسه نجا من قبضته بانتقاله الى خراسان قبل ان يكشف أمر العباسة . وكان حسن الظن باسماعيل وكثيراً ماذكر فضل بيته على الدولة بين يديه واسماعيل يوافقه لان هذا هو اعتقاده فلم يمتنع عند سماعه ذلك عن التصريح بما في خاطره من هذا القبيل فقال « والله ياسماعيل ماأكل الخبز ابن عمك الا بفضلي ولا قامت هذه الدولة الا بنا . أما كفى اني تركته لايهتم بشيء من أمر نفسه وولده وحاشيته ورعيته وقد ملأت بيوت أمواله أموالا ولا زلت للامور الجليلة أدبرها حتى يمد عينه الى ماأذخرته واخترته لولدي وعقبي من بعدي ودخله حسد بني هاشم وبغيهم ودب فيه الطمع والله لئن سألني شيئاً من ذلك ليكونن وبالا عليه سريعاً »

فندم اسماعيل على مجيئه اليه وخاف أن يترتب على حديثه أمر يبلغ الرشيد فيعده منه افشاء فغير الحديث حتى اغتنم فرصة للاستئذان وخرج

الفصل الثالث والخمسون

العباسة وارجوان

أما جعفر فعاد الى صوابه بعد ذهاب اسماعيل فرأى انه أخطأ بما بدر منه طعناً في بني هاشم واسماعيل منهم . فسبق الى وهمه انه ربما باح للرشيد بما سمعه منه فلا يبقى سبيل للمصالحة فزاد تمكناً من عزمه على الفرار بالعباسة والولدين وصفق فجاءه خادمه الخصوصي حمدان وكان حسن الاعتماد عليه فأسر اليه عزمه وقال له « نحن غداً مسافرون الى معسكرنا في النهروان فاذهب الى عتبة وقل لها تخبر مولاتها العباسة ان تكون على أهبة الرحيل ريثما ابعث اليها من يحملها الي . . أفهمت ؟ »

قال « نعم يامولاي فهمت . . وأين قضيت هذا العمر . . ؟ »

وخرج حمدان مسرعاً في هذه المهمة

وكانت العباسة في أثناء هذه الحوادث على أثر اجتماعها الاخير بجعفر وما سمعته من وعده بالذهاب الى خراسان وذهابها معه لاتنفك مفكرة في هذه الامنية وهي لاتصدق انها تظفر بها لانها كانت تفضل الاقامة مع زوجها وولديها سالمين آمنين في كوخ حقير على الاقامة في تلك القصور الفخمة تحت الخطر وبين الرقباء . ولا سيما بعد أن اطلع أبو العتاهية على سرها ورأى ولديها بعينه وحدث ماحدث من اساءته . فكانت لايهدأ لها بال خوفاً من بلوغ ذلك الى أخيها والعياذ بالله وكانت لاترى اثنين يتساران إلا ظنتهما يتباحثان بشأنها ولا رأت كوكبة من الفرسان مارة بقرب قصرها إلا حسبتها آتية للقبض عليها . ولم تكن تتعزى بشيء مثل اجتماعها بجاريتها عتبة وكانت تبوح لها بمخاوفها وهذه تطمئنها وتمنيها حتى علمت في ذلك اليوم ان الرشيد عقد لجعفر على خراسان ورأت الناس يتسابقون في الطرق لحضور الاحتفال بذلك فكادت تطير من الفرح ومكثت تتوقع أن يأتيها رسول جعفر حالا فمضت عدة ساعات حتى علمت بخروج أعوان جعفر ورجاله إلى النهروان ولم يأتها الرسول فخطر لها أن يكون حبيبها قد شغل عنها وشكت في صدقه ـ والحب كثير الشكوك ـ وهمت بالشكوى الى عتبة وكانت جالسة معها على الشرفة التي انتظرت فيها جعفر منذ أيام . واذا بحمدان مقبل بلباس بعض خدم قصرها فلما رأته قادماً أرسلت عتبة لاستقباله وتلقي الرسالة منه فلما لقيها قص عليها المهمة التي أتى بها وألح عليها أن تبلغ مولاتها « ان تكون على أهبة السفر بما خف حمله وأن تتنكر بلباس بعض الجواري حتى اذا جاء الرسول وهو انا فلا يحتاج فى اخراجها الى أكثر من كلمة » فلما أخبرتها عتبة بذلك بكت من شدة الفرح وأمرتها باستدعاء حمدان اليها لتسمع تلك البشرى من فيه فدخل ووقف متأدباً فقالت له

« كيف فارقت سيدك ؟ »

قال « هو في خير يسلم عليك بامولاتي »

قالت « ومتى تظننا نخرج من هنا »

قال « ربما في صباح الغد . . »

فالتفتت الى عتبة لفتة فهمت انها تذكرها بالولدين الحسن والحسين فقالت « انهما في مأمن مع الخادمين كما تعلمين ومتى خرجنا من بغداد بعثنا من يستقدمهما من الحجاز أو حيث يكونان وتتخلصين من هذه المخاوف »

فتنهدت العباسة تنهداً عميقاً ولكن البشر كان يتجلى في وجهها فصرفت حمدان ودخلت الى غرفتها وأخذت عتبة في الاستعداد للسفر وكانت الشمس قد مالت الى الاصيل والعباسة منفردة في تلك الغرفة فما لبثت ان اصابها رد الفعل فانقبضت نفسها وغلبت عليها عواطفها اذ تصورت نفسها هاربة من قصرها ومن بين يدي أخيها وستترك ذلك القصر بما فيه من اسباب السعادة وقد تعودته والفت قاعاته وحدائقه وأثاثه وخدمه وجواريه وكل شيء فيه . نعم انها تفضل الاقامة مع حبيبها في عشة على الاقامة وحدها في قصر ولكن الانسان ابن العادة اذا الف شيئاً شق عليه فراقه فكيف بها وقد ربيت في ذلك القصر ولم تخرج منه الا نادراً . على انها كانت اذا تصورت ما ترجوه من الاجتماع بجعفر وولديها هدأ روعها . ثم يعترضها ماتخافه من نقمة أخيها اذا علم بفرارها على تلك الصورة وربما حمله غضبه على تجريد الجيوش فى طلبها فكادت هذه الهواجس تثني عزمها وهي تغالب عواطفها وتمني نفسها بالنجاة - وهي في تلك الخواطر تذكرت خادماً لها كان أمينا على سرها في أثناء مخاوفها حتى جعلته رئيس الخدم في قصرها واسمه «أرجوان» وكانت تستأنس به في ابان اضطرابها وقلقها فرأت ان تصطحبه في فرارها فنادت عتبة وكانت منهمكة في اعداد المعدات فاتت والغبار يعلوها والانهماك ظاهر فيها فقالت لها العباسه « أين أرجوان ؟ »

قالت « هو هنا في القصر هل ادعوه ؟ »

قالت « ادعيه فانى ارى ان نصطحبه »

فخرجت ثم عادت ومعها أرجوان وكان اسود اللون اصله من بلاد البربر في شمالى أفريقيا وقد ربى في قصر المنصور وكان مقربا منه لان أم

المنصور بربرية . وكان طويل القامة وأكثر طوله في ساقيه على طبيعة الخصيان . وهو يومئذ في نحو الخمسين من عمره ولولا قلة الشعر في وجهه من عواقب الخصي لظهرت شيبته وبانت كهولته . ولكن هؤلاء الخصيان قلما يعرف مقدار عمرهم بمجرد النظر اليهم . وكان ارجوان قد ربى العباسة منذ طفولتها وأخلص الخدمة لها وهي تعودته واحسنت الثقة به . فلما استقدمته في ذلك اليوم وقف بين يديها فنظرت اليه والدمع في عينيها فلما رآها تبكي بكى معها وقال بصوته المؤنس وغنته الاعجمية « ما الذي تأمرين به يامولاتي »

قالت « نحن مسافرون وأحب ان تخرج معنا »

قال « اني عبدك وطوع ارادتك »

قالت « أتدري الى أين ؟ »

قال « الى حيثما تشاءين ولو الى القتل »

قالت « بورك فيك يا أرجوان فاشتغل مع عتبة في اعداد مايلزم وهي تخبرك الخبر »

قال « سمعاً وطاعة . . » وخرج مع عتبة فقصت عليه ماهم فيه فأخذ في التأهب

فلنتركهم في ذلك ولنعد الى الرشيد

الفصل الرابع والخمسون

الرشيد وزبيدة

كان الرشيد أكثر كتماناً لسره مما ظهر لاسماعيل . فمع شدة ثقته به لم يطلعه على كل ماينويه لان غضبه لاطلاق ذلك العلوي مازال راسخاً في نفسه وقد ولاه خراسان وعقد له عليها ليجربه ويستطلع كنه قلبه فاهداه ذلك الخادم الجميل جاسوساً ينقل اليه أقواله وكان الخادم المشار اليه واقفاً ساعة زيارة اسماعيل بحيث يسمع مادار بينه وبين جعفر فكتب بذلك الى

الرشيد حالاً . فلما وصل كتابه اليه تحقق سوء نية جعفر فعاد الى تخوفه . وكان جالساً على سريره فلما قرأ الكتاب هب من مقعده وقد عظم الامر عليه ورأى الفرصة ضيقة لا تأذن باعمال الفكرة . وخيل له ان وزيره اذا خرج من بغداد أفلت من بين يديه وأهل خراسان طوع ارادته فيسهل العصيان عليه . فلما تصور ذلك خفق قلبه واشكل عليه امره فاخذ يخطر في الغرفة ذهاباً وايباباً كأنه اصيب بجنة وأحسّ بحاجته الى من يباحثه بذلك ولم يعد يرى ان يخاطب اسماعيل بعد الذى علمه من حديثه مع جعفر وصداقته له وان كان لا يستغشه . فانه انما يلتمس المداولة مع من يجاريه في عزمه ويصوّب رأيه ولا يدافعه كما فعل اسماعيل

قضى ساعة في التردد حتى كاد يتقد غيظاً فخطر له ان يشاور امرأته زبيدة في الامر على غير المألوف من شأن المرأة في ذلك العهد . ولكن الرشيد كان يحب زبيدة ويحترمها ويتبرك بمشورتها ويعلم بما بينها وبين جعفر من العداوة القديمة . فلما خطر له ذلك أحس بارتياح عظيم وكان الوقت نحو الغروب فدعا مسروراً وامره ان يهيء له برذوناً ليركب عليه خفية الى قصرها (دار القرار) ولا يسير معه احد سواه

فاعد له البرذون فركبه وقد تلثم ومشى مسرور في ركابه فلما أقبل على الدار لم يعرفه الحرس ولكنهم عرفوا مسروراً ففتحوا له فدخل الحديقة ثم ترجل الرشيد وامر مسروراً ان يسبقه الى زبيدة فيخبرها بقدومه . فلما اخبرها ادركت انه انما جاءها في تلك الساعة لامر هام فخرجت لاستقباله في القاعة التي استقبلت فيها ابنها محمداً منذ ايام وقد اضيئت فيها الشموع فزادتها بهاء . ولبست هي افخر ثيابها وتطيبت واستقبلته احسن استقبال وعليها العقود من الجوهر وفي رأسها الدبابيس المرصعة وفي صدرها الحلي المنمقة على أشكال بديعة حتى خفافها فقد كانت مرصعة كما علمت واقبلت ترحب به وتلاطفه . اما هو فمع شدة غضبه لم يتمالك عند رؤيتها من الابتسام وجلس على السرير وامسك بيدها واجلسها الى جانبه وهو يتشاغل بالنظر الى ما عليها من أنواع الحلي وقد زادتها انواع الشموع لمعاناً ورونقاً . اما هي

فلحظت ما يستتر تحت ذلك الابتسام من الغيظ ولكنها تجاهلت وعادت الى الترحاب فقالت « مرحباً بامير المؤمنين لقد آنسني بلقياه وشرفني بقدومه فهل يأمر بطعام او شراب ؟ »

فلم يسعه الا ان قال « لم آتك للطعام يا ابنة العم . . »

فقالت وقد ابرقت عيناها تفرساً واستطلاعاً « لخير جئت ان شاء الله »

فمد يده الى جيبه واستخرج الكتاب الذي جاءه من جاسوسه ودفعه اليها ولم يتكلم فتناولته وقرأته وهو يراقب ما يبدو منها فلما فرغت من قراءته اعادته اليه وهي تضحك فقال لها « أراك تضحكين كأنك لم تقرأي الكتاب . . »

قالت « بلى قرأته . . »

قال « لا أظنك تدركين قوته الا اذا أخبرتك بما ارتكبه هذا الفارسي »

فلما سمعت قوله ظنته اطلع على خبر العباسة فتجاهلت وقالت « وماذا ارتكب ؟ »

قال « انه اطلق الرجل العلوي الذي لم نقبض عليه الا بعد شق الانفس ولم نصدق اننا حبسناه وأمنا من شره حتى عاد فاطلقه . وأنت ترين من هذا الكتاب ان هذا العبد قد شمخ بانفه حتى أصبح يهددنا . . . فمن يضمن انه اذا سار الى خراسان لا تحدثه نفسه بالتمرد فيعصانا ويخرج خراسان من ايدينا . . فاشيري عليَّ فاني اتبرك بمشورتك »

فضحكت زبيدة ضحكة يمازجها التهكم والاستخفاف ولم يكن أحد من أهل الخافقين يجسر على ذلك بين يدي الرشيد سواها لانه كان يحبها ويحترم رأيها ولها عليه دالة القرابة وسلطان الحب فكيف اذا أضيف اليهما نفوذ صاحب الحق لانها كثيراً ما نصحت له أن يعدل عن الاستسلام لجعفر وأهله وهو لا يطيعها بل كان يحمل ذلك منها محمل الانتقام منهم . فلما جاءها الآن يشكو عواقب استسلامه نظرت اليه نظر الظافر وقالت « مثلك يا امير المؤمنين مع البرامكة مثل رجل سكران غريق في بحر عميق فان كنت قد

صحوت من سكرتك وتخلصت من غرقتك أخبرتك بما هو اعظم من ذلك كثيراً وان كنت لا تزال على الحالة الاولى تركتك »

فأثرت لهجتها هذه على الرشيد تأثيراً شديداً ولولا حرمتها عنده ما تمالك عن الفتك بها فقال لها « قد كان ما كان . . . فقولي أي شيء أعظم من هذا ؟ »

قالت « ان الامر الذي اشير اليه قد اخفاه عنك وزيرك وهو اصعب مما انت فيه وأقبح وأشنع »

فغضب الرشيد وقال « ويحك وما هو ؟ قولي »

فاعرضت بوجهها عنه وقالت « أجل نفسي عن ان اخاطبك به ولكن تحضر ارجوان الخادم وتشدد عليه وتوهنه ضرباً فانه يعرفك الخبر »

فكاد الرشيد يتقد غيظاً ولم يتمالك عن النهوض سريعاً وصاح « أرجوان ؟ خادم العباسة أختي ؟ »

قالت « نعم خادم العباسة اختك »

فصاح « أين هو . . ؟ ادعيه »

فصفقت فجاءها أحد الشاكرية الواقفين ببابها فقالت « اذهب حالا وادع لنا ارجوان الخادم من قصر العباسة »

فأجاب مطيعاً وخرج وظل الرشيد في انتظاره كأنه على مقالي الجمر وزبيدة جالسة بين يديه ولم يفه أحدهما بكلمة

الفصل الخامس والخمسون

كشف السر

وكان أرجوان مشتغلا بالتأهب للسفر كما علمت وقد اطلع على سر مولاته وسبب سفرها وهو حريص على راحتها مستهلك في سبيل مرضاتها — فان اولئك الخصيان اذا طابت سرائرهم كانوا نعمة على مواليهم لان الرجل منهم اذا اخلص النية نسي نفسه وانقطع لخدمة مولاه بكل جوارحه. ولعل

السبب في ذلك انهم لا يتزوجون فلا يعلقون آمالهم بولد أو ابنة فتنصرف عواطفهم الى مواليهم يسرون لسرورهم ويحزنون لحزنهم لا يبالون بما يقاسونه في سبيل ذلك ولا يهمهم كان مولاهم على حق في ما يعمله أو باطل — وكان ارجوان من اطيب الناس قلباً وأكثرهم تعلقاً بمخدومه ولاسيما العباسة فانها نظراً لما كانت تتمتع به على يده من اسباب الراحة بما يسهله لها من دخول جعفر الى قصرها وخروجه بلا معارض كانت تبالغ في اكرامه وتتلطف بمعاملته وهو يزداد تفانياً في خدمتها

فكان ارجوان في ذلك المساء يشتغل في ما قدمناه واذا بالخدم يدعونه فخرج فرأى شاكريًّا ينتظره بالباب فعرف انه رسول من زبيدة فقال « ما وراءك »

قال « أجب مولاتنا أم جعفر »

قال « الساعة ؟ »

قال « نعم في هذه الدقيقة »

قال « تمهل ريثما أخبر مولاتي بذلك »

قال « لا حاجة الى اخبارها فانها كلمة تقولها مولاتنا لك ثم تعود » فصدقه وخرج والعباسة لا تعلم

أما الرشيد فكان قد مل الجلوس في تلك القاعة ساكتاً فنهض وتمشى بدهليز الدار وهو يرتعد من شدة الغضب ويقول في نفسه « ماذا عسى ان يكون ذلك الامر العظيم ؟ » على ان ترفع زبيدة عن التصريح به واحالة ذلك الى ارجوان الخصي نبهه الى انها فضيحة تمس العرض ...

ثم سمع حركة في الحديقة فعلم ان الشاكري عاد فتقدم حتى رجع الى القاعة وكانت أم جعفر قد خرجت منها لئلا تسمع ما يدور بين الرشيد والخصي

فدخل الشاكري وقال « ان ارجوان بالباب يا امير المؤمنين »

فقال « هاتوا السيف والنطع »

فأتاه الشاكري بهما فبسط النطع في الدهليز خارج القاعة ووضع

السيف بجانبه . ثم صاح الرشيد « أين ارجوان .. ؟ ادخله »

ولما سمع ارجوان صوت الرشيد بهذه اللهجة سقط في يده فدخل وركبتاه تصطكان من الخوف ووقف متأدباً ولما رأى النطع والسيف لم يعد يستطيع الوقوف من شدة الارتعاش ولم يتجاسر ان يرفع بصره عن الارض فاشار الرشيد الى مسرور بابعاد الخدم والشاكرية واغلاق الابواب حتى لا يعلم أحد بما يدور في هذا الشأن ثم نظر الى ارجوان قائلا « برئت من المنصور ان لم تصدقني في حديث جعفر لاقتلنك »

فعلم انه يسأله عن امر جعفر مع العباسة فظل ساكتاً ولو اراد التكلم لم يطعه لسانه من شدة الخوف . فصاح الرشيد « ما بالك . . . تكلم والا هذا النطع والسيف . . » ثم صاح « مسرور ! »

فحضر ذلك الرجل الغليظ القلب باسرع من لمح البصر فاشار الرشيد اليه فتناول السيف وانتضاه ووقف بجانب النطع ينتظر امر الخليفة فلما رأى ارجوان ذلك جثا عند قدمي الرشيد وأخذ يقبلهما ويبكي فتلطف الرشيد في خطابه فقال له بصوت هادىء « قل الصدق ولا تخف .. ما الذي تعلمه من امر جعفر الوزير وأهل ذلك القصر ؟ قل .. حالا »

فقال وصوته يختنق ولسانه يتلعثم من الخوف والبكاء « الامان يا أمير المؤمنين »

قال « نعم لك الامان ان تكلمت الصدق وان لم تتكلم فنحن مطلعون على كل شيء فنقتلك بهذا السيف »

فحدثته نفسه ان يحافظ على سر مولاته تفانياً في سبيل مصلحتها ولكن الضعف البشري غلب عليه وهو يغلب على كبار الرجال في مثل هذه الحال فكيف بعبد خصي مهما بلغ من اخلاصه على انه انتحل لنفسه عذراً على اقراره — وذلك ان الرشيد لم يسأله الا وهو عالم بكل شيء فاذا أنكر قتل ولم تنتفع مولاته بقتله اما اذا اعترف وظل حيًّا فقد يستطيع انقاذها أو خدمتها في شيء — مرت تلك الخواطر في ذهنه بلحظة ولما عمد الى الاقرار أحس بوخز في ضميره لئلا يقع من اقراره ضرر على العباسة فاطرق

وتشاغل ببلع ريقه ولا ريق في فمه لما اصابه من الجفاف لشدة خوفه وهول موقفه ولحظ الرشيد تردده فصاح فيه « قل . . أو اقتلك »

فقال وصوته يتلجلج « ان جعفر . . قد تزوج اختك العباسة . . منذ سبع سنين وولدت منه ثلاثة بنين ... أحدهم ... له ست سنين والآخر .. له خمس سنين والثالث . . . عاش سنتين ومات قريباً . . والاثنان . . . الباقيان . . . قد أنفذهما الى مدينة الرسول . . . وهي حا . . . مل . . . بالرابع ... » واختنق صوته

الفصل السادس والخمسون

الانتقام

وكان الرشيد يسمع كلامه والشرر يكاد يتطاير من عينيه فلما فرغ ارجوان من كلامه قال له الرشيد « كيف يجري ذلك وأنت عالم به ولم تخبرني ؟ »

فتشدد ارجوان عند هذا السؤال لان جوابه هين عليه وقال « أنت اذنت لوزيرك بالدخول على أهل بيتك وأمرتني أن لا امنعه في أي وقت شاء ليلا أو نهاراً »

فقال وهو يحرق أسنانه « أمرتك ان لا تحجبه فحين حدثت هذه الحادثة لم لم تخبرني أول مرة » [1] ثم التفت الى مسرور وقال « اضرب عنقه »

فأمسكه مسرور بيد من حديد وجره الى النطع بعنف كأن له عليه ثأراً دموياً فسقط ارجوان وهو يصيح « الامان الامان »

فلم يمهله مسرور ان يقول الثالثة لئلا يجيب الرشيد طلبه فيعفو عنه وهو سفاك غليظ القلب يلذ له منظر الدماء ويفتخر بعدد الذين قتلهم وبسرعة فتكه بهم فابتدر ارجوان بضربة سيف على عنقه فازاح رأسه عن كتفيه

أما الرشيد فحول وجهه وسأل عن زبيدة فدلوه على غرفتها فدخل

(١) أعلام الناس ١١٤

عليها وقد أخذ الغضب منه مأخذاً عظيما وكانت متربعة على فراشها وقد اطرقت تفكر . فلما رأت الرشيد داخلا تحفزت للقيام ولم تقم . اما هو فلم يلتفت الى شيء من ذلك لما هو فيه من الحنق وقال وصوته يرتجف ولحيته ترقص وقد امتقع لونه « أرأيت ماعاملني به جعفر . . ؟ وما ارتكب من هتك ستري ونكس رأسي وفضيحتي بين العرب والعجم »

فقالت بصوت هادىء وجأش رابط « هذه شهوتك وارادتك . . عمدت الى شاب جميل الوجه حسن الثياب طيب الرائحة جبار في نفسه ادخلته على ابنة خليفة من خلفاء الله وهي أحسن منه وجهاً وانظف منه ثوباً وأطيب رائحة لكنها لم تر رجلا غيره فهذا جزاء من جمع بين النار والحطب »

فقال « ألا تزالين تعنفيني . . والله سأمحو هذا العار عني بالدماء »

فسرها تهديده وأحبت أن تمكنه من عزمه انتقاماً من جعفر فقالت « سنرى مايكون . وأخاف انك اذا رأيت وزيرك غيرت عزمك اذ يغلب عليك حنو الاخوة فتعفو عنه . . » قالت ذلك وهي تتشاغل بتثنية اهداب كمها المزركش بالقصب وبان الغضب والعتب في عينيها

فاحس الرشيد بما ينطوي تحت تلك العبارة من القوارص وشعر انه صاحب الذنب وحده لانه كثيراً ماسمع نصحها له في هذا الشأن ولم يعرها التفاتاً ولكنه استكبر تعريضها بذلك في تلك الساعة ولولا احترامه لها لم يصبر على توبيخها . ومع ذلك فلم يتمالك عن تحريق اسنانه غيظاً وتجلد وتهد ونظر اليها وقال « كفى يابنة العم . فماعلينا الا كتمان هذا الامر مااستطعنا الى كتمانه سبيلا . . وأي انسان علمت انه اطلع عليه قتلته . . الا انت ... وقد قتلت ارجوان بعد أن امنته لاني لم أطق ان ارى رجلا عالماً بهذه الخيانة التي لطختني بها أختي ووزيري الذي اسميه أخي . » ثم انتبه لنفسه وندم على تصريحه بما في خاطره على جعفر ولا سيما بين يدي زبيدة وهي أشد أعدائه نقمة عليه . فتماسك وحاول الابتسام والتجلد وقال « ولكن الانسان موضع الخطأ والنسيان . . »

فادركت زبيدة مايتضارب في خاطره من العواطف وأحست انه يهم بالخروج فوقفت له وحاولت اجلاسه فامتنع وودعها وهو لاينظر اليها اما خجلا أو حنقاً . فامسكت بيده واستوقفته فوقف وهو لايلتفت اليها فقالت « تمهل . . ألا تحب أن تعرف أين الغلامان ؟ . . »

فأجفل وقال « الغلامان ؟ .. علمت أنهما في المدينة »

قالت « كلا بل هما في مكان قريب أنا أعرفه وسيحضران متى شئت »

فقال « في بغداد ؟ »

قالت « نعم »

فتحول عنها وصاح وهو لايزال في القاعة « مسرور »

فحضر أسرع من البرق فقال له وزبيدة واقفة « هل رأيت شيئاً الليلة ؟ »

قال « كلا يامولاي لاني أصم أعمى » وهي علامة تحريضه على الكتمان ثم امره أن يأتيه بالبرذون وسار في أثره فأتاه به فركبه وساقه نحو قصر الخلد ومسرور يعدو في ركابه وقد مضى هزيع من الليل . ففضى الطريق وهو غارق في بحار الهواجس وقد نسي نفسه لما جاش في خاطره من أمر العباسة . وأعمل فكرته في مادهمه من الامر العظيم فرأى أن ملكه وسطوته وأمواله أو اي شيء مما حازه من نعيم الدنيا لايخفف عنه وطأة ذلك المصاب . وحدثته نفسه ان يستقدم اخته في تلك الساعة أو يذهب اليها ويفتك بها ولكنه خاف الفضيحة فجعل يتصبر الى الغد لعله يهتدي الى سبيل آخر

الفصل السابع والخمسون

التردد

أما العباسة فقد كانت في غفلة عن كل ذلك تهتم في اعداد معدات السفر وعتبة تبذل جهدها في طمأنتها وتطييب خاطرها وتمنيها بما ترجوه لها من السعادة متى خرجت من بغداد واقامت في خراسان اذ يكون زوجها صاحب السلطة فيها . وكانت العباسة اذا أعملت فكرتها واستخدمت عقلها رأت انها تعرض نفسها لخطر عظيم ربما آل الى سفك الدماء . اما اذا استشارت قلبها وتصورت اجتماعها بحبيبها ولا رقيب عليهما فيربيان الولدين براحة وسكينة ويتمتعان بحنو الوالدين فتبرق اسرتها وتنبسط نفسها ثم يعترضها غضب اخيها اذا علم بعملها فتعود الى الانقباض . واخيراً احست بانفراج كربتها فجأة لخاطر طرق على ذهنها يغنيها عن هذه المخاوف . وذلك ان تكتم اسمها وخبرها في خراسان فتعيش مع زوجها وولديها مستترة حتى يقضي الله بما يشاء . فهذه الخواطر كانت تخفف مخاوفها ولا سيما اذا تذكرت ارجوان خادمها الامين لانه كان من اعظم اسباب تعزيتها

وهي في تلك الهواجس رأت عتبة تعدو نحوها والبغته ظاهرة في وجهها فخفق قلبها وتصاعد الدم إلى محياها ولم يكن اسرع من وقوع الرعب في ذلك القلب لما تعلمه صاحبته من الاخطار المحدقة بها من كل صوب ولا سيما في تلك الساعة وهي في ماقدمناه من القلق . فلما رأت عتبة على هذه الصورة صاحت فيها « ماوراءك »

قالت « ارجوان ! . . » وسكتت

فبغتت العباسة وقالت « ماذا جرى له ؟ »

قالت « لااعلم اين هو »

قالت « اليس هو في القصر ؟ ابحثي عنه لعله في بعض الغرف يشتغل في الاستعداد »

فهمت بالخروج وهي لاتنويه ثم عادت ووقفت متحيرة واطرقت وهي تتشاغل بحك صدغها فازدادت العباسة خوفاً وقالت « مابالك ؟ . . ماذا جرى له .. قولى اين هو »

قالت « لا أدري يامولاتي ولكن بعض الخدم اخبرنى انه خرج من القصر و . . »

فقطعت كلامها قائلة «خرج من القصر ! أفي مثل هذه الساعة يتركنا والى اين ذهب »

قالت « لاأعلم . . » وغصت بريقها

فصاحت العباسة « ويحك قولى . . اين هو »

قالت « اظنه . . . ذهب الى دار القرار »

فصاحت « دار القرار ذهب الى أم جعفر وأي شغل له هناك »

قالت « اخبرونى أن شاكرياً جاء في طلبه على عجل ولم يمهله ريثما يستأذنك »

فعضت العباسة على شفتيها واطرقت لحظة ثم استأنفت السؤال قائلة شاكري جاء في طلبه . . وما ظنك بسبب ذهابه ؟ »

قالت « اظنه ذهب لامر مخيف . . »

فقالت « مخيف ! . ولماذا . . قد يكون ذهابه لغرض بسيط »

قالت « بل هو ذهب لامر مخيف . . . لان امير المؤمنين هناك الليلة» فلطمت العباسة يداً بيد وصاحت « أمير المؤمنين هناك ومن انبأك بذلك قولى . . . لقد ازعجتني ياعتبة »

قالت « علمت أنه هناك من جاسوس لنا في قصر الخلد جاءني من ساعة وأخبرني ان الرشيد ركب برذونه وجاء الى دار القرار ومعه الخادم اللعين مسرور . . ولم انقل لك هذا الخبر لاشتغالى في الاستعداد وكنت أحسب قدومه لامر خاص به فلما علمت بذهاب ارجوان على هذه الصورة وقع الرعب في قلبي فجئت اليك . . اني خائفة من عاقبة ذلك ياسيدتي . . . »

فاطرقت العباسة وقد أخذ الخوف منها مأخذاً عظيما وعمدت الى

التفكير في ماسمعته وارتبكت في أمرها فقالت « ماالذي تخافينه من استدعاء ارجوان وأخي هناك ومع ذلك فنحن على أهبة السفر غداً »

قالت « صدقت وأنا قد فرغت من الاستعداد ومتى رجع ارجوان ورأينا في الامر مايدعو الى سرعة الذهاب خرجنا حالا . ألا تخرجين في هذا الليل »

قالت « ولكن الوزير أمرنا ان نتربص ريثما يأتينا رسوله . . »

قالت « سنرى . . وسأرسل خصياً يتجسس خبر ارجوان ويعود الينا سريعاً »

قالت « افعلي . . . » وتحولت عنها الى الشرفة التي تعودت ان ترى رسول جعفر منها اذا جاءها بخبر . وخرجت عتبة لارسال الخصي

الفصل الثامن والخمسون

البغتة

وقفت العباسة على الشرفة ساعة وعيناها شاخصتان نحو الطريق والظلام يحجب بصرها وكلما رأت شبحاً ظنته رسول جعفر

ظلت على ذلك حتى مضى نصف الليل والهواجس تتقاذفها فلما استبطأت عتبة همت ان تبعث في استقدامها فاذا هي آتية تعدو مهرولة والدمع ملء عينيها وقد نبش شعرها وامتقع لونها وابيضت شفتاها فصاحت العباسة «مابالك ياعتبة . . مالي اراك تبكين . . . ماذا حدث »

فاسرعت وأمسكتها بيدها وجرتها الى حافة الشرفة . وهي لاتتمالك عن الارتعاش وقالت « اذهبي ياسيدتي . . . انزلي من هذه الشرفة . . اطلبي الفرار بنفسك . . »

فقالت « ماذا جرى . هل عاد الجاسوس الذي ارسلته . ماذا قال »

قالت « عاد ولم تنفعنا عودته . . . انزلي من هذه الشرفة واختبئي في

الشارع وسأرسل اليك من يصحبك الي مولاي الوزير . . . انزلي . . . انزلي . . . »

فاستغربت حالها وانتثرت منها وقالت « ماذا جرى . . ؟قولى . . . » قالت وصوتها يرتجف ويتقطع « أمير المؤمنين : . يامولاتي . . أميرالمؤمنين» وأومأت بيدها نحو الداخل

ففهمت ان الرشيد جاء القصر وأدركت ان الامر بلغ أشده وان الساعة آتية لاريب فيها لان أخاها لايأتيها بعد نصف الليل الا لامر عظيم ولا سيما بعد تلك المقدمات فعظم عليها الامر لاول وهلة فوقفت لحظة . ثم غلبت عليها عزة النفس ونسيت ما كانت فيه من الاضطراب وأكبرت أن تفر على هذه الصورة وهي لاتضمن النجاة : وتحولت رعدتها الى سكينة وثاب اليها رشدها وظلت واقفة مكانها وعتبة تشد بهدب ثوبها وتحرضها على الفرار من تلك الشرفة : ثم سمعت دبدبة ووقع أقدام كثيرة فاجتذبت ثيابها من عتبة وقالت « دعيني فاني أحب ان ارى اخي واسمع قوله » ثم تراجعت وهمست في أذنها قائلة « ارسلي رجلا سريع الخطى يمضى الى الوزير فيخبره بما جرى انا ليكون على حذر من امر نفسه مخافة ان يصيبه ماأصابنا لان مجيء أخي بعد منتصف الليل على هذه الصورة يدل على خطر يهددنا جميعاً »

قالت ذلك ونزلت من الشرفة نحو الدار فلقيت الرشيد ماراً في الدهليز نحوها وعليه ثوب بسيط فوقه عباءة واسعة لانه جاءها متنكراً وكان قد ذهب الى قصره على أن يؤجل امر العباسة الى الغد كما تقدم فعظم عليه القلق ولم يستطع رقاداً فبادر اليها ومعه مسرور خوفاً من أن يبلغها غضبه فتعمد الى الفرار لعلمه بمن يحدق به من جواسيسها وجواسيس جعفر ولم يكن يتوقع أن يراها خارج الفراش فكيف وقد شاهدها تتأهب للسفر

أما هي فتجلدت ورحبت به قائلة « لقد شرفني أخي بزيارته »

فلم يجبها بل ظل ماشياً الى مقصورة لها في بعض جوانب القصر تعود ان يجالسها فيها اذا زارها فتبعته وركبتاها تصطكان وهي تتمالك وقد ذهب

خوفها من الموت لان توقع المصيبة شرّ من وقوعها . وكبير النفس اذا تراكمت عليه المخاوف وتحقق وقوع الخطر تجلد ورجع اليه رشده . فالعباسة تشددت وقام في نفسها ان تناقش أخاها الحساب فاذا قتلت بعد ذلك فلا تأسف على الحياة

وكانت عتبة تمشي في أثرها وهي تبكي وتتمتم فاشارت اليها ان تنصرف في المهمة التي كلفتها بها . ورأت العباسة في دهليز الدار مسرور الخادم واقفاً فلما وقع نظره عليها حياها باحترام فلم تجبه لعلمها بفظاظة قلبه ـ والنساء يكرهن أهل الغلظة والخشونة بلا سبب يدعو الى الكره . وما زالت تمشي وراء الرشيد حتى دخل المقصورة وفيها كرسي قعد عليه وهو يلتف بالعباءة وعلى رأسه عمامة صغيرة من الوشي . وتوسمت العباسة في وجهه الغضب الشديد حتى كاد الشرر يتطاير من عينيه فتجاهلت ووقفت أمامه تنظر ما يبدو منه

أما هو فأمرها باغلاق الباب فأغلقته ووقفت بجسارة لم يعهدها بها من قبل فابتدرها قائلاً « أراك في ثياب السفر يا عباسة فالى أين ؟ »

قالت « الى حيث لا أرى أخاً ولا أخاف ظلماً »

الفصل التاسع والخمسون

الجدال

فاستغرب مفاجأتها اياه بهذه الجسارة على حين انه لم يكن يتوقع منها غير التذلل والتضرع فحمى غضبه ولكنه صبر نفسه ريثما يطرح عليها بعض الاسئلة ويسمع جوابها وقال « أتعلمين لماذا جئتك في هذا الليل والناس نيام . . . الا انا وأنت ؟ »

قالت « كلا »

قال « فلماذا بادرتني بهذه الوقاحة »

قالت « سألتني سؤالا فصدقتك في الجواب عليه »

قال « لقد تأخرت في الصدق بعد الخيانة التي ارتكبتها »

قالت « لا أعرف اني ارتكبت خيانة . . . ولو سألتني مثل هذا السؤال من قبل ما كذبتك »

قال « ألم تكوني اخت امير المؤمنين ؟ »

قالت « بلى . . . وأرجو أن لا أزال اخته »

قال ومثلك تخون أخاها في رجل من الموالي ؟ . . »

قالت « قلت لك اني لم ارتكب خيانة قط وحاشا لله ان أخون أحداً . . »

قال « أو تحيبيني بهذه القحة وقد أصبح أمرك مشهوراً حتى أذللتني بين الملأ بامر اتيته لم يخطر ببالى »

قالت « وأي امر تعني يا هرون . . أو لعلك تعد الصدق خيانة ؟ »

قال « اعني امرك مع جعفر الوزير الذي لم يرع حرمتي ولا خاف سطوتي . . »

فاحبت عند ذلك أن تجادله بالبرهان لعله يرق لها ويعذرها ويستبقيها فقالت « ان الوزير لم يخرق لك حرمة ولا أراد بك سوءاً . . . فارفق يا اخي ولا تعجل في حكمك . . : »

فصاح فيها « لا تدعيني أخاً لك . . . فاني بريء من قرابتك . . »

قالت « تبرأ مني ما شئت . . . ولكن ذلك الرجل لم يرتكب خيانة . . »

قال « ويحك ! . . ألا تزالين تحاولين الكتمان ؟ . فاعلمي اني علمت كل شيء وقد اطلعني ارجوان خادمك الخائن على سرك واذا أصررت على الانكار فان ولديكما يشهدان على ذلك . . »

فلما سمعت ذكر ولديها تحرك حنوها وخيل لها أنها اذا اصرت على الجفاء دعته الى ايقاع الاذى بهما فصغرت نفسها وضعف عزمها عن المقاومة وغلب عليها الحنان واستسهلت في سبيل استبقائهما ان تتذال وتستعطف — وليس اشد وقعاً على قلب الوالدين من ان يصابوا باولادهم فاذا خافوا ذلك

لا يبالون ما يضحون في سبيل انقاذهم ولو ارتكبوا أكبر الكبائر في هذا السبيل والاستعطاف من اسهل الوسائل . فجثت العباسة عند ركبتي الرشيد وأرادت التكلم فسبقتها العبرات فظنها تهم بالاعتراف عن جريمتها توطئة للاستغفار فحول وجهه عنها وقال « قد تحققت اني مطلع على حقيقة فعلك فلم ترى بداً من الاعتراف والاستعطاف ولكن هيهات ان من يأتي ما أتيت به لا علاج له غير القتل الشنيع

فكفكفت الدمع وتجلدت وهي لا تزال جاثية وقالت « اني لا استعطفك من أجلي ولا أنا أعترف بجريمة .. ولكنني أطالبك بحق لا أخالك تنكره واذا شئت ان تنكره على سواي »

قال « وأي حق تعنين ؟ »

قالت « تمهل يا أمير المؤمنين ـ ولا أقل يا أخي لئلا اغضبك ـ تمهل وأنا أذكر لك ذلك الحق .. » فتجلد وقال « قولي »

قالت « ألم تعقد عليّ لجعفر عقداً شرعياً صحيحاً ؟ »

قال « بلى . . ولكنني فعلت ذلك ليحل لكما ان ينظر أحدكما الى صاحبه .. وليس لما وراء ذلك »

قالت « وهل يجوز العقد على هذه الصورة ..؟ واذا جوزته أنت فهل يعد من يتم شروطه خائناً . . ؟ »

قال « لا تكثري من المواربة فانكما علمتما منذ كتابة ذلك العقد ان المراد به النظر لرغبتي في مجالستكما لاني كنت أحبكما وأحب حديثكما . . . (وهز رأسه وحرق أسنانه) هذا جزاء المحبة ؟ »

قالت وفي صوتها لحن الملاينة « ولكن ألا يظن امير المؤمنين اننا كنا بدون هذا العقد خيراً منا معه ... »

فقطع كلامها وقال « لا ريب في ذلك لانكما بعد ان كنتما من أحب الناس الي صرتما أبغض الابالسة عندي .. »

قالت « ولماذا ؟ ألاننا أتينا امراً حلله الله وحرمته أنت . . أليست طاعة الله اولى من طاعة أمير المؤمنين ؟ . »

الفصل الستون

عذر الرشيد

فلما رآها كادت تفحمه زاد غضبه ليس لأنه أدرك وجه الحق عندها . ولا هو يتعمد اذيتها ظلماً وبهتاناً ولكن العادة غلبت على طباعه — تعود ان لا يسمع غير التأمين على ما يقوله والتنفيذ لما يريده حقاً كان أو باطلا شأن اصحاب السلطة المطلقة ولاسيما في تلك العصور وقد كثر المتملقون الذين يتزلفون الى ولي الامر بالاطراء والاغراء لا يبالون بما قد يكون من عواقب تغريرهم . فيستبد الحاكم المطلق باموره فكراً وقولا وفعلا حتى ينسى ميزان الحق ويسوغ لنفسه ما لا يسوغه لسواه كأنه من طينة غير طينة البشر . ويتوهم أنه صاحب الحق دائماً وان ارادته اذا اضيفت الى حقه وان كان قليلا تضاعف ورجحت كفته

فلا يلام الرشيد لاصراره على تخطئة العباسة وتصامه عن سماع حجتها وعذره في ذلك انه شب على نفوذ الكلمة حتى صار الاستبداد طبيعة له تتغلب على عقله وسداد رأيه ولا سيما في حال الغضب . فلما سمع حجة العباسة عمد الى الاستعانة بسلطته الشخصية فقال «ولكنني نهيتكما فعصيتماني ومن عصى امير المؤمنين حق قتله . . »

قالت « اذا لم يكن بد من ان تعد عملنا عصياناً . . . فأنا العاصية . . . وليس هو ... ولا ... »

فقطع قولها وانتهرها وقال وهو كأنه يتحفز للوثوب « أراك تحبينه وتتحملين التبعة عنه ؟ »

فتنهدت وقد هاجت أشجانها وقالت « نعم أحبه . . ولولا ذلك ما خالفت أمرك فيه .. نعم اني أحبه وأراه أهلاً لحبتي ومحبة من هو أعظم مني لانه من خاصة الناس وقد أتى اعمالا ترفع قدره فوق اقرانه وليس أرفع قدراً منه غير أمير المؤمنين وحده » قالت ذلك وقد عادت اليها الانفة

وأبرقت عيناها واحمرت وجنتاها كأن الخجل غلب عليها ومثل هذا التصريح عظيم من نساء ذلك العصر ولا سيما في حضرة الخليفة

أما الرشيد فلما سمع تصريحها ازداد استغراباً ودهشة وقال « ويحك أتعترفين بحبه في حضرتي ثم أنت تفضلينه على سائر الناس حتى بني هاشم جميعاً ؟ وهو عبد واذا رفعت قدره فهو مولى أعجمي . لا تجادليني بالمحال فانه مقتول .. »

فلما سمعت تلفظه بقتله ارتعدت فرائصها وعاد اليها ضعفها وهان عليها التذلل في سبيل انقاذ حبيبها فضلا عن ولدها . فتجلدت وأمسكت عواطفها وعمدت الى الملاينة فقالت « هرون . . أخي هرون ! . . بل يا أمير المؤمنين . اذا كنت تنكر العباسة الآن فتذكر أنها كانت أختك وكنتما تلعبان معاً في الصغر وتتحابان . فاصغ لقولها على الاقل في ذلك الوزير فانه وزيرك ولم يقصر في خدمتك ... أتقتله لغير ذنب ارتكبه انه لم يرتكب ذنباً . . . واذا لم يكن مفر من قتل أحدنا فاقتلني أنا . لاني أنا المخطئة دونه »

فقال وهو يضحك غصباً واستخفافاً « وانت أيضاً مقتولة .. وسأقتل ولديكما لامحو أثر هذا العار من الوجود ... »

فلما سمعته يهددها بقتل الولدين اقشعر بدنها وقف شعرها ونهضت رغم ارادتها وصاحت بصوت مختنق « تقتلهما ؟ . . ما ذنبهما . . انهما طفلان بريئان ... انهما ملاكان كريمان لا يعرفان حلالا ولا حراماً ... بالله الا أشفقت عليهما ؟ » ثم ضمت يدها الى صدرها وقالت « ولدي . . آه . . يا امير المؤمنين .. رفقاً بذينك الطفلين » قالت ذلك وصوتها يتقطع وتكاد تشرق بدموعها

فلما رآها تبكي على هذه الصورة تحركت فيه عاطفة الاخوة وهو والد يسهل عليه تصور عواطف الوالدين . وربما جال في خاطره وهو يجادلها ويدافعها ان يلتمس لها عذراً أو يغضي عن عملها ولكن ما سبق الى ذهنه ما لحقه من العار بسببها كان يعترض خطوه . وكان الرشيد من اكثر الناس غيرة على العرض وأشدهم رغبة في صيانته وقد يغتفر كل ذنب غير التعرض

لدولته أو عرضه ـ وهو يعد عمل جعفر تعرضاً للامرين معاً . وقد توهم ان وزيره انما استولد العباسة ليكون في اولاده دم هاشمي يساعده على طلب السلطة وهي يومئذ لا مطمع فيها لغير القرشيين . فكان الرشيد وهو يسمع استعطاف اخته ويرى عذرها يغالب عواطفه ولا سيما لما سمعها تدافع عن الولدين وهو يعلم براءتهما كما تعلم هي ولكنه يرى بقاءهما عثرة له أو حجة عليه . فلما طلبت استبقاءهما وهي تبكي لم يلتفت الى بكائها بل اجابها مختصراً « اقتلهما لاخفي هذه الخيانة من الوجود »

فعادت الى التذلل رفقاً بالولدين فقالت وهي تبكي وتشهق « اشفق يا أخي .. نعم يا أخي .. فانك أخي .. تذكر الرحم .. واذا كنت لاتزال تعد عملنا خيانه فاقتلنا كلينا واستبق ذينك الولدين فانهما بريئان . . »

فقال « انهما يقتلان بذنبكما ولا يمحو هذا الذنب غير القتل »

فلما رأت الاستعطاف لا يجدي نفعاً عادت انفتها وعزة نفسها ومسحت دموعها ونظرت الى الرشيد نظرة حادة كادت تخترق صدره لولا اصراره على الغضب وقالت « ألا تزال تعد عملنا ذنباً ونحن انما أطعنا به أمر الله ؟ ... »

قال « لا تحاولي محالا فقد عصيتما امير المؤمنين فارتبكتما خيانة لا صبر لي على تحملها » ووقف كأنه يهم بالخروج فاستوقفته وقالت « لقد أحرجتني يا هرون حتى ألجأتني الى التصريح بما لم تتعود سماعه مني ولا من امرأة سواي ... كيف تحرم علينا امراً أحللته لنفسك ؟ »

فانتهرها ويده على قبضة خنجره قائلا « بمثل هذا الخطاب تخاطبينني يا وقحة وتقولين انى ارتكب مثل جريمتكما ؟ »

قالت « نعم أقول لك ذلك ولا أخاف لا ثماً .. فان ما تحاسبنا عليه زواج شرعي أنت عقدته بيدك ولا تحاسب نفسك ولا أنا أحاسبك على مثله . ولكني اذكرك بمن في قصرك من الجواري والسراري فانهن كثيرات ولا ترى بأساً من التمتع بهن والشرع لاينهاك عنهن .. فكيف تنهاني عن زواج واحد شرعي . أليس ذلك من الظلم ... تتهادون الجواري بالعشرات والمئات بلا

حرج ولا بأس حتى ان نساءكم يهدينكم منهن ما يطيب لكم . . . هذه زوجك أم جعفر قد أهدتك عشر جوار من اجمل النساء [1] ـ وقد فعلت ذلك وهي لا ترى فيه حطة ولا ذنباً لها ولا لك . ولكنكما تريان ذنباً لمثلي ان تتزوج من رجل عقدت له عليها واذا استعطفتك غضبت وهددتها بالقتل وهددت زوجها به أيضاً ولا ترضى مع ذلك الا بقتل طفلين لا ذنب لهما ولا تقبل بهما شفاعة من والدتهما الحزينة التي رضيت ان تقتلها وتبقيهما . . »

الفصل الحادي والستون

الفتك

فلما سمع قولها وما فيه من الجسارة لم يعد يصبر على رؤيتها فانتهرها قائلا « أراك تماديت في القحة وقد اخطأت لأني وسعت لك مجال القول . . . وقد نفد صبري وآن لي ان افرغ منك ثم نادى « مسرور ! »

فدخل ذلك الفرغاني الغليظ القلب وحسامه الى جانبه فلما رأته استعاذت بالله من رؤيته وتحققت قرب منيتها فالتفتت الى الرشيد وقالت « اني مقتولة الآن لامحالة ؟ وليس من يدفع عني هذا القضاء فاذا كنت لا تصدقني بدفاعي عن نفسي فاني أتقدم اليك ان تصدقني في جعفر فانه لا يستحق القتل ولا ذنب له في شيء مما تتهمه به وارفق بالطفلين . . » قالت ذلك وخنقتها الدموع

أما الرشيد فلما دخل مسرور صاح فيه « هل أوصدت أبواب القصر وحبست أهله ؟ »

قال « نعم يا مولاي »

قال « وأين الخادمان والفعلة الذين أتيت بهم معك ؟ »

قال « هم على مقربة منا . هل أدعوهم . »

قال « ادع الخادمين فقط . . »

(١) الاغاني ١٣٧ ج ١٦

فخرج ثم عاد ومعه خادمان يحملان صندوقاً كبيراً . فلما رأت العباسة ذلك تحققت أنها مقتولة والتفتت الى أخيها فرأته قد حول وجهه عنها وأشار الى مسرور فهجم عليها بالسيف فقالت لاخيها « انت مصر على قتلي ؟ . . ألا تخشى الله في . . تقتلني لاني أطعت الله وعصيتك ، ولكنكم معاشر الرجال تحللون لانفسكم ما تحرمونه على نسائكم . أمن العدل أن يكون في قصرك مئات من السراري والجواري وتقتلني من أجل رجل تزوجته بشرع الله وسنة نبيه .. لا أبالي أن اموت ولقد لقيتك وناقشتك الحساب» ثم خفضت صوتها وقالت «ولكنني أبالي ان لا ترتكب ذلك بزوجي العزيز وولدي الحبيبين » ثم ولت وجهها نحو طريق الحجاز حيث تظن ابنيهما يقيمان وقد تعودت ان تستنشق رياها من تلك الجهة وقالت « استودعتكما الله ياحسن وياحسين » ثم حولت وجهها نحو الشماسية كأنها تهم ان تناجي حبيبها فسبقها مسرور بالسيف فقتلها والرشيد لا يلتفت اليها وود انه لم يشهد قتلها لانه كان يحبها كثيراً وكثرة محبته لها أوجبت شدة نقمته عليها لما اعتقده من خيانتها

فلما سقطت ميتة أومأ مسرور الى الخادمين فوضعاها في الصندوق ونادى الرشيد « أين الفعلة » فخرج مسرور وعاد بهم وهم عشرة من الرجال الاشداء يحملون المعاول والزنابيل وقد حسروا عن سواعدهم وشمروا عن سوقهم كأنهم من الابالسة فأمرهم ان يحفروا وسط تلك المقصورة فحفروا حتى بلغوا الماء فقال « حسبكم هاتوا الصندوق » فأتوا به ودلوه في تلك الحفرة ثم قال « ردوا التراب عليه » ففعلوا وسووا الموضع كما كان ثم اخرجهم واقفل الباب وأخذ المفتاح معه وأمر مسروراً ان يحتفظ بالقصر ولا يدع أحداً يخرج منه أو يدخل اليه فأوصى الحرس بذلك وشدد عليهم وقال « أي انسان جاء الى هذا المكان اقبضوا عليه »

ثم قال الرشيد لمسرور « خذ هؤلاء القوم واعطهم اجرتهم ووافني في القصر » ففهم مسرور انه يأمره بقتلهم فأخذهم وجعلهم في جواليق وخيط عليهم بعد أن ثقلهم بالصخر والحصى ورماهم في وسط دجلة وعاد الى قصر

الخلد فوجد الرشيد هناك وقد طار نومه فلما أقبل سأله الرشيد « هل فعلت ما أمرتك به ؟ »

قال « قد وفيت القوم أجورهم » (١)

قال « خذ هذا المفتاح وابقه معك حتى اسألك عنه » ودفع اليه مفتاح المقصورة

فتناوله وقال « سمعاً وطاعة »

وكان الصبح قد اقترب فقال « نحن في صباح الخميس وهو موكب جعفر الوزير فلا تتباعد عني »

فأومأ مطيعاً

الفصل الثاني والستون

الوداع

أما جعفر فقد كان في غفلة عن كل ذلك وهو يتهيأ للرحيل في الغد وقد صمم على السفر عاجلا بعد ماجرى من الحديث بينه وبين اسماعيل وزادت مخاوفه . ولم يكن له بد من وداع الخليفة قبل خروجه الى خراسان على جاري العادة في خروج العمال الى أعمالهم . وكان قد أعد كل شيء ولم يبق غير الركوب والخروج فلما عزم على وداع الرشيد نادى خادمه حمدان فجاءه فقال « أنت عالم اننا مسافرون اليوم »

قال « نعم يامولاي . . فهل اذهب الى مولاتي العباسة فآتي بها الى هنا أو نوافيك الى النهروان ؟ »

فاستحسن جعفر سرعة خاطره وتيقظه في خدمته فابتسم وقال « بل أرى أن توافياني الى النهروان ولذلك فلا باعث على العجلة في الذهاب اليها . والاحسن أن تؤجل ذلك الى حين رجوعي من وداع الخليفة »

قال « الامر لك ياسيدي .. »

(١) اعلام الناس للاتليدي ١١٤

فلما كان الضحى خرج جعفر في موكبه الحافل وحوله الفرسان والركابية حتى أقبل على قصر الخلد فوسموا له فدخل الابواب بالابهة والعظمة على جاري العادة وهو يقول في نفسه « هذه آخر مرة ادخل فيها هذه الابواب لملاقاة رجل اداجيه ويداجيني فمتى صرت الى عملي في خراسان كنت بين اهلي واعواني ولا نظننا نلتقى بعد الآن الا اذا جاءني لحرب . . » وما عتم ان وصل الى دار الخاصة فترجل

وكان الرشيد قد جلس للناس فدخلوا على مراتبهم فسلموا وانصرفوا حتى دخل جعفر وسلم فرد عليه الرشيد أحسن رد ورحب به وضحك في وجهه وأجلسه في مرتبته وكانت أقرب المراتب اليه . وأخذ يحدثه ويلاطفه ساعة وهو يظهر البشاشة والاستئناس واتوه وهو هناك بكتب وردت من النواحي فقرأها على الرشيد وأمضاها . ثم نظر اليه وهو يظهر الامتنان من احتفائه به وقال « لقد غمرني أمير المؤمنين بنعمه وأعلى مقامي حتى ولاني أكبر عمل من أعمال دولته فوجب علي شكره . . »

فضحك الرشيد ومازح وقال « انك أخي ولو قسمت هذه المملكة بيني وبينك لانصفتك . . »

فتظاهر جعفر بالخجل من هذا الاطراء وتأدب وتلمل في مقعده وقال « انى من موالى أمير المؤمنين وكل مايأتيني من قبله انعام وتفضل على مولاه » ثم قال « وان اقصاني أمير المؤمنين عن مجلسه فاني عبده ابذل دمي في طاعته »

قال « بورك فيك . ولا شك اني سأشعر بافتقارى الي رأيك بعد ان توليت أمور الدولة وتركتني لا اهتم بشيء من امر نفسى »

فلما سمع جعفر قوله تذكر انها نفس العبارة التى قالها لاسماعيل لما باحثه أمس فوخزه ضميره وخاف ان يكون كلامه قد بلغ الرشيد ولكنه استبعد ان ينقله اسماعيل ولم يدر في خلده ان ذلك الغلام كتب به اليه مع علمه انهم يتجسسون كل واحد على صاحبه على انه لم يعمل فكرته في ذلك لاعتقاده قرب النجاة من هذه المخاوف بالخروج الى خراسان فاظهر شكراً لاطراء

الرشيد وقال « مهما بذل العبد في خدمة مولاه فلا منة له ولا فضل »

ومكث ينتظر امر الرشيد بصرفه الى خراسان لان التأدب يقضي أن يبدأ الخليفة بذلك فلما لم يسمع منه شيئاً في هذا الشأن قال « هل يأذن لى أمير المؤمنين بالانصراف » ولم يذكر خراسان فقد تحمل عبارته على انه يطلب الانصراف الى منزله

فقال الرشيد « هل تهيأت للسفر الى عملك ؟ »

قال « نعم ياسيدي »

قال « وهل تنوي الذهاب في هذا اليوم ؟ »

قال « اذا امرامير المؤمنين »

وكان الرشيد يريد تأخيره بحيلة ريثما يدرك غرضه فمتى اراد الفتك به كان قريبا منه لانه مازال الى تلك الساعة متردداً في ذلك الامر لما يعلمه من احزاب البرامكة حتى بني هاشم انفسهم كان اكثرهم يحبونهم فعلم ان الفتك بجعفر يقتضي الاحتياط واعمال الفكرة ليس كالفتك بالعباسة . فرأى ان يحتال في تأخير سفره فقال له « وهل استطلعت ارتفاع نجمك في هذا النهار؟ »

قال « كلا يامولاي » وكانوا شديدي التمسك بالطوالع يعتقدون بالسعد والنحس في النجوم باختلاف الساعات وكانت منازل الكبراء لاتخلو من اسطرلاب لاستخراج الطالع عند اللزوم وكان عند الرشيد اسطرلاب متقن الصنعة اتصل اليه من جده ابي جعفر المنصور لانه كان شديد العناية بالتنجيم والمنجمين وكان الاسطرلاب موضوعاً على رف من الابنوس المرصع بالعاج بجانب سرير الرشيد ليستخدمه عند الحاجة وكان له المام بهذه الصناعة وجعفر اعلم منه فبادر الرشيد حينئذ الى الاسطرلاب وامر الحاجب ان يأتيه ببعض المنجمين فما عتم ان جاءوه باحدهم لانهم من جملة ارباب الفنون المقيمين في قصر الخلد على عادة الخلفاء في ذلك العصر

فلما دخل المنجم قال له الرشيد « كم مضى من النهار ؟ »

قال « ثلاث ساعات ونصف »

قال « خذ الارتفاع »

فاخذه وأخبر الرشيد فجعل الرشيد يحسب له ذلك بنفسه ونظر الى نجمه ثم التفت الى جعفر وقال « ياأخي هذه ساعة نحس لاارى الا انه يحدث فيها حدث فالاوفق ان تؤجل سفرك الى الغد وهو يوم الجمعة فتصلي وترحل في سعودك وتبيت في النهروان وتبكر يوم السبت وتستقبل الطريق في النهار فانه اصلح من اليوم »

فشق هذا التأجيل على جعفر وأخذ الطالع وحسبه لنفسه وربما رأى غير ماقاله الرشيد لكنه ليس من آداب مجالسة الخلفاء ان يراجعوهم أو يخطئوهم ولعل الرشيد ادرك ذلك فلم يقبل بحساب المنجم فحسب الطالع بنفسه

فقال جعفر صدقت ياأمير المؤمنين ان هذه الساعة ساعة نحس وما رأيت نجماً اشد احتراقاً ولا اضيق مجرى من البروج في مثل هذا اليوم ورأي امير المؤمنين صواب »

ولبث ينتظر امارة الصرف على عادة الخلفاء فتزحزح الرشيد فقام جعفر وخرج يلتمس قصره والناس والقواد والخاص والعام من كل جانب يعظمونه ويبجلونه في داخل القصر وعلى قارعة الطريق وفي كل مكان والكل غافلون عن حقيقة حاله وما يحدق بحياته من الخطر ـ وأكثر مايشاهده الناس من مظاهر السعادة في أهل الدولة أو ارباب الثروة يقدرونه فوق قدره لانهم غافلون عما يشوبه من المتاعب والاخطار

خرج جعفر من قصر الخلد وهو لا يصدق انه سيستقل بعمله في خراسان ويعيش آمنا بين اهله واعوانه ومعه العباسة وابناها وينجو من دسائس أهل البلاط وما يحدق به من الخطر على الحياة

فلما وصل الى قصره بالشماسية بعث الى حمدان فلما أتى أخبره بتأجيل السفر الى الغد واوصاه ان يهتم بامر العباسة فيبقى في الشماسية بعد سفره حتى يخيم الظلام ثم يمضي الى قصرها ومعه الركائب يحملها ومن شاءت نقله معها الى النهروان او يسير بها الى ماوراء ذلك لتكون في مأمن وهو يعلم انها تحب

ان تصطحب عتبة وارجوان . ولكن حمدان لايحتاج في مثل هذا الى توصية لنباهته وصدق خدمته . ثم خلع جعفر ثيابه وقعد للراحة

الفصل الثالث والخمسون

عتبة وحارس القصر

أما عتبة فكانت قد أمرتها العباسة ساعة مجيء الرشيد ان تبعث الى جعفر فتخبره بما يهدده من الخطر لعله ينجو بنفسه . فمضت الى غرف الجواري والخدم لترسل أحدهم في هذه المهمة فرأت القصر محاطاً بالحرس ولا سبيل الى الخروج فعظم الامر عليها وذهبت الى غرفتها ترتعد خوفاً على سيدتها بعد ماشاهدته من مجيء الرشيد على تلك الصورة وأخذت تفكر في ماداهمها من الامر وايقنت ان سيدتها ستصاب بشر عظيم ولم تعلم انها مقتولة بعد قليل فما لبثت ان تحققت قتلها حتى بكت وندبتها وعلمت ان الخطر سيتطرق اليها ولكنها احتقرت حياتها بعد هذا المصاب واصبح همها ان تنفذ وصية سيدتها الى جعفر لانها لم تكن تشك في قتله بعد قتل العباسة فلا بد من أن تنبهه الى ذلك لينجو بنفسه . فأعملت فكرتها في وسيلة تنذره بها فرأت السبل مقفلة في وجهها فزادت حيرتها وطلع الفجر وهي تطوف من غرفة الى غرفة وتبكي وتندب

ثم رأت البكاء لا يجديها نفعاً وأحست ان خير ماتفعله في تلك الساعة ان تسعى في الخروج من القصر فاذا خرجت نجت من القتل وأبلغت الخبر الى جعفر وفي نجاته تعزية لها على مصابها بسيدتها . وانتقل فكرها فجأة الى أبي العتاهية لاعتقادها انه سبب هذه المصائب كلها فلعنته وتذكرت ماكان من حبه لها وكيف طلبها من الخليفة وأبت المجيء اليه فخيل لها انها اذا وفقت الى مقابلته ربما استرضته باظهار حبها له وهو لايعجز عن اخراجها من ذلك القصر لما تعلمه من دالة الشعراء ونفوذهم فاذا خرجت لاتعدم وسيلة في الوصول الى جعفر . وتذكرت رغبة أبي العتاهية في المال

وهو كثير بين يديها فاذا لم تستعطفه بالحب استخدمته بالمال ولما تصورت ذلك أحست بارتياح . ولكنها مالبثت أن عادت الى الانقباض لانها لاتعلم أين هو ابو العتاهية في تلك الساعة ولا كيف تتوصل اليه

ثم خطر لها أن المال يذلل الصعاب ويلين أغلظ القلوب فعزمت على بذله في أقرب الاسباب فاستخرجت عقداً من الجوهر كان في جملة ماجمعته من حلي مولاتها للسفر وتنكرت بثوب غريب وتقنعت بخمارها ولبست خفها وخرجت تطلب باب القصر وهي تتجاهل الاوامر بالتضييق عليه . فلما بلغت الباب ووجدته مقفلاً قرعته ونادت البواب الذى كان عليه من عهد مولاتها فلم يجبها أحد فقرعته ثانية ففتحت الخوخة وأطل منها رجل عرفت انه حارس من جند الرشيد فقالت له « أين البواب ؟ مابالكم أقفلتم علينا الابواب ؟ »

فاقفل الخوخة وتحول وهو يقول « ادخلي لا سبيل الي الخروج »

قالت « ويلاه ! . . ولماذا »

فصاح فيها « ادخلي ولا تكثري الكلام فان القصر مقفل بأمر أمير المؤمنين »

فصفقت وصاحت « ما الذي جاء بي اليه »

فادرك الحارس من ذلك انها ليست من أهل القصر ففتح الخوخة ونظر اليها فرآها تبالغ بالتقنع وهي تقول « بالله عليك الا فتحت لي واطلقت سبيلي فاني لم أجن ذنباً ولا أنا من أهل هذا القصر »

فقال « وما شأنك »

قالت « جئت البارحة بمهمة الي مولاتنا العباسة وخيم الظلام قبل الفراغ منها فبت مع بعض الجواري وانا مزمعة على الخروج الى سيدي لئلا يستبطئني ويسيء الظن بي »

قال « ومن هو سيدك »

قالت « سيدي . . ابو العتاهية شاعر امير المؤمنين »

فلما سمع اسمه استأنس به لشهرته والشعراء يومئذ زينة مجالس الخلفاء

فقال « وما الذي جئت به من قبله »

فاظهرت انها تخاف التصريح بذلك وظلت ساكتة

فقال الرجل « ما بالك لا تجيبني ؟ »

قالت « جئت من قبله بمهمة الى مولاتنا العباسة . . و . . . و . . . فافتح لي ولا تعيقني حرسك الله »

فلم يشك الحارس في انها تقول الصدق فاراد العبث بها فقال « أتيت بمهمة سرية ؟ فامكثي في مكانك واحفظي سرك معك » قال ذلك وأغلق الخوخة

فصاحت « بالله افتح لي ولا تضايقني فقد كفاني تأخري الليلة الماضية ولا آمن من شر أتوقعه بسببه فكيف اذا تأخرت أيضاً »

فعاد وفتح الخوخة وقال « لا أطلقك الا اذا اخبرتني عن السر الذي جئت به »

قالت « أراك تعبث بي وقلبك مستريح وأنا قلقة فاذا لم تصدق قولي فاني استشهد العباسة عليه ... ألا تصدقها ؟ »

فزاده تظاهرها بالسذاجة اعتقاداً بصدقها ولكنه تذكر تشديد الرشيد فخاف أن يخرجها ويتحمل تبعة ذلك فقال « هذا لا يهمني فاني مأمور بمنع أهل هذا القصر من الخروج والسلام » وأراد اقفال الخوخة فأمسكتها منه وحاولت فتحها وهي تقول « واذا اخبرتك بسبب مجيئي هل تطلق سراحي ؟ »

قال « وما ذلك ؟ .. قولي »

قالت وهي تخفض صوتها « أظنك تعلم ان أبا العتاهية ... ان أبا العتاهية أبطل نظم الشعر ... »

قال « نعم أعلم ذلك »

قالت « وأظنك تعلم انه يحب المال ... »

قال « انه مشهور بذلك »

قالت « فاذا أراد المال نظم القصائد سراً لبعض الامراء فنظم أمس قصيدة في مدح العباسة وبعثها معي فحملتها اليها مساء أمس فدفعت الىّ

الجائزة وأكرمتني بالمبيت هنا ... ليتها لم تفعل .. » وهزت رأسها

فقال « وما هي تلك الجائزة ! »

فتظاهرت بالخوف من الاقرار وتوقفت عن الجواب فابتدرها قائلاً « ألا تقولين ! »

فقالت بلهفة الخائف المستعطف « بلى » ومدت يدها الى جيبها فأخرجت العقد فأبرق بين أناملها كالشمس فمد الحارس يده ليتناوله فأسرعت في ارجاعه الى جيبها فقال « أرني إياه »

فدفعته اليه وهي تظهر خوفها عليه . فتناوله وأخذ يقلبه ويعجب به وهو يقول « انه ثمين ولكن . . . هل تظنين انى أخرجك بهذا العقد وأنا لا أملك جوهرة فن جواهره ! »

قالت وهي تتأفف « يهمني الخروج والسلام »

فلما رآها تتلهف للخروج قال « فاذا شئت الخروج فاخرجي وحدك »

قالت « وماذا أقول لأبي العناهية ! »

قال « قولى له ان العباسة لم تعطك شيئاً »

فسرها قبوله بذلك ولكنها أرادت تمكينه من وعده فقالت « ولكنه لا يصدقني . وأرى ان انصف بينكما فأعطيك نصف الجائزة واحمل اليه نصفها »

فرضي الحارس بذلك وبادر للحال فقطع العقد وأخذ معظمه ودفع اليها الباقي وقال يكفيك هذا القدر .. فاذا اعجبك ذلك اخرجي والا فادخلي »

فأطرقت لحظة ثم قالت « بل أخرج وأحسب انها لم تعطني شيئاً »

فسر الحارس لفوزه بتلك الجواهر وفتح الباب وقال لها « اخرجي ولكن احذري أن تخبري أحداً بخروجك فانك تقتلين لا محالة »

فخرجت وهي لا تصدق انها نجت وقلبها يكاد يطير فرحاً بالانطلاق من ذلك الاسر وأملاً بنجاة جعفر وكان الحارس أكثر مرحاً منها . وكانت الشمس قد اشرقت فاسرعت لا تلوي على شيء واكترت حماراً وركبت تطلب قصر جعفر بباب الشماسية

الفصل الرابع والستون

الدعوة العاجلة

أما جعفر فتركناه في قصره وقد خلع ثيابه للراحة ثم خطر له ان يجلس للصبوح وهو مجلس كانوا يعقدونه للشراب صباحاً . فأراد ان يودع بغداد به فأمر فاعدت المائدة وجاءوه بالشراب وسأل عمن في داره من المغنين فقالوا « ان أبا زكار الاعمى هنا » فقال « الىّ به ». فدخل ونصبت الستارة واستدعى جواريه ليغنينه فيتودع من مجالسهن في دار السلام لاعتقاده انه مسافر في صباح الغد . فأخذ ابو زكار يغنى والجواري يضربن على العيدان وجعفر يشرب ويطرب ويظن ان الناس غافلون عما بينه وبين الرشيد . وربما علموا من ذلك أكثر مما يعلمه هو ولا سيما المغنين فقد كانوا يطلعون على اسرار الناس بما يتاح لهم من حضور مجالس الانس التى يدور بها الشراب فاذا طرب الجلساء بدرت منهم بوادر تشف عن سرائرهم والمغنون يتجاهلون ذلك ويكتمونه خوفاً على حياتهم . فالرشيد مع تكتمه في امر جعفر لم يكن ليخفي سره على مغنيه الموصلي حتى قل انه سأله مرة وهو في بعض مجالسه « بماذا يتحدث الناس » فأجابه « يتحدثون انك ستقبض على البرامكة وتولى الفضل بن الربيع الوزارة [1] » فانتهره الرشيد وصاح فيه « ما انت وذاك ويلك »

وكذلك ابو زكار الاعمى فان عماه كان يجرىء جلاسه على التصريح بأكثر مما يصرحون به أمام سواه فكان على بينة مما يحدق بجعفر من الخطر وربما ألمع الى ذلك في بعض غنائه فلا يلحظه غير العارفين ـ فلما دعاه الى الغناء في ذلك اليوم غناه :

فلا تبعد فكل فتى سيأتي عليه الموت يطرق أو يغادي
وكل ذخيرة لا بد يوماً وان بقيت تصير الى نفاد

(١) الاغاني ١٠٣ ج ٥

ولو فوديت من حدث الليالى فديتك بالطريف وبالتلاد (١)

فلما سمع الحضور قوله أدركوا مراده الا جعفر . وما أتم ابو زكار غناءه حتى فتح الباب ودخل الحاجب . فقال له جعفر « ما بالك ! »

قال « ان مسروراً خادم امير المؤمنين بالباب .. »

فلما سمع اسمه اجفل لانه كان يستغلظه ويستثقل روحه لكنه لم يسعه الا الاذن بادخاله فدخل فصاح فيه جعفر « ما وراءك ! »

قال « يا سيدي أجب امير المؤمنين »

فانزعج جعفر من تلك الدعوة وقال « ويلك يا مسرور أنا في هذه الساعة خرجت من عنده فما الخبر ! »

قال « وردت كتب من خراسان يحتاج أن تقرأها له »

فاطمأن خاطر جعفر قليلا فنهض وهو يقول في نفسه « كنت احسب مقابلتنا في هذا الصباح آخر مرة ألاقي فيها هذا الرجل في بغداد فاذا أنا مضطر لملاقاته مرة أخرى لا حول ولا قوة الا بالله ! »

ثم دعا بثيابه وسواده وقلنسوته فلبسها وتقلد سيفه وامر ان تعد له الركائب وخرج وانفض المجلس . وفيما هو خارج من القاعة ومسرور بين يديه جاءه الحاجب ووقف بحيث يراه ويفهم انه يريد مخاطبته فتحول جعفر اليه وسأله عن غرضه فقال « ان عتبة جارية مولاتنا العباسة في دار النساء تطلب ان تراك . . »

فخطر له انها جاءته من عند العباسة للمخابرة بشأن السفر فقال « قل لها اني راجع الساعة فأخاطبها بما تريد »

قال « انها تطلب مقابلتك حالا »

فخطر له ان يقابلها ويسألها عن شأنها ولكنه خشي ان يلحظ مسرور ذلك فيبلغه الى الرشيد . فوقف هنيهة يتردد في الامر ثم تذكر ريحان وانه عالم بكل ما يتعلق بالسفر فقال للحاجب « دعها تقابل غلامنا ريحان وتطلب ما تريده فهو مفوض من قبلنا »

(١) ابن خلكان ١٠٩ ج ١

فأشار معلماً وخرج جعفر حتى أتى باحة القصر فركب في موكبه من الفرسان والغلمان وساروا يطلبون قصر الخلد يتقدمهم مسرور على فرس ويتوسط الموكب جعفر بسواده وقلنسوته وحوله الفرسان من نخبة رجاله وأكثرهم من الفرس وكلهم يفدونه بأرواحهم وكان اذا ركب اعتز بهم فقطعوا الشماسية حتى اتوا الجسر فتخطوه وأقبلوا على الميدان أمام قصر الخلد . فلما وصلوا باب القصر ترجل مسرور وأشار الى فرسان الموكب أن يقفوا هناك فوقفوا وهم في غفلة عن مراده فدخل مسرور وجعفر والغلمان في ركابه ولم يفطن لاشتغال خاطره بأمر تلك الدعوة . ولما دخلوا أومأ مسرور سراً الى البوابين فأقفلوا الباب وكانوا على موعد من ذلك قبل ذهابه . ثم دخلوا الباب الثاني فاستبقى الغلمان خارجه ودخل جعفر فأقفل الباب وراءه . ولما دخل الباب الثالث التفت فاذا هو وحده . ولم يبق معه احد من رجاله فندم على ركوبه في تلك الساعة ولم يمكنه الرجوع . ورأى في فناء القصر قبة تركية كان قد نصبها مسرور هناك بأمر الرشيد وحولها اربعون غلاماً من السودان فظن الرشيد ينتظره فيها فدخلها فلم يجد أحداً وانما شاهد في ارضها سيفاً ونطعاً فأيقن بالهلاك ووقف وركبتاه ترتعدان وغلب عليه الخوف وصغرت نفسه لعلمه بشدة مسرور وانه لو أراد مقاومته لا يقوى عليه . وهب انه غلبه فلا فائدة من فوزه وهو محصور في تلك الدار فعمد الى الملاينة فقال لمسرور « يا أخي ما الخبر ؟ »

فضحك مسرور ضحك الاستخفاف وقال « أنا الساعة أخوك وفي منزلك تقول لي ويلك أنت تدري ما القضية . . وما كان لله ليهملك ولا يغفلك . . فقد امرني امير المؤمنين بضرب عنقك وحمل رأسك اليه الساعة »

فلما سمع قوله بهذه الصراحة اقشعر بدنه وكاد الدم يجمد في عروقه وغلب عليه صغر النفس ولعل ذلك الضعف طرأ عليه من الشرب ـ ويتوقع القارىء ان يرى من جعفر الوزير ثباتاً ورباطة جأش في هذا الموقف شأن الرجل الكبير . ولكن الانغماس بالترف والمسكر يضعف القلوب ويحل العزيمة فلا صبر لصاحبهما على التجلد اذا تحقق وقوع المحذور ولا سيما ساعة

خروجه من مجلس الشراب كما كان حال جعفر في ذلك الصباح ـ فلما سمع مسروراً يخاطبه بهذه اللهجة الشديدة لم يتمالك عن الترامي عند قدميه وأخذ يقبلهما ويقول « يا أخي مسرور أنت تعلم كرامتي لك دون جميع الغلمان والحاشية وان حوائجك عندي مقضية في سائر الاوقات وأنت تعرف موضعي من امير المؤمنين وما يوحيه الي من الاسرار ولعل ان يكونوا بلغوه عني باطلا وهذه مائة الف دينار احضرها لك الساعة قبل ان اقوم من موضعي هذا وخلني أهيم على وجهي »

فقال مسرور « لا سبيل الى ذلك ابداً »

قال « فاحملني الى امير المؤمنين وأوقفني بين يديه فلعله اذا وقع نظره علي تتداركه الرحمة فيفصح عني »

فهز مسرور رأسه هز الاباء وقال « ما من سبيل الى ذلك أبداً ولا يمكني مراجعته وقد علمت أنه لا وسيلة الى الحياة أبداً »

قال « فتوقف عني ساعة وارجع اليه وقل له أنك فرغت مما أمرك به واسمع ما يقول وعد فافعل ما تريد . فان فعلت ذلك وحصلت لي السلامة فاني اشهد الله وملائكته اني اشاطرك نعمتي مما ملكته يدي وأجعلك امير الجيش واملكك امر الدنيا ... »

فلما سمع مسرور هذه الوعود ارتاحت نفسه اليها وخطر في باله ان الرشيد ربما امر بالقتل في حال غضبه فاذا سكن غضبه يغير فكره ويعفو عنه فيكتسب هو هذه الاموال ويتمتع بهذا المنصب فاطرق . فلما رآه مطرقاً طمع في الحياة ولبث ينتظر ما يبدو منه فاذا هو يقول « ربما يكون ذلك » ومد يده اليه فحل سيفه ومنطقته وأخذهما ووكل به السودان الوقوف هناك وأوصاهم بحراسته وخرج

فلما خلا جعفر بنفسه تلفت فلم ير غير النطع والسيف فاسترجع رشده ومع ما يغلب على المرء من الامل في الحياة مهما بلغ من تعرضه للخطر فجعفر لم يكن يرجو نجاة لما يعلمه من الاسباب التي بعثت الرشيد على قتله بعد ما كان يدور بينهما من المداجاة والمخادعة وأيقن في تلك الساعة أن

الرشيد عالم بحاله مع العباسة ثم تذكر مجيء عتبة بتلك العجلة فندم على استهالها ريثما يعود وخطر له ان تكون قد جاءت بتحذير أو تنبيه كان ينفعه لو اطلع عليه قبل خروجه فزادت مصيبته عنده خطارة واصبح كأنه يرى الموت رأي العين وهاجت اشجانه فتمثلت له العباسة كما فارقها للمرة الاخيرة وقد تواعدا على الفرار الى خراسان وتذكر ما كان يرجوه من النجاة بها وبولديه لو سافر أمس بلا وداع أو لو قابل عتبة قبل خروجه . فضاق صدره وتجسمت مصيبته فدهمه البكاء وود لوانه يرى العباسة قبل موته ويقبل طفليه قبل هذا الفراق الابدي . فأخذ في البكاء وجعل يخاطب نفسه قائلا « واحسرتاه عليك أيتها الحبيبة بل واهفي على قبلة من ولدي . قضيت العمر أتحرق على ساعة ألاعبهما بها كما يلاعب الاب اولاده فلما ظننت ذلك قريباً فاذا هو بعيد عني بعد الابدية ـ وأنت يا قرينتي بشرع الله ـ وان ادعى اخوك خيانتنا ـ لقد تحملت خطر الموت من اجلي وعرضت نفسك لغضب هذا الرجل المستبد حباً بي نعم لم يحملك على ذلك غير الحب الصادق ولولاه لكنت في نعمة وسعادة لان بني هاشم جميعاً يتمنون رضاك . ماذا عسى ان يكون حالك اذا عرف اخوك بأمرنا فانه قاتلك لا محالة ـ اذا لم يكن قد قتلك الآن . . هل جاءت عتبة لتخبرني عن قتلك وتحذرني من مثله رفقاً منك بحبيبك ان يصيبه ما اصابك ؟ ربما كان ذلك ـ وانت جديرة بهذه المنقبة . . قد عرفت استهلاكك في سبيل حبي غير مرة ـ فاذا كنت قد قضيت نحبك قبلي فأنا نادم على طلب البقاء بل أنا راغب في اللحاق بك . . . واذا كنت لا تزالين في قيد الحياة فأنت لاحقة بي لا محالة لان اخاك لم يسرع الى الفتك بي على عجل الا وقد اطلع على ما يظنه خيانة . . والله يعلم انا انما اطعنا به الشرع وشروط الحب » وسكت لحظة ريثما يبلع ريقه ويمسح دموعه ثم قال « وولدانا ؟... يا حسن ويا حسين .. أين أنتما الآن .. هل تعلمان بما حل بوالديكما من يد ذلك الخال الظالم . . . آه من استبداده وقساوة قلبه . . » قال ذلك وغص بريقه وأحس باختناق صوته واذا

بالمفتاح يعالج بالباب . فأجفل وانتبه لنفسه فسكت وبصره شاخص نحو الباب حتى اذا فتح دخل مسرور ووجهه مقضب فعلم انه لم ينجح بمهمته وهم ان يخاطبه فسمعه يقول « ذهبت الى امير المؤمنين فلما رآني سألني عنك فقلت له قد انفذت امرك فيه فقال ائتني برأسه حالا »

فلما سمع جعفر قوله تجلد وقال « افعل ما بدا لك ولكنني أسألك سؤالا واحداً اصدقني به وأنا في آخر لحظة من لحظات الحياة »

قال « وما ذلك . . ؟ »

قال « ماذا جرى بالعباسة ؟ قل الصدق ولا تخف وشاية فان سامعك مقتول »

قال « قد قتلت »

فصاح « قتلت ! . . اقتلني . . عجل بقتلي . . . لا أرب لي بالحياة »

ولم يتم كلامه حتى ضربه مسرور بالسيف على عنقه فأطار رأسه فحمل الرأس وهو يشخب دماً وذهب به الى الرشيد

الفصل الخامس والستون

الرشيد ورأس جعفر

قد علمت مما تقدم ان الرشيد هو الذي امر مسروراً ان يفعل ما فعله ودبر هذه الحيلة في ادخال جعفر قصر الخلد منفرداً على تلك الصورة الى القبة التركية وكان قد امره ببنائها في صباح ذلك اليوم على أثر خروج جعفر من دار الخاصة وذلك ان الرشيد ظل بعد خروجه ساعة يخطر في تلك الدار ذهاباً وإياباً ويعمل فكرته قبل الاقدام على ذلك الامر العظيم ويتردد بين التعجيل والتأني لعلمه بما للبرامكة من المريدين الذين يبذلون ارواحهم في سبيل نصرتهم . ولكنه اصبح بعد توالي قلقه وطول سهره وهو لم يذق طعاماً ولا شراباً ولا يزداد الا نقمة وغضباً ـ والارق وحده يورث ضيق الخلق وحدة الطبع مع ضعف القلب فكيف اذا رافقه القلق

والاضطراب ـ فخاف الرشيد اذا أجل الفتك أن يعلم جعفر بمقتل العباسة فيتأهب للدفاع وربما انقلب الامر الى عكس المراد . وكان من الجهة الاخرى يحب جعفراً حباً شديداً وقد ربيا معاً وتعاشرا على غير كلفة وكان يعده أخاً له فيشق عليه قتله . ولكنه كلما خطر الحب بذهنه اعترضه ما حفظه عليه من خيانته ومس عرضه فيقف شعره ويقشعر بدنه فلا يرى راحة الا بالاصرار على قتله

قضى في ذلك حيناً وهو يتمشى في الدار منفرداً واستغرق في تلك الافكار حتى نسي نفسه ولو دخل عليه أحد في تلك الساعة لرآه يسرع في مشيته تارة ويبطىء اخرى وبين اطراق وتصويب يحك ذقنه أو يشير بأنامله تهديداً ووعيداً أو استهالا وتردداً لا ينتبه لشيء مما يكسو جدران تلك القاعة من الستائر المطرزة أو الطنافس الموشاة كأنه لا يرى من الالوان غير السواد . وربما وقف لحظة أمام ستارة ليقرأ ما عليها من الاشعار أو ينظر في ما يكسوها من الاشكال وقد يقرأ البيت أو الفقرة فلا يفقه لها معنى لاستغراقه في الهواجس فاتفق أنه وقف أمام اسطوانة بجانب سريره قرأ عليها بيتين استفزا عزيمته وقضيا بامضاء أمره وهما :

ليت هنداً أنجزتنا ما تعد وشفت أنفسنا مما نجد

واستبدت مرة واحدة انما العاجز من لا يستبد

وكان متردداً وقد تضارب في ذهنه الاقدام والاحجام ثم تساويا كأنهما في كفتي ميزان وقد توازنا فأي شيء أضيف الى احد الكفتين رجحها . فما فرغ من تلاوة هذين البيتين حتى رجح عنده الاقدام فصمم على الفتك فصاح « مسرور » فدخل بأسرع من لمح البصر فأوصاه بما يعمله على نحو ما تقدم ومكث في القاعة ينتظر رجوعه وهو على أحر من الجمر حتى جاءه بالحيلة التي انتحلها جعفر لعله يصفح فرده واستعجله بالقتل فرجع وضرب عنقه وحمل رأسه وهو قابض عليه من لحيته فتدلى الرأس مقلوباً والدم يشخب من أوداجه ويسيل على خديه وعينيه وشعره

دخل مسرور بالرأس والرشيد جالس على السرير فطرحه على وسادة

بين يديه وتنحى في بعض جوانب الدار . فلما وقع نظر الرشيد على ذلك الرأس احس بزوال الخطر ولكنه لم يتمالك عن الاسف فامتقع لونه وجاشت عواطفه وتذكر سابق الحب بينهما . فنظر الى الرأس هنيهة وبيده قضيب من الابنوس المطعم بالعاج تعوّد ان يتلاهى به وهو جالس فجعل ينكت البساط به ويخاطب الرأس قائلاً « يا جعفر ؟ ألم أحلك محل نفسي ؟ . . يا جعفر ما كافأتني . . ولا عرفت حقي . . ولا حفظت عهدي . ولا ذكرت نعمتي . . ولا نظرت في عواقب الامور . . ولا تفكرت في صروف الدهر . ولا حسبت لتقلبات الايام واختلاف احوالها حساباً . . يا جعفر خنتني في أهلي وفضحتني بين العرب والعجم . . يا جعفر أسأت اليّ والى نفسك . . وما تفكرت في عاقبة أمرك . . » وكان يقول ذلك والقضيب بيده ينكت به البساط او ينقر به اسنان جعفر كأنه يستنطقه ومسرور واقف يسمع ويرى ولو كان له قلب لانفطر ولكنه كان فظاً قاسياً

وبينما الرشيد يخاطب جعفر بمثل ما تقدم ويعاتبه ومسرور لا يجسر على حركة ولا قول اذ سمعا وقع خطوات مسرعة نحو الباب ما زالت تقترب حتى سمعا قرعاً وقائلاً يقول « السلام عليك يا أمير المؤمنين أأدخل ؟ »

فاجفل الرشيد لانه عرف صوت اسماعيل بن يحيى فاشار الى مسرور أن يأخذ الرأس ويمضي . ففعل وخرج من باب في الجانب الآخر من القاعة . ولم ينتظر اسماعيل جواب الرشيد فدخل

أما الرشيد فما كاد يرسل بصره نحو الباب حتى رأى اسماعيل داخلا والبغتة بادية في وجهه وحول قلنسوته عمامة لم يحسن هندامها ولا سرح لحيته أو اصلح من شأنه كما ينبغي في مقابلة الخليفة

فلما رآه الرشيد داخلا تجلد وردّ التحية وأشار اليه ان يجلس

فجلس على كرسي بعيد عن الرشيد وهو يلهث حتى كاد يختنق من العجلة فنهض الرشيد ومشى نحوه وحاول الابتسام ترحيباً به ولكن التأثر غلب على تجلده وكظمه

اما اسماعيل فلما رأى الرشيد واقفاً وقف تأدباً فأمره بالجلوس وجلس

الى جانبه وقد أدرك ان اسماعيل انما جاءه في ذلك الحين لامر هام فاستعجل في الاستفهام منه عن غرضه فقال اسماعيل « جئتك شافعاً يا أمير المؤمنين .. وان أبيت فستمهلا أمرك الى حين »

الفصل السابع والستون

قضي الامر

فلاحظ الرشيد انه جاءه بشأن جعفر واستغرب اطلاعه على امره مع احتياطه في الكتمان كما علمت — وانما عرف اسماعيل ذلك من ريحان غلام جعفر لما علمته من مجيء عتبة بالخبر في ذلك الصباح فلما لم يرض جعفر مقابلتها وأحالها الى ريحان وقصت الخبر عليه وكان الموكب قد مشى فلم يجسران يتبعه لئلا تبدو الشبهة لمسرور فوقع في حيرة وتشاور مع عتبة ونظراً لما يعلمانه من صداقة اسماعيل وجعفر اجمعا على الذهاب اليه . فاسرع ريحان الى قصره فوجده جالساً في الحديقة فاخبره بما جرى واستحثه على التوسط لدى الرشيد فتعجل في لبس ثيابه وجاء الى قصر الخلد فمنعه الحراس من الدخول في بادىء الرأي ثم أذنوا له فدخل وهو لا يعلم بقتل جعفر ولم يخطر له تعجيل الرشيد بقتله الى هذا الحد . وسأل عن الرشيد فقيل له انه منفرد في دار الخاصة فجاء ودخل كما تقدم

فلما سمع الرشيد قوله وعلم انه يشفع اليه في جعفر تجاهل وقال « ان شفاعتك مقبولة وأمرك نافذ ولو على ولي العهد »

فاستبشر اسماعيل وقال « اطال الله بقاء امير المؤمنين وحفظ انجاله وانما أنا أشفع اليك في وزيرك جعفر . . »

فهز الرشيد رأسه وقال « جئت متأخراً يا ابن العم وقد نفذ القضاء »

فلما سمع اسماعيل قوله اجفل وتراجع وقال « قتلت جعفراً ! »

قال « قتله غدره .. »

قال « قتلته يا أمير المؤمنين ؟ . قتلت وزيرك وصاحب خاتمك ومدبر دولتك ؟ »

قال « لا سبيل الى اطالة القول يا اسماعيل . . ان وزيري هذا قد قتل بخيانته ولو علمت ما ارتكبه وانت هاشمي لحكمت عليه بالقتل »

فحسبه يشير الى ما يتهمونه من حب الشيعة العلوية باطلاقه ذلك العلوي وقد تفاوضا في ذلك من عهد غير بعيد . وكان اسماعيل يعتقد أنه لا يستحق القتل لاطلاعه على سعي اعدائه ووشايتهم به فقال « ألم يكن أمير المؤمنين قد عزم على ابعاده الى خراسان ثم يفكر في شأنه ؟ »

قال « قد كنت عزمت على ذلك ثم رأيت التفكير في أمره وهو في قبضتنا اقرب الى صيانة ملكنا ونيل مرادنا لانه اذا سار الى خراسان كان في أهله وأحزابه . . واهل خراسان لا يزالون ناقمين علينا منذ قتل جدي المنصور اميرهم أبا مسلم . . نعم انهم يعجزون عن مناوأتنا ولكنهم يشغلوننا . فمن سداد الرأي ان نتدارك الخطر قبل وقوعه »

فقال « رأي امير المؤمنين اصوب . . ولكن حساد جعفر كثيرون وقد وشوا به وكثروا ذنوبه وبالغوا بالطعن فيه واسير المؤمنين من حرصه على الخلافة لبني هاشم عجل بقتله وربما كان استبقاؤه انفع لمصلحة الدولة ولكن قضي الامر . . »

فلما سمع الرشيد تعريضه بذكر الواشين اراد ان يسترق منه اخبارهم لينتقم منهم أو يجتنب اذيتهم فقال « وهل أنت على يقين من ذلك . . ؟ ومن هم الواشون ؟ »

فهم اسماعيل ان يطلعه على ما يعلمه من سعي ابن الهادي والفضل بن الربيع وغيرهما ولكنه امسك لسانه واعمل فكرته فرأى التصريح يزيد الخرق اتساعاً ويزيد الدولة ضعضعة وارتباكا وهو حريص على صيانتها كما علمت . فلو كان جعفر حياً لكان الخطر من التصريح قليلا أما وقد قتل فاصبح ذكر الواشين والاقرار باقوالهم وأعمالهم وشاية اخرى فندم على ما بدر منه وعزم على كتمان ذلك فقال . « اذا كنت قد قتلت جعفراً فانها احدى

المصيبتين فاذا ذكرت لك غيره جررت الدولة الى مصيبة اخرى فليعفني أمير المؤمنين من ذلك وهو يعلم رغبتي في سلامة هـذه الدولة وقد عصيتني في ما أردته من تبرئة جعفر فلا تكلفني الوشاية بآخرين ولو علمت في ذلك خدمة نافعة ما كتمته فأطعني في هذا واعلم اني انما اكتمه في خير بني هاشم كما كان تصريحي ببراءة جعفر لنفس هـذا السبب . . وأتقدم الى الرشيد ان لا يعد اباي وقاحة .. واذا اعده كذلك فله ان ينتقم بما يشاء . اني لا أبخل بروحي في سبيل هذا الكتمان »

وكان الرشيد يجل اسماعيل ويعتقد اخلاصه وصدق نيته ويضن بحياته فقال « ان حياتك عزيزة علينا يا عماه وحاشا لله ان نسيء الظن بك وهب انك عصيتنا فانما تعصانا لتنفعنا. وأما جعفر فلو كان ذنبه مقصوراً على ما علمت من تعرضه للدولة ونصرته للشيعة لصبرنا عليـه واحتطنا له كما صبرنا في ما مضى لان انحيازه للشيعة لم يكن جديداً علينا . ولـكنه ارتكب ما هو افظع من ذلك كثيراً . . ارتكب ما لو علمته لسبقتني الى قتله به . . لا تسألني عما ارتكبه فاني حريص على كتمانه ولو علمت ان يميني علمت به لقطعتها . . » قال ذلك وقد اشتد غضبه وزاد انقباض اسرته وارتجفت شفتاه حتى رقصت لحيته ثم هز رأسه وقال « آه آه .. لو استطيع قتله مرة اخرى لفعلت . . »

فتهيب اسماعيل من غضب الرشيد ولم يفته الامر الذي سمعه يلمح اليه فان خبر العباسة بلغه على علاته وهو على خلاف رأيه فتجاهل ولو رأى مجالا للـكلام ما تكلم لئلا يجر الـكلام الى الجدال بلا فائدة لعلمه بشدة غيرة الرشيد على العرض وحرصه على شرف بني هاشم فظل ساكتاً

ثم سمعا الآذان لصلاة الظهر فنهض الرشيد ونهض اسماعيل واستأذن وخرج

الفصل السابع والستون

الحسن والحسين

أما الرشيد فأمر صاحب وضوئه فجاءه بالماء فتوضأ وخرج للصلاة في الجامع فصلى بالناس جماعة ورجع الى داره فانفذ بعض خاصته للقبض على والد جعفر واخيه وجميع أولاده وعلى قصورهم ودورهم واستباح ما فيها فاستولى رجاله على ما وجدوه هناك من الجواري واستبقوهم لخدمتهم الا ريحان وعتبة فانهما فضلا اللحاق بمن قتل فقاوما بعض الذين جاءوا للنهب فقتلوهما ووجه الرشيد مسروراً الى معسكر جعفر في النهروان فأخذ جميع ما فيه من مضارب وسلاح وخيام وغير ذلك

وأصبح الرشيد يوم السبت وقد قتل من البرامكة وحاشيتهم الف انسان وترك من بقي منهم لا يرجع الى وطنه وحبس يحيى بن خالد والد جعفر والفضل بن يحيى اخاه في مطمورة وأمر بجثة جعفر فصلبت على جسر بغداد

فلما اطمأن خاطره من هذا القبيل ذهب الى زبيدة امرأته وأخبرها بما كان فاستحسنت ذلك ولكنها تذكرت الصبيين فقالت « لقد فعلت فعل أهل الحزم وانقذت الخلافة من الاعداء ولكن ما الذي فعلته بالصبيين ؟ »

فاطرق وأعمل فكرته فابتدرته قائلة « اذا أردت محو العار الذي لحقنا فبادر الى ازالة اثره لان بقاء الصبيين وصمة باقية . . »

فقال « وهل تعلمين مقرهما ؟ »

قالت « اذا شئت دلت خادمك على مكانهما »

فقال « اخبري مسروراً عن ذلك »

فدلته على مخبئهما ومضى الرشيد الى قصره وجلس ينتظر مجيئهما

وكان الغلامان قد خبأهما الفضل بن الربيع على يد أبي العتاهية في بيت على شاطىء دجلة وأوقف عليهما الحراس فذهب مسرور اليهما وحملهما الى قصر الخلد بعد ان قتل رياشاً وبرة الخادمين القائمين على تربيتهما

ولما جاء مسرور بالغلامين ادخلهما على الرشيد وكان جالساً على وسادة وحده

فدخل الغلامان وهما يدرجان ويضحكان ووجهاهما يطفحان سروراً وسذاجة وطهارة يحسبان الرجل جاء بهما الى فرجة أو وليمة ، فلما رأى الرشيد جمالهما انقبضت نفسه اسفاً على ما سيناهما من الاذى لعلمه أنهما بريئان طاهران . ولكنه كان قد صمم على محو اثر تلك الجناية من الوجود فتجلد ودعاهما اليه فاسرعا وترامیا عليه وهما يلتفتان لمشاهدة ما في تلك القاعة من الرياش الفاخر والالوان الزاهية

فسأل الرشيد اكبرهما « ما اسمك يا قرة عيني ؟ »

قال « الحسن »

فقال للاصغر « ما اسمك يا حبيبي »

قال « الحسين »

فأعجب الرشيد بمنطقهما لان لغتهما وفصاحتهما هاشمية ثم اعمل فكرته في ما هو مقدم عليه من الامر الخطير وهو والد محب لاولاده ولو لم يكن والداً لكان الاقدام على ذلك العمل اسهل عليه لان الحنو لا ينضج ويبلغ اشده الا في قلوب الوالدين والوالد لا يقصر حنوه على اولاده بل هو يتعود ذلك حتى يحن الى كل ولد — وزد على ذلك ان في الغلامين دماً هاشمياً والقرابة من اسباب الانعطاف فعظم الامر على الرشيد ولبث حيناً يفكر والغلامان يلاعبانه ويعبثان بلحيته وطوقه حتى كاد الحنو يغلب عليه فتذكر ما هو فيه وخاف غلبة الضعف فعاد الى الحزم وسرعة الفتك لئلا يحول بينه وبين ذلك شافع فعمد الى قتلهما على ان لا يرى ذلك بعينه ولا يسمعه باذنه . فتصادمت عواطفه وجاشت اشجانه فغلب عليه البكاء واغرق فيه حتى منعه من الكلام والغلامان يعجبان لبكائه . أما هو فنظر اليهما والدمع يترقرق في عينيه وقال « يعز علي حسنكما وجمالكما . . . لا رحم الله من ظلمكما » ثم قال « يا مسرور أين المفتاح الذي دفعته اليك . وامرتك بحفظه ؟ »

قال « هو حاضر يا امير المؤمنين »

قال « فأتني به »

ثم دعا بجماعة من الغلمان وامرهم ان يذهبوا مع مسرور الى تلك الحجرة ويحفروا فيها حفرة عميقة واومأ الى مسرور ان يقتل الغلامين ويدفنهما في تلك الحفرة ـ أومأ بذلك وهو يبكي بكاء شديداً حتى ظن مسرور انه رحمهما ولا يلبث ان يعدل عن قتلهما فاذا هو قد مسح عينيه ونهض وأشار الى مسرور أن يمشي فاطاعه ومضى بهما الى تلك الحجرة ثم عاد واخبر الرشيد انه قتلهما ودفنهما هناك وقتل الرجال الذين ساعدوه على ذلك

وامر الرشيد من يومئذ ان لا يذكر البرامكة في مجلس ولا يستعان بمن بقي منهم في شيء ابداً . فخرجوا على وجوههم في البلاد شاردين متنكرين جائعين [1] عارين واصبح الناس يتمثلون بنكبتهم مثل تمثلهم بثروتهم وسخائهم . وخلا الجو لاعدائهم فنالوا ما تمنوه من التنكيل بهم وتولوا مصالح الدولة بعدهم ولا سيما الفضل بن الربيع فانه تقلد الوزارة وصار اليه الحل والعقد ـ فسبحان مبدل الاحوال

﴿ انتهت الرواية ﴾

(١) اعلام الناس للاتليدي ١١٧ وابن خلكان ١٠٥ ج ١